

مدرسة الفن والحياة

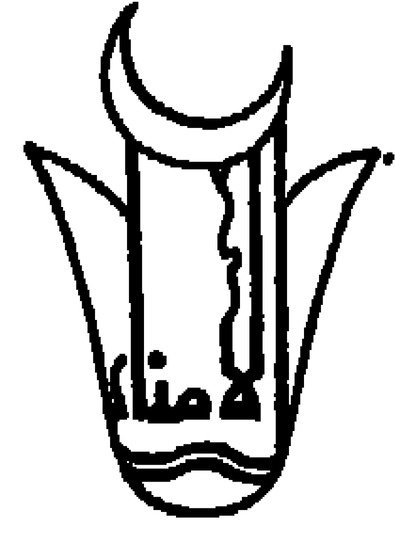
أمين الخولي

فن القول

في معهد الدراسات العليا

دراسة مقارنة
تصيير البلاغة
فن القول

الناشر
دار الفكر العربي
شارع أمين باشا سامى بالمنيرة — بالقاهرة



مدرسة الفن والحياة

أمين الخولي

فن القول

في معهد الدراسات العليا

دراسة مقارنة
تصيير البلاغة
فن القول

الناشر
دار الفكر العربي
شارع أمين باشا سامى بالمنيرة — بالقاهرة

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمناء

مدرسة الفن والحياة

شعارهم: كريم على نفسي

أهدافهم

١ ألا يكون الفن ارتزاقاً وضيعاً ولا تكسباً متجراً بحرم الشهوات والأهواء ويحمي الأصنام والأوهام

١ وأن يكون الفن نشاطاً وجدانياً سامياً يسعد الفرد والأمة إذ يلبي حاجتها ويحقق في الحياة الكريمة غايتها كسائر الوظائف

٢ ألا يكون الفن نسياناً للذاتية وإهداراً للشخصية يجول في الأرجاء يرجم بالظن ويحدس بالوهم

٢ وأن يكون الفن في مصر نشاطها من مصر ولمصر فهو في كل إقليم طابع شخصية وصورة نفسية وهو في الأقاليم المتواشجة ذو طابع عام وراءه خصائص خاصة

٣ ألا يكون الرأي الفني العام توجيه مسيطر ولا احتكار متجر ولا تهويش مضلل ولا وضع يد ولا مضي زمن

٣ وأن يكون الرأي الفني العام رقيباً فنياً متجرداً يستعصي على الأهواء ويحكم التقدير فيذهب الزبد جفاء ويخلد الجيد على الزمن

٤ ألا يكون درس الأدب وتاريخه تناولاً سطحياً وترديداً تقليدياً لما لا يساير تقدم الإنسانية ورقي الحياة العقلية

٤ وأن يكون درس الأدب وتاريخه على منهج تصححه الخبرة الإنسانية بالحياة والنفس والجماعة ويمثل التقدم الإنساني والرقي العقلي

مُحَاوَلة

من أهداف الأمناء :

أن يكون درس الأدب وتاريخه ، على منهج تصحح الخبرة بالحياة ، والنفس ، والجماعة ، ويمثل التقدم الإنساني والرقى العقلى .

وهذا الكتاب محاولة لتصحيح منهج درسنا للبلاغة ، التى هى قوام الحياة الأدبية الصانعة والناقدة .

الأمناء

مدرسة الفن والحياة

هدية

من الأمناء :

إلى رسل الأمة الكرام .

إلى رواد المستقبل الزاهر .

إلى الذين يديرون مزاج الأمة الفني ، حين يروضون كل فرد من أبنائها، على ما يستطيع من فن القول .

على الأيام

« فن القول » : كلمتان خفيفتان على اللسان ، فعولان فى الوجدان ؛ تمثُلان أمامى شاخصتين ، كأنهما العلم الذى يركزه الرائد ، حيث ينتهى به الارتياد . يثبت به وصوله ، ويبسط به سلطان أمته . وكذلك كانت هاتان الكلمتان الخفاقتان الرفافتان ، هما العَلم الذى ثُبِّت بعد ارتياد دام بضعة عشر عاما ، لهذه المنطقة من الدرس الأدبى فى العربية .

* * *

دخلْت كلية الآداب أواخر عام ١٩٢٨ م ، والجو كله منتعش منعش ، يهفو إلى الجديد ، ويشعر بثقل الوقوف الجامد ، لدراسة العربية وعلومها ، منذ المئات من السنين ، وقد قامت المعركة الكبرى بين المتشبثين بهذه الحياة ، يحاولون بثها فى تلك الدراسات وكتبها ورجالها ، وبين المتوقفين فى ذلك كله ، المناضلين دون أيسره . . .

بدأت المعركة فى الجامعة ، بل فى كلية الآداب دون غيرها ، وتطاير شررها ، وانتثرت شظاياها على المعاهد التى تدرس اللغة ، كدار العلوم ، والقضاء الشرعى .

كنت إثر عودتى من أوربا قد عدت إلى مكانى فى مدرسة القضاء ، أدرّس فى تخصصها ، وقسمها الجديد ـ الذى أرادوا به إعادتها بعد إلغاء ـ مواد من الثقافة الإسلامية ، فإذا هذا الشرر وتلك الشظايا ، تفزع القائمين بتدريس العربية وأدبها ، وتنفرهم عن مكانهم ، وتلزمنى أن أنقل إلى تلاميذ مدرسة

القضاء الجديدة ، أنباء هذا التجديد الأدبى ، الذى دوّت معركته فى الآفاق ، واشتركت فيها دور القضاء .

وكنت — كما تقضى الحياة — متصلا بأنباء هذه المعركة ، وأنا فى أوربا ، حيث تفيض الدنيا جدة وتوثبا ؛ لكنى كنت أقف منها موقف غير المحارب ، الذى لا يكره انتصار المهاجمين فيها ، ولا ييتئس بهزيمة المعاندين المدافعين ، دون أن تذرو ريح الهزيمة المُثُل القديمة ، ولا تنسف هيا كل آثارها ، لأن فى هذا القديم أصلا من حياة ، لقى بها الدنيا يوم جاءها ، وقبل أن تشلّه عوادى الزمن ، فهو صالح لمتابعة النماء ، من حيث عوقته عوامل الجمود .. وذهبت بهذا الشعور ، أحدث تلاميذى فى مدرسة القضاء عن التجديد الأدبى ، حديث المؤمن به ، الذى يراه ناموس الوجود ، كما يرى أن فى القديم ما لا يزال صالحا للتقوّى به ، والبناء عليه .

* * *

ثم شاءت الأقدار أن أدع مدرسة القضاء إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد ، لأمضى فى هذا الدرس الأدبى ، فدخلت ميدان التجديد الأول ، على خبرة به ، ورأى ثابت عنه ، وخطة بينة فيه ، أدرت عليها عملى فى درس البلاغة وسواها .

وكان طلبة الحقوق — إذ ذاك — يتلقون دراسة فى كلية الآداب ، يراضون فيها على القدرة الكلامية فى عملهم بالقضاء والمحاماة ، ويمرنون على الخطابة ؛ وجو هذه الدراسة وهدفها ، يقضيان باتخاذ طريقة عملية ، ذات أثر إيجابى قريب ، بعيدة كل البعد ، عن المحاولات النظرية ، فكان هذا أول ما ألزمنى الخروج عن المألوف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها .

ثم كانت الدراسة لطلبة قسم اللغة العربية ، فى هذا الجو المتجدد ، الذى

أشرت إليه ، وبعد معاناة لهذا الاتجاه العملى ، فكانت ثانية ما ألزمنى الخروج عن المألوف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ؛ وكان الخروج على هدى من تلك الخطة التى وصفت آنفا .

طفقت أتعرف معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة ، والأدبى منها بخاصة ، وأرجع إلى كل ما يجدى فى ذلك ، من عمل الغربيين وكتبهم ؛ وأوازن بينه وبين صنيع أسلافنا وأبناء عصرنا فى هذا كله.. وكانت نظرتى إلى القديم - تلك النظرة غير اليائسة - دافعة إلى التأمل الناقد فيه ، وإلى العناية بتاريخ هذه البلاغة ، أسائله عن خطوات سيرها ، ومنعرجات طريقها ، أستعين بذلك على تبين عقدها ، وتفهم مشكلاتها ، ومعرفة أوجه الحاجة إلى الاصلاح فيها ... وبذلك كانت الطريقة التاريخية ، مع الاستفادة بالحديث ، منهج درسى للبلاغة فى الجامعة ؛ وجعلت أقف الوقفة المتأنية ، عند الجانب من جوانب حياتها ، أتولاه ببحث مفرد ينشر ، أو بدرس طويل ، وإن لم يخرج عنه شىء مكتوب فأخرجت رسائل مفردة : عن «البلاغة والفلسفة» سنة ١٩٣١ ؛ وعن «مصر فى تاريخ البلاغة» سنة ١٩٣٤ ؛ وعن « البلاغة وعلم النفس» سنة ١٩٣٩ ؛ كما كتبت مادة بلاغة كتابة مستقلة فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٣٨ ، فوضعت المعالم الكبرى لما انتهيت إليه من الرأى فى التغيير .

مضيت فى هذا الدرس المتأنى ، أمسّ مسائل البلاغة مسًّا رفيقا جريئا معا ، أقابل فيه القديم بالجديد ، فأنقد القديم وأنفى غثه ، وأضم سمينه إلى صالح الجديد وتلك خطة لا تدوم فى دراسة جامعية ، أساسها التجدد ، وحياتها فى نماء متصل ؛ ولذا قاربت أن أفرغ من النظر فى القديم ، بعد ما ضممت خياره

إلى الجديد ، فألفت منهما نسقا كاملا ؛ يرجى أن يكون دستور البلاغة في درسها ، ومضيت أتناول أقسامه بالدرس ، قسما قسما ، وأدع فى كل عام ما درسته إلى غيره ، إلا أن تكون إعادة شيء تقضى به حاجة الطلاب ؛ وبهذا صارت البلاغة فى الجامعة « فن القول » ، وإن بقى لها اتصال يسير بقديمها ، تحوج إليه الصلة ، بين المعاهد المتعددة لتعليم العربية ، وما تجره تلك الصلة من منافسة ، قد تزعم أن ترك هذا القديم جهل له ، فنبقى للطلاب صلة به ، ترد عنهم مثل هاتيك التهمة ، ريثما يستقر ما بين تلك المعاهد على حال مقبولة .

* * *

وليس يجب لاستقرار هذا التجديد البلاغى ، أن نملى فى « فن القول » على طلابنا أمالى مُحبَّرة ، أو نخرج لهم سفرا مدونا ، لأن ذلك فساد كبير لخطة الجامعة فى درسها ، وما تتبعه فى تكوين طلابها ، إذ تؤثر العمل الفردى للطالب ، والكسب الشخصى للدارس ، على التحصيل الملقن ، والثراء المستجدى ؛ هذا إلى ما فى طبيعة الدرس الأدبى من قيام على الذوق الشخصى ... ولكل أولئك وجب — فى تقديرى — أن يجدّ الطلاب ليدونوا بأنفسهم ما فهموه مما سمعوا ، وينظروا فى المتون الأدبية ، على هدى المنهج الفنى ، نظرة مستقلة ، يستحسنون بها ما يحسن لهم ، وينفرون مما قبح عندهم ... ومهما يقل فى ذلك قائلون ، ويلُم عليه لائمون ، يزنون طلابهم بما حفظوا ، ويقدرونهم بما حصّلوا ، فإنا مطمئنون إلى سلامة طريقتنا ، وجدواها على الطلاب ، وتحقيقها لما يرجى فيهم من أمل ، وإن لم يلقوا سواهم فى ميدان التحصيل ، وباحة الاستظهار .

* * *

ومنذ بضعة أعوام طمعت وزارة المعارف ، فى أن تدفع مدرسى المدارس الثانوية إلى النماء المستمر ، وتصلهم بما جد فى موادهم من اتجاه وتغيير ، فأنشأت

« معهد الدراسات العليا » ليتلقوا فيه دراسات مسائية ، تحقق لهم هذا الغرض الكريم ، وعهد إلىّ أن أدرس البلاغة فى هذا المعهد ، فوجدت فى ذلك فرصة مواتية ، لنجاح فكرة التجديد الأدبى نجاحا عمليا ، قريب الطريق ، إذ يكون دعاتها هم المدرسون ، صانعو الخلف ... ولكن أمد هذه الدراسة قصير ، فهو مساءان فى كل أسبوع ، لثلاث مواد ؛ مدة عامين ، يذهب نصف كل عام منهما فى أجازة الصيف ودورى الامتحان، فليس لهذه البلاغة فى المعهد إلا نحو مائة ساعة فى العامين ؛ فهل نسلك الطريق المتأنية ، ونتبع الخطة التاريخية ، لنقف هؤلاء الدارسين على مناشىء مشكلات البلاغة ، وطريقة حلها ، ونتولى معهم عرض هذه الحلول تفصيلا فى المسائل كلها ، أو فى أكثرها ؟ ليس ذلك ممكنا ، فى هذا الزمن القصير ... ثم هم إنما يُعنون، ونعنى معهم، بالناحية العملية التعليمية ، أكثر من الناحية النظرية الباحثة ، فكيف نوفق بين ضيق الوقت ، وطابعهم الخاص فى الدرس ، وما نرجوه من أن يقوم هذا الدرس على نظرة أصيلة ، وفكرة حرة ، يكون للدارس فيها شخصيته المستقلة ، وذوقه الذاتى ؟ .

هذا ما دبرت له فى المعهد ، مقدرا أن هؤلاء الدارسين لهم من الصلة الوثيقة بالقديم ما يكفى للاعتماد عليه عند الإشارة له ، ويرجى أن يكون لهم من الإنصات للجديد ما يغرى بخيره ، فلو حدثناهم عن القديم حديثا مركّزا وألقينا إليهم نتائج الدرس التاريخى مجملة ، ووضعنا لهم الجديد إلى جانب القديم فى مقابلة ، ودللناهم على الطريق ، فى احتفاظ بحريتهم ، واستثارة لنشاطهم ، وتنبيه لأذواقهم ، لحققنا بذلك أقرب الغرض، وإن لم يكن أكبره، وما دام يتحقق من هذا الغرض العملى القريب ، بالجدوى على الدراسة الجامعية ، إذ يجيئنا من تلاميذ هؤلاء المدرسين من له أنس بالفكرة ، واطلاع على أسسها العامة ،

فيكونون أقرب إليها ، وأعون على تمثلها وفقهها ، ممن جاءنا قبلهم ولا عهد لهم إلا بالقديم فى صورته الماحلة . . وكذلك كانت خطة « فن القول فى معهد الدراسات العليا » هى: دراسة مقارنة ، يقابل فيها القديم بالجديد ، وتنتهى تلك المقارنة إلى نتائج نفكر فى تحقيقها ، فندل على تخلية تترك من القديم مالا خير فيه ؛ ثم تحلية تضم إليه خير ما فى الجديد ، فإذا ما تم ذلك فى الصورة ، وأفق البحث ، ومنهج الدرس ، وغايته ؛ فقد مثّلت الفكرة الجديدة ، ولو ريض بعدها الدارس على مُثُل من التناول الجديد المغيِّر ، ثم أطلق ليعمل فى ذلك مستقلا ، لتحقق خير ما يرجى فى دراسة مسائية قصيرة إضافية كتلك الدراسة ؛ واستطاع من لم يتصل بها من المدرسين أن يجد فى تلك الأصول ما يكشف له عن جملة أمر الدعوة المجددة ، والرغبة المُصلحة ؛ ثم إذا ماطال العمر بالمعهد ، وتغيرت المثل التى تدرس فى كل عام ، وُضِعَت بين أسماع المدرسين وأبصارهم ، محاولات متفرقة ، لنواحى فن القول المختلفة ، واستقرت بذلك الصورة العملية القريبة له ، حين تعمل الجامعة فى دأب ، على تأصيل الفكرة المؤرخة الرزينة ، المتعمقة .

ذلكم هو « فن القول فى معهد الدراسات العليا » ، وفرق ما بينه وبين فن القول فى الجامعة ؛ وتلكم هى الخطة التى اطمأننت إليها فى المحاضرات التى ألقيتها بالمعهد ، وأصر الدارسون فيه على إخراجها فى كتاب ، وسعوا إلى إنجاز ذلك ودبروا له ، فأعانهم الأمناء فيه ... ولست أخشى منه ماخشيت على فن القول ، من جمود القاعدة ، وتحديد التدوين ، لأنه إنما يحمل أصول التجديد ، لا التفاصيل الكاملة فيه ، فسأدع الدارسين فى المعهد يتصلون به ، ليستمعوا بعد وقوفهم على الأصول ، إلى مُثل تتجدد كل حين فى موضوعها ، وفى تناولها

أيضا ؛ وسيرى فيه من ليس فى المعهد أصول هذا التغيير ، فيكوّن الرأى عنه ويسعى لما يهديه إليه رأيه ، إن مخالفا ، وإن موافقا .

***

وجلى أن المقارنة التى أدرت عليها هـذا الدرس ، إن كانت واضحة الصورة نوعا ما ، فى درسنا القديم ، فإنها ليست كذلك فى تناول الغربيين ، ولـكنما استخلصتها منه ، على هذا الوضع ، إدناء للجديد من أفق القديم ، وتمكينا للقديم من تمثل الجديد وتلقيه . .

وإن فيما عرضت له من نواحي هـذه المقارنة لآفاقا بعيدة التسامى ، ماضية التحليق ، لـكني لم أرد أن أشرف فى هذا التناول ، إلا على القريب الذى لا يبهر نظر من لم يألف هذا التحديق ، راجيا أن يكون فيه التمهيد الكافى ، لما نطمح إليه من استشراف فنى سام ، نغري به فى درس الموضوع ، وتناول التفاصيل .

***

والحديث عن خطة « فن القول فى معهد الدراسات العليا » وما آثرته فيها من مقارنة ومقابلة ، وتدوين للنتائج فى وضح النهار ، وإرشاد إلى سبل التجديد فى بهرة النور ، حديث يذكر بظاهرة فى نهضتنا الأدبية ، مغايرة لهذه الخطة ، شكاها المتأدبون قبل اليوم ؛ وتلك هى اصطناع الآراء الغربية اصطناعا خفىّ الأساس ، ولقاء الناس بها لقاء مدعيا ، يعمّى سبيلها عليهم ، وينكّر صلتها بما عندهم ، فينفرون ويجفلون ، ويستريبون ويتهمون ، وتكون تلك المشادة الخاسر أهلها من الفريقين ؛ وقد سبقت الشكوى من ذلك منذ عهد بعيد ،

فقال قائلهم من نحو عشرين سنة[1] «... وكان أعضاء البعوث المعنيون بالآداب والعلوم ، الراحلون لجلب معرفة الغرب إلى الشرق . فعاد منهم كثير إلى مصر وعادت معهم أراء الغربيين ومذاهبهم . . كتبوا فى تاريخ الأدب العربى ، فنقلوا آراء الغربيين نقلا ، أو صاغوها صياغة جديدة ، وقدموها إلى قراء العربية ثمرة من ثمرات بحثهم المستقل ، وجهدهم الذاتى ، ولم يأبه كثير منهم أن ينسب الرأى إلى صاحبه ويعزو المذهب إلى مؤسسه ؛ والأمانة العلمية أندر ألوان الأمانات ، وأقلها وجودا » .

ذلك ما اتقته تلك الطريقة حين قامت على الموازنة والمقابلة ، التى تعزو كل شىء لأهله وتنسبه إلى قومه ؛ ولا ضير علينا أبدا فى أن نجد ما نجد من المشقة فى استخراج صور هـذا التقابل ، وأوضاع هاتيك المقارنة ، ثم تظن يسيرة قريبة المنال ؛ ولا بأس أن تضيّع هذه الطريقة التى آثرناها زهو الادعاء ، ونخر الطرافة ، وتكثر الابتكار ، فما بمريد الإصلاح أن يدعى ما لا يملك ، ويتكثر بما ليس له ، ويلقى الناس بثوبى زور ؛ بل حسبه أن يتجه وينتبه ، ويدرك ويقدر ، ويدعو ويبين ، وذاك أثمن ما يملك ، وأصدق ما يرسل من دعوى ، وأروع ما يقدم من طرافة .

***

وإن الحديث عن أهل الجديد ، وطريقتهم فى عرضه ، ليذكر بالكلام عن أصحاب القديم ، وما يلقون به الإصلاح ، إذ يحسبون أن وكد أهله ، أن يكون

---

١ — من مقال فى السياسة الأسبوعية بتاريخ ١٩٣٨/٤/٢ عنوانه حياتنا الأدبية بين التبعية والاستقلال لولدنا الأديب الدكتور سيد نوفل .

القديم باطلا كله ، وهمهم أن تتسع مسافة الخلف بينهم وبينه ، وإلا لم يحمد لهم عمل ، ولم يقدر لهم جهد ، ومن هنا يترك غير قليل من الناس ، التمثل الصادق للفكرة المجددة ، ليُعنوا بإثبات أنها فى القديم ، أو أنها منه بسبب ما ، حتى ليتكلفون الشاق المعنت ، فى إخراج القديم عن صورته ، أو إزاحة الجديد عن مكانه ، لينكروه ، ويجحدوا الفضل فيه ، ويزعموا يسر الأمر وتفاهة الغرض! كأنما الإصلاح لا يكون إلا بالوقوع على إكسير يحيل الرصاص ذهبا ، ويغير الطبائع ، ويوقف سير النواميس ؛ وليس عمل صاحب الإصلاح ـ كما قلت ـ إلا أن يتجه وينتبه ، ويدرك ويقدر ، ويدعو ويبين ، وذلك مجده وفضله ، وبحسبه أن خلص من سحر التلقين ، وسلطان التقليد ، ولم يقل : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .. ولو كان ما ينكره بعد ذلك لمحة ولحظة ، أو خفقة ، وطرفة ، فبهذا ومثله يتغير الوقع ، ويصدق الحكم ، ويدق الحس فى عالم الفنون .. وبأيسر منه تتغير النتائج فى دنيا التجارب والعلوم .

وإنى لآمل أن تكون محاولتى تلك قد حققت منه شيئا على الأيام ؟

مصر الجديدة { ربيع الثانى سنة ١٣٦٦ هـ
فبراير سنة ١٩٤٧ م }

أمين الخولى

كلمة الأمنـــاء

تتميز النهضة المصرية الأخيرة ، وهى المرحلة التى تبدأ من الحملة الفرنسية ، والتى ما تزال تمتد وتلتوى وتتشعب ، تتميز هذه النهضة بغفلة الفكرة ، وتعثر الإرادة ، وتداخل الأهداف ، كما تتميز بالصراع العنيف بين أصالة الشخصية القومية ، وبين عاطفة التردد والمحاكاة .

فمنذ تفتحت من مصر حوافز النهضة والتحضر ، وذلك الصراع يعمل عمله فى توجيه النزعات التقدمية ، وفيما ينتاب هذه النزعات من اعتدال وانحراف ، وما يتملكها من جمود واندفاع ؛ ويتمثل هذا الصراع فيما يستمسك به اللاشعور الجماعى ، حين يصطدم من الجماعة بظاهر الشعور ، ويأخذ أمواجه بالتوقف المشدوه ، أو المسايرة المستكينة .

وكأن الأقدار لم تكتف لهذه النهضة المتهافتة بالصراع بين اللاشعور الجماعى ، بما ينطوى عليه من رواسب الوراثة ، وبين الشعور الجماعى ، بما يتجاذبه من أسباب الخديعة ، كأن الأقدار لم تكتف لهذه النهضة بذلك الصراع ، فسلطت عليه صراعا آخر ، يتمثل فيما بين الإرادة الوطنية الصميمة من اصطدام ، وبين أنانية النفوذ الدخيل ، مما أصاب « مصر » فى نهضتها الأخيرة ، وصنع منها هذه النماذج المرذولة ، وجعل من أجيالها وضحاياها

(١) مضت سنة الأمناء ، أن يقدم شبابهم ، وهم أصحاب الند ، أعمال شيوخهم التى يدبرون بها لهذا الند ، وعلى هذه السنة أقدم «فن القول» .

معرضا للتمدين الممسوخ ، حين تنحلُّ قواه ، وتتساقط آماله ، وحين تستدير به المذاهب إلى غير غاية ، وحين لا يجد نفسه ، ولا يطمع فى أن يجدها عند القديم المتراجع ، ولا عند جديد مضطرب هزيل .

سيطر هذان الصراعان ، بما يدفعان من أمواج واعتبارات ، على تيارات النهضة المصرية الأخيرة ، وسيطرا على الكيان الاجتماعى : تفكيرًا وشعورًا ، وسيطرا عليه : فنًا، وتفلسفًا، وسياسة ، حتى اختلطت الوسائل، وشُبِّه للمفكرين فى المصير ، فلم يُميِّزوا الرأىَ من الهوى ، ولم يفرِّقوا بين وَعْى الضمير الإنسانى وبين أخيلة الوصول والادعاء . وذهبت هذه المرحلة من التاريخ المصرى نَهْبًا لمقتضيات هذيْن الصراعين ، فظهرت أعراض ، وظهرت من ورائها أمراض ، وكان من أخطر هذه الأمراض الاجتماعية الحضارية ـ إن لم يكن أخطرها ـ انطماس الوجدان المصرى الأصيل ، وانطفاء ملكاته الفنية ، واكتفاؤها من وجدان الشخصية القومية ، بظاهر تافه سطحى .

نستطيع أن نتصور هذا المرض الجماعى، ونستطيع أن نتبين خطورته الفادحة إذا ما تتبعنا الشخصية الفنية لحياة الجماعة ، وتفهمنا إلى أى حدٍّ كان هزالُ فنِّها القومى علةً لطائفة من العلل ، ونازلةً مكّنت لطائفةٍ من النوازل، وإلى أى حدٍّ كان تهافت الفنِّ المصرى الأصيل مكمنًا للأدواء القومية ، ومعوِّقا قاهرا قد هبط بثيرات النشاط المصرى ، فى جميع مذاهبه وآفاقه ، كما أنه الإصابة الخفية التى تتغلغل فى الكيان المصرى ، فتأخذه إما بالتراجع المضطرب ، وإما بالطَّفرة الهوجاء ، وإما بالتوقف المضلِّل ، ثم يدور بعقليته ووجدانه ، ويتحكم فى تكييف تصوراته ، وفى تشخيص الآراء والمعتقدات ، وفى توجيه البيئة

التعليمية إرسالا واستقبالا ـ وليس هذا جميعًا بالقليل ، حين نتذكر أن أصالة الفن القومى ، كما أملتها مقتضيات المكان والزمان ، وأخرجتها ملابسات البيئة : مادية ومعنوية ، تنزل من المجتمع الناهض ، منزلة القدرة من الإرادة ، وتمدُّه بالغذاء النفسى ، وبأسباب النشاط التى تتسامى بوجهته الناهضة إلى آفاق الضمير المثالى ، وما حوله من قيَم وأهداف ، وهكذا كان واقع الحياة المصرية فى جميع مراحله مسرحا لما يبعث الألم ، ويزعج الضمائر ، وقد صاحب هذه المراحل التاريخية هزالٌ فى الفن الجماعى ، وصاحبها انطواء على الذات ، دفع إليه الفزع والتهرب من مواجهة الحياة فى واقعها ، ومن مواجهة الإحساس بالضعف . ذلك الذى أطمع الشراهةَ الغاصبة ، ومكّن لنفوذها وسيادتها ، وكان من هذا الانطواء على الذات ، ومن التهرب من مواجهة الحقيقة فى واقعها ، كان من هذا وذاك ، أن اختفت أصالة الشخصية القومية وراء المجال الحيوى ، هاربة مما يفرض عليها الغاصب الدخيل من لغة وفنّ ، مكتفية بما يفرز الألمُ الكامن فى مخابئ الاستهانة ، وبما تنزف السخرية المنزوية ، وما تمتصُّ من الأعماق الجماعية ، حين تصبُّ الفطرة المكبوتة فنا شعبيا بريرا ، لا يعبِّر ـ إن عبَّر ـ إلا عن طبيعة شخصيتها المستترة ، فى مسايرة الضرورة المحتومة ، ومجاملة السيطرة الغاصبة .

* * *

لقد كان لطبيعة الشخصية المصرية هذه منذ القدم نتاجها فى استقبال المجتمع للغة المفروضة ، وفيما يأخذ به نفسه من المداراة والمصانعة ، حين يتناول اللغة الوافدة على أنها ضرورة ، ويظلُّ يلتوى بها وينحرف ، حتى ينتزع من كيانها لباب دلالتها ، واضعا مكان هذا اللباب ما يلتئم مع الفطرة المصرية ، ويلتقى

بملابساتها الإقليمية ، مفهوما وإحساسا ، ومن أعراض هذه الحكمة المصرية ما حدث للعربية الفصيحة ، حين جاءت المصريين محفوفة بسلطان الدين ، وسيف السياسة ، فتناولتها الروحُ المصرية المستترة بالملاطفة والمسايرة ، حتى أفقدتها خصائصها الجزرية ، وأفعمتها من ذات شخصيتها وأجوائها ، ما أدّى إلى انشعاب العربية إلى لغتين : عامية وفصيحة ، وانزواء الفصيحة ، مكتفية بظاهر من الحياة فى أجواء البيئة التعليمية، وفى الرسميات المفروضة على الملكات والألسنة ، تاركة للعامية خصائصها المرهفة ، فى رصد الأعماق الشعبية ، وفى تسجيل النزعات المتراجعة إلى هذه الأعماق ، بما تحمل من آلام وآمال ، وجعلت أمواج العامية والفصيحة تلتقى وتتنافر، وتتقارب وتتدافع ، حتى أصبح الكيان المصرى فى هذه المرحلة الأخيرة ، على وضع فنى ممسوخ ، لا يتميز بلون ، ولا طعم ، ولا رائحة ؛ وأصبح الفنُّ القومى على وضعه ذلك يستقبل الحياة من نوافذ العقل ، بلغة تغاير كل المغايرة ، وتختلف كل الاختلاف ، مع هذه اللغة التى يضطر إليها حين يعبر عما استقبل من نوافذ الحياة ، وتلك هى المحنة القومية البالغة ، التى أمسكت بالفن المصرى ، وأصابته بالتيبّس والجمود ، وحالت بينه وبين أسباب النشاط ، التى كان من شأنها أن تعمل على خلق الإحساس بالكرامة القومية ، وتنمية العقيدة ، التى تحمى هذه الكرامة ، وتتكفل بتنظيم وسائلها ، وتشخيص مقوِّماتها ، وتكون مسئولة أمام الوعى الجماعى عن استرخاء الملكات الفنِّية ، وميوعة الضمير .

تلك هى محنة الفن المصرى، التى ينبغى ألّا ننتظر لمصر شعورا متفائلا سليما ، ولا نهضة متماسكة ، قبل أن تبرأ من هذه المحنة ، التى كان من أعراضها هذا التهجُّم

المضطرب على حضارة النفس ، قبل أن ترتفع الروح المصرية بحقيقتها إلى مستواها، مما قعد بها منتكسة إلى حضارة المادة ، متساقطة بفاعلية الغرائز على المظاهر والأشكال ، حتى استدار بها اختلال التوازن ، وقصّر مداركها عن التطلّع إلى القيم الإنسانية ، من حق وخير وجمال ، وسلبها - على نحو لايُشرِّف - سكينةَ الدين ، قبل أن يمنحها مايشغل مكانها ، وقبل أن يتسامى بها إلى غذاء الضمير في فنِّه وفلسفته، وأحدثت هذه العلل ومضاعفاتها هذا النشاز الاجتماعي، بما يتضمن من مفارقات تجتمع وتفترق ، وتلتقي وتتغاير ، على آفاق المجتمع المصري ، ذلك النشاز الذي يحمل البصيرة المرهفة على السخرية والازدراء ، وربما اضطرها إلى التراجع والانزواء ، تهرُّبا مما يخمد في الضمير مشاعره ، وفي الملكات تناسقها .

وليس لهذه الأدواء القومية التي تمتصُّ من « مصر » حيويتها ، ليس لهذه الأدواء من علة واضحة في تقديرنا ، إلا هذه اللغة المتآكلة ، التي لاتساير مطالبَ الجماعة الناهضة . ومتى أدركنا محنة اللغة وهي وسيلة التفكير والتصور ظاهرا وباطنا ، أدركنا قيمة ضعفها في تخلف الفن المصري الأصيل ، الذي هو طاقة النشاط القومي ، والمقوِّم الأول لحيوية المجتمع الناهض ، كما أنه القوة الرافعة التي ترفع الروح القومي عن مطالب الحسّ ، وتتسامى بها عن نوافذ الغرائز . صاعدة بها إلى مدارج الروح ، وآفاق الضمير ، حيث تتوازن الرغبات وتتّسق إرادة الفرد مع مطالب المجموع ، وتنتزع الأنانية منها ، متسامية بها إلى أهداف البذل والتضحية والإيثار . ولن تستقيم للقومية المصرية وسائلُ هذا العلاج ، قبل أن تظهر تلك العقول التي تتقدم زمانها ، فتعمل على تكييف

الإحساس بالكرامة الإقليمية ، وتعمل عملها فى حشد الجهود ، وتطهير الحوافز من أغراضها ، وتمزيق الأثرة المعارضة ، وتجمع أمرها للمسارعة فى حزم وتصميم ، إلى التوفيق بين مقوّمات الشخصية المصرية الأصيلة ، وبين اللغة التى تلتقى بطبيعة هذه الشخصية ، وتتكفل بالتجاوب مع حقيقتها المستترة وراء اللاّشعور الجماعى .

تلك هى القاعدة الأولى التى ينبغى أن تعتمد عليها المواهب المصرية ، حتى تتمكن من موافاة الشخصية المصرية ، باللغة المصرية .. واللغة المصرية التى هى قاعدة الفن المصرى ، والفن المصرى الذى هو قاعدة النهضة المصرية ، والنهضة المصرية التى هى مطمح المصرية الشاعرة بكرامتها ، وغاية الغايات فى ضمائرها وأمانيها .

على هذا النحو من التفكير والتقدير ، وعلى هذا النحو من التعمق والاستقصاء ، علّمنا أستاذى « **أمين الخولى** » أن نتناول المشكلات الفنية والقومية .

وأستاذنا « **أمين الخولى** » أستاذٌ للقومية المصرية ، وأستاذ لأمّهات مشكلاتها ، قبل أن يكون أستاذا للبلاغة والأدب المصرى فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . كما أنه من هذه المحرّكات العنيفة القليلة ، التى تعمل عملها فى تسيير الأداة الناهضة ، وتقريب أهدافها من وراء حجاب ، ولا يعنيها من الأمر ظاهر ، ولا عمّا تتفضّل به جزاء ، وتلك هى حقيقة من يرتفع بذاته عن المنفعة العاجلة ، وعن أنانية الهوى ؛ وتلك هى حقيقة من وجد نفسه ، وارتقى بها إلى مستوى التوجيه والإشراف ، وألهمته أمانته ، ثم ألهم «أمناءه» : أن من طلب الفروع فقد الإحساس بالأصول ، وأن من فقد الأصول لايستطيع أن

يفكر إلا فى نفسه ، ولا تستطيع مثل هذه النفس أن تتسع لأكثر من مطالب الحسّ ، ومآرب الأَثَرة ، وأن الأمانة إذا ما انسابتْ فى الضمائر والأفئدة ، أخذت أصحابها بغير قليل من تكاليف النبوة ، حتى تنتزع منهم زائدة الشهرة ، وتخمد فيهم جمرتها الخبيثة ، وأفعمتهم إيمانا بأن الأمانة لا تمسُّ أنانية إلا جعلتْ منها ملكة واهبة ، والملكة الواهبة لا تستكمل وجودها قبل أن تكون حقيقتها أكبر من ظاهرها .

تلك هى المقوِّمات الأولى ، التى اكتشفتها بعد مشقة أوشكتْ أن تحملنى على اليأس . وتلك هى المقوِّمات الأولى التى عرفتها ، والتقيتُ بها فى سريرة « أمين الخولى » ، ذلك الإنسان الذى اختلفت إلى محاضراته فى « كلية الآداب » تلميذا ، وصحبته فى مدرسة «الأمناء» مريدا ، وتحدثت معه خارج الجامعة والمدرسة صديقا ، وكاتبته مستفسرا ومستلهما ، وبادلته الرأى متفائلا ومتشائما ، ولم يكن فى هذا جميعا إلا أستاذا تشتبه صداقته بأستاذيته ، ويشتبه حنانه بقسوته ، وكثيرا ما أخذتنى ملابسات الشخصية بالإنكار عليه ، فيتمشّى مع الإنكار ، حتى يتبيّن لى ـ على غير وعى ظاهر ـ أن إنكارى عليه لم يكن إلا ضربا من تساقط الرأى ، وضغط الاعتبارات ، حين تسلب من الحياة حكمتها ، وتأخذ العقل بالتهجم على الحصافة المستنيرة ، واتهامها والإنكار عليها .

هذا قليل من « أمين الخولى » الذى عرفته فى « كلية الآداب » أستاذا ، وفى « الأمناء » شيخا ، وفى المحنة صديقا ووالدا ؛ هذا هو الرجل الذى طالما وقفتُ على صفاته وكأنها مشكلات ، وطالما فكَّرت فى أن استخراج قبس من حقيقته ، هو أجدى على حقيقتى ، وأجدى على قوميتى ، وأجدى على أهدافى مما يَطِنُّ فى الجامعة من صيحات ، ومما يُتحذلق به من لغو ممسوخ ، وأحكام

مهلهلة ، ومما يُتظاهر به من موجات عكسية للإحساس بالضعف ، ومما يطفو على أفواه وملامح ، من وقار يحمل على التندّر ، ونشاط تافه إلى غير غاية ، وجهود دبّرها للجامعة سوء الحظ ، وعثرةُ النصيب ، مما كابدناه وذكرنا به الحديث عن المحنة المصرية ، وعن أمراض النهضة الفنية ، وعن مقدمات هذه الأمراض ونتائجها .

وكان طبيعيا أن نتذكر هذا وذاك ، وأن نتذكر « كلية الآداب » ، وهى المشرق الذى ينبغى ألا يبزغ نور من سواه ، وألا ننتظر طلائع النهضة الفنية والقومية من غيره .

كان طبيعيا أن نتذكر هذا وذاك ، وأن نتذكر « كلية الآداب » ، الوطن الروحى الذى استيقظت فى ربوعه قوميتنا وآمالنا ، واستيقظت على كلمات « الخولى » فى أمنائه ومحاضراته ، استيقظت مكامنُ الحكمة ، وفضائل الإيثار واستيقظت الملكات المجاهدة ، والتى لاتعرف لها شعارا إلا ما علّمها « أمين الخولى » ، حين وهبها لأبناء الغد ، وحين أوصاها بأنه : **ولا ضمير ولا أمانة إلا إذا كانت حقيقة الرجل أكبر من ظاهره .**

هذا هو « **أمين الخولى** » الذى ذكّرنا بالنهضة القومية ، وبالحياة الفنية ، وبكلية الآداب ، والذى كان طبيعيا أن أتذكّر به هذا جميعا ، وأنا أتصدّى لتقديم كتابه « **فن القول** » ، هذا الكتاب الذى سيتوهم كثيرٌ من الناس ، بل أكثرهم ، أنه كتاب فى البلاغة ، كتبه صاحبُه وفاء بالواجب نحو « الجامعة » ، وأظهره تسهيلا للدارسين فى « معهد الدراسات » . هذا ماسوف يبدو للأكثرين من الكتاب ، لأن الأكثرين لا يزالون فى مرحلة المظاهر والأشكال ، ولأن

الكتاب كصاحبه يحمل حقيقة أكبر من ظاهرها ، ولأن الكتاب قد عرض للقضية القومية ، وتناول أخطر مشكلاتها : فنا وسياسة واجتماعا ، وشخّص العميق الفادح من أمراضها ، خلقا وتفلسفا ، ومع هذا وذاك ، فلم يزعم لنفسه أكثر من أنه محاولة فى تصحيح دراسة البلاغة ، وفى توجيه مباحثها ، ولم يزعم لنفسه أنه أكثر من كتاب لأستاذ فى « الجامعة » تعنيه مشكلات هذه النهضة، ويعنيه ماوراءها من أسباب التخلف ، وما أمامها من أهداف الطموح المستنير.

والحق أننى فى حيرة بين القارئ وبين المؤلف ، فكلما تناولت الكتاب وحده أوتناولته فى شخص كاتبه بالوصف والتقرير، تخوّفت أن يشتبه الوصف والتقرير ، بما يدفع إليه الحبُّ والإعجاب ، من ثناء وإطراء ، وتخوّفت « أمين الخولى » وما يستقبل به الثناء والإطراء من سخرية واتهام .

ومع هذا ، فأنا أحرص على القارئ فى هذا المقام ، أكثر من حرصى على « أمين الخولى » ، وأنا حريصٌ على أن تظهر فى كلماتى ملامح الكتاب ، أكثر من حرصى على شعور « الخولى » وعلى اهتمام « الأمناء » بأن تكون حقيقتنا أكبر من ظاهرنا :

ليس « فن القول » دراسة مفصلة ، وليس بحثا بلاغيا ، يتناول مشكلات البلاغة ، ويتناول مسائلها بالتشقيق والتخريج ، كما تتوهم الكثرة حين تنظره أو تسمع به . ليس «فن القول» شيئا من هذا ، وإنما هو توجيه منهجى شامل، يستطيع أن يخلق فى البيئة الأدبية ، لو أن فيها خصوبة ، يستطيع أن يخلق مدرسة قومية بلاغية ، ويستطيع أن يمنحها المعرفة ، بعد أن يمنحها عافية الفكر والضمير ، ويجعلها قادرة على فهم الدور الخطير الذى تلعبه اللغة ، ويلعبه الفن على

مسرح الحركات التقدمية ، والنهضات الجماعية . فالكتاب تقريرات منهجية ، يدور على أمهات المشكلات القومية ، محاولا أن يصف المسئولية ، التي ينبغي أن تحتملها دائرة الفن واللغة ، والتي ينبغي أن تستيقظ لها العقول والأفئدة ، حين تفكر في القومية المصرية ، وفي قيم الحياة : سياسية، ودينية، وخلقية .

وعلى ذلك ومن ذلك ، لم يتخذ الكتاب سبيل الاستقراء والاستقصاء ، ولا سبيل التفصيل والاستدلال ، وإنما اتخذ هذه السبيل التي يتخذها أصحاب الدعوات الإنسانية الخطيرة ، حين تحملهم طبيعة الإشراف والتوجيه ، على مجاوزة الجزئيات ، إلى آفاق التوجيه ، مكتفية بالإثارة والتذكير ، وبالتحريض والاستنهاض ، اعتمادا على وضوح المقصد ، وجلاء التجربة ، وارتفاعا بمستوى المخاطَبين ، واطمئنانا إلى أنه حديث لا يصل الأنفس المجردة ، إلا عن طريق الوسائل الموصِّلة . هذه الوسائل التي قصر عليها الأستاذ « الخولى » أمانته وجهوده ، والتي طالما سمعت منه ، ونقلت عنه أن : *رسالته ليست كتبا ولا محاضرات ، بل تهيئة الوسائل الموصلة ، وصناعة العقول الفعالة ، وأنه لا يطمع من حياته العريضة في أكثر من أن يتقدم إلى النهضة القومية بعقلين أو ثلاثة تستطيع أن تفهم «أمانته»* ، وأن تفهم واجبها الخطير في توجيه البيئة الاجتماعية وفي خلق الكرامة القومية ، مستعينة بما يدعوه الناس بلاغة وأدبا مصريا .

نعم ... بلاغة وأدبا مصريا، هاتين المادتين اللتين اختارهما قدَر الحياة المصرية لأستاذنا « الخولى » ، فقدر في اختيارهما له ولأمنائه ، طبيعة « الخولى » ، كما قدر أن تكون الحقيقة أكبر من المظهر ، وهكذا كان كل من البلاغة ومن الأدب المصري مادة ، فيها غير قليل من خصائص « الخولى » ، وكان أوضح

هذه الخصائص المشتركة بين الرجل والمادة ، هى خطورة القيمة والأثر ، مع تواضع المظهر إلى درجة الخفاء . ويتضح هذا الملحظ بصفة بالغة ، فى موقف البيئة التعليمية من البلاغة والأدب المصرى ، وفى موقف الدائرة المسئولة مما يعرض عليها « أمين الخولى » ، من توجيه وتصحيح ، ومما يُشير إليه من أسباب وأهداف... موقفها مما لايستطيع أن يصطنع له ـ مهمايعظم ـ وسائل التهريج ، ولاأن يدق له تلك الطبول، التى لاينتبه الوعى المتخلف إلا على أصداء ضجيجها.

هذا ... وأرانى أنا الآخر قد ذهبت فى تقديم الكتاب مذهب الأستاذ فى تأليفه ، فلم أتناوله بالتفصيل والتشريح ، بل اكتفيتُ كما اكتفى المؤلف ، بمسّ الأصول ، والتحويم على الأمهات . وربما كان هذا النوع من البيان سجية مما أورثنا « أمين الخولى » من سجايا ، فهو رجلٌ جامعىٌّ بالفطرة ، والجامعية من صفاته الأصيلة ، وتوشك أن تكون منه كالناطقية فى غيره ، ومن هذا كانت مهمته ـ تفهُّما وتفهيما ـ هى وضع المشكلة ، وتخطيط آفاقها ، ولم يكن كما كان المتفيهقون بالجامعة ، قذّافا بالأحكام ، مأخوذا باللون والرائحة .

وعلى هذا الأسلوب الجامعى الأصيل كما يفهمه أربابه . وعلى هذا الأسلوب كتب « أمين الخولى » كتابه « فن القول » ، خلاصة منهج توجيهىّ كوّن مادته من واقع الحياة ، ورسم صورته على النسق الجامعى ، فى ملامحه المثالية ، وقصد به إلى لفت القائمين بتربية الشخصية المصرية ، وتذكيرهم بأن البلاغة ليست كما قال القدماء ، وليست احترازا عن الخطأ ، ولا تجنبا للتعقيد المعنوى ، ولا إدراكا لوجوه التحسين ، وإنما هى : «مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر الأمة ، وترضى كرامتها الشخصية ، وتساير حاجتها

الفنية المتجددة ، فتكون اللغة فى مصر مثلا، لغة الحياة فى ألوانها المختلفة . . فلا يعيش الناس بلغة ، ويتعلمون لغة اخرى ، ولا تكون اللغة سببا فى فرض نظام من الطبقات على الأمة ، يتسع به البعد بين خاصة الأمة وعامتهم، فى اللغة المتفاهم بها[1] » .

هذه هى النظرة التوجيهية ، التى يسير على ضوئها تيار الحديث فى « فن القول » ، داعيا ومبشّرا بنوع من الدراسة الأدبية ، التى لا يستطيع أن يرفع قواعدها إلا من استطاع أن يتفهم الحركة التقدُّمية ، ويتفهم الوشائج الحضاريّة ، ومدى ما بينهما من تواصل واختلاط ، واستطاع ألاَّ يتعجب حين يسمع من « أمين الخولى » أن البلاغة أداة فعَّالة فى نهضة الخُلُق والسياسة ، وفى خلق الإحساس بالكرامة القومية ، وفى رفع المدارك إلى مستويات الحق والخير والجمال ، وحين يسمع من « أمين الخولى » عن ضرورة الاتصال والتعاون ، بين وسائل الإصلاح الاجتماعى ، وبين الملكات الأدبية ، وعن ضرورة الارتباط والتلازم ، بين علوم النفس وعلوم البلاغة ، حتى يتمكَّن القائمون بالتوجيه ، من تعمق النفسية المصرية ، ومن استشفاف الملابسات الإقليمية ، ومن السير على معالم هذه الملابسات . ولن يتفق لهم ذلك إلا حين يسترشدون بحقائق النفس والاجتماع ، تلك الحقائق التى تكشف عما وراء هذه القشرة الحضارية المجتلبة ، وتقرب السائرين بالقافلة من مواطن التأثر والانفعال ، ومكامن الحوافز التى تجتمع فيها طاقة النشاط القومى.. تلك التى غشى عليها رُكام النوائب، وطمستها رواسب الأهواء.

(1) ص ١٩ من فن القول .

وأظن بعد ذلك أننا أوشكنا أن نتفق عَلَى أن البلاغة كما يرسمها « **فن القول** » ، فى آفاقها النفسية والإقليمية ، هى : **الأداة الفعالة فى تربية الذوق المصرى** ، واتفقنا على أن الفن المصرى كما يرسمه « **فن القول** » هو: **الأداة الفعالة فى تربية الشخصية المصرية** ، تربية تتمكن بها من مواجهة الأمواج الحضارية ومن الاستعانة بالروح الأدبية على تسخير الطاقة المادية ، فيما يرتفع بالضمير الإنسانى إلى تمجيد الحق والخير والجمال ؛ **وتلك هى الأهداف المضمرة فى « فن القول »** ؛ ولا نرجو له، ولا لمصر، ولا لنا، ولا « **لأمين الخولى** » ، إلا أن تذكرنا الأجيال القادمة ، **بأن حقيقتنا كانت أكبر من ظاهرنا** ؟

٣ مارس سنة ١٩٤٧ م　　　　　　الأمناء

محمد الهلالى

فهرست

تفاهم

التفسير الحيوي والاجتماعي لفكرة المعهد والعمل فيه

١

أحسب أن الذين فكروا فى إنشاء هذا المعهد ، إنما يريدون ليقولوا إن الحياة ليست إلا نماء مطردا ، يزداد به الحى مادة وقوة ، أو تمثلا يعوض به ما يفقده ويحفظ به اتزانه ؛ ونقص هذا واضطرابه هو المرض ؛ أما يوم يفقد الحى النماء ، ولا يستطيع التمثل والاغتذاء ، فيكون قد خط قبره ، وأخلى فى الحياة مكانه ، سواء فى ذلك الكائنات المادية والمعنوية .

والمعلم فى الدولة كائن معنوى ، ليست حياته إلا نماء به يزداد ، أو تمثلا به يعوض ما فقد ، وإلا فقد أخلى مكانه فى الحياة المعنوية للأمة ؛ وإن شغل حيزا ما مع ذلك ، فما هو بباق فيه إلا بقاء الجثة حتى توارى ، يَبرَم بها أحب الناس لصاحبها ، وأعزهم عليه .

والحياة المصرية التى يقوم فيها المعلم اليوم هذا المقام ، تعانى ضروبا من التجدّد والتغير : سبقتها إليها أمم أخرى ، جدت فى هذه السبيل ومضت ، حتى أتعبت مجدها ومضائها من وراءها ، وخلفت فى الغبار أمم الشرق وجماعاته ؛ فالحياة الشرقية والمصرية فى هذا الدور تحتاج إلى نماء مسرف عنيف ، وتمثُّل شَرِه مزدرد ؛ وإلا فإن الكائنات الحية فى هذا الشرق لا تموت موتا ذريعا فحسب ، بل تنسَف نسفا مُبيرا ، بقوى المنافسة الجارفة التى تطبق عليها من أنحاء الدنيا ، سواء فى ذلك الغربى الأوربى منها ، والشرق الأسيوى، الذى أخذ بأسباب العنف ، واعتنق عقائد الغرب النَّهِم المجتاح .

وقد جاوز هذا الشرق ذلك العهد الذى كان يسير فيه ناظرا إلى الوراء ، ظانا أن عصور الحياة الذهبية قد مضت ، وأنه لم يبق من الدنيا إلا الردىء والحَشَف ، وأنه قد أتى الزمانَ

بنوه فى شبيبته وأتيناه على الهرم . وقد أدرك هذا الشرق ، أو المستحقون للحياة فيه ، على الأقل ، أن فى الدنيا أشياء كثيرة لم تعرف بعد ، وأيقنوا أن الكلمة الأخيرة لم تقل فى شيء ما بعد ، لأن مطامح الناس من حولهم ، ومطامع المحاولين حواليهم ، امتدت إلى كل شيء ، ورجّت كل شيء . وجعلت تتعرف فى جرأة واطمئنان كل شيء . حتى ليحسّون أن الإشارة إلى مثل هـذه المعانى ، فضلا عن الوقوف عندها ، أو الإفاضة فيها ، باتت لغوا لا يساوى الوقت الذى يلفظ فيه .

و إذا تمثلنا المعلمين ، الذين هم صُناع الخلف ، و بُناة المستقبل ، وخالقو الغد ، إذا تمثلناهم جيشا ، تقوم كتائبه المختلفة بأعمال موزعة بينها ، كما تقوم طوائف العمال وفرق المهندسين والأطباء والمقاتلة من الرجالة والركبان فى الجيش المحارب ... بأعمال موزعة بينهم ، مقسمة عليهم ، وكانت كتيبة معلمى لغة الأمة من هذه الـكتائب العاملة فى جيش الحياة ، الذى يقاتل ليكسب للمستقبل قوة ومجالا حيويا ، ثم قدرنا صلة هذه الـكتائب بمصادر التأثير والتوجيه ، بل مصادر الدفع العنيف للحياة الشرقية بعامة ، والمصرية بخاصة ، وجدنا أن من هذه الـكتائب مايقوم بأعمال، قوامها ومادتها ، وطرقها ووسائلها ، مجتابة كلها من البيئات التى ينبعث منها هذا الدفع والتأثير ، كمعلمى العلوم والرياضيات وما إليها ، ومعلمى لغة الغرب بأساليبه فى تعليمها ، ومعلمى آدابه وفنونه بطرائقه فى تلقينها ؛ على حين أن كتيبتنا قليلة التعرض ، إلى حد ما ، للاتصال بهذه المصادر المؤثرة المتحكمة ، ولو أن هذه الـكتيبة منذ أخرجت من الأزهر ، وحيل بينها و بين الطرائق الموروثة فى التثقيف والتعليم ، قد ألزمت بأن تثق أن لها صلة قوية بالدوافع العصرية الجديدة التى تسيطر على حياتنا فى مصر.

فأصحاب الفـكرة فى هـذا المعهد ، على ما أرجح ، يشعرون أيضا أن هذه الـكتيبة أحوج إلى توثيق صلتها بما أشرت إليه ، من منابع الإيحاء والتأثير فى الحياة المصرية اليوم ، سواء أجعلتها منابع ومصادر غربية جديدة جدة تامة ، أم شرقية قديمة قد دُرست وفهمت ، وعُرضت عرضا غربيا ، جديد الطريقة والتوجيه .

وفكرة المعهد ، فيما يغلب على ظنى ، هى محاولة استمرار الحيوية النامية المغتذية للعلم ، وسط كتائب جيش الثقافة على اختلافها .

وكل حى منا يرقب سير هذه الحياة فيه ، ليطمئن عليها بين الحين والحين ، وإن وجد فى شىء من شئونها فتورا أو ركودا ، بادر فالتمس العلاج لذلك وابتغاه .

وقد اتخذت الأمم الحديثة وسائل للاطمئنان على حيوية المعلمين فيها ؛ وليس غريبا أن نأخذ نحن المصريين ببعض هذه الوسائل . أما أن تكون الوسيلة هى إنشاء مثل هذا المعهد أو غيره ، فذلك ما أترك لكم الرأى فيه ، ولا أوثر أن أعلن رأيا بعينه فى اختيار طريقة لاختبار هذه الحيوية دون طريقة ، وإن لم أر بأسا بأن أقول : إن إنشاء مثل هذا المعهد يكفل للمعلمين شيئاً أكثر من اطمئنان الدولة على حيويتهم ؛ لأنه يعطيهم سبيلا إلى تقوية هذه الحيوية ، ويمدها من الدولة بأسباب ذلك ، حين يعد الدرس ، ويبعث بالدارسين ، ويكفل ما يتصل بأولئك جميعا .

وفى فكرة المفكرين ، عن اختبار الحيوية المعنوية للمعلمين ، شىء خاص بمعلمى لغة الأمة ، هو ما أشرت إليه ، من الحاجة فيهم إلى توثيق الصلة بالقوى والمنابع الخارجية ، التى تتحكم فى تنسيق نشاطنا ، وتحديد أهدافنا ، ورسم طرقنا ، لأنهم أبعد من سائر المعلمين عن الاتصال القوىّ والمباشر بها .

٢

ونحن إذ ننظر فى هذه الفكرة ، التى حسبنا أنها فكرة منشئ هذا المعهد لنقدرها ، سنجد أن القسم الأول منها ، عن حقيقة الحياة ، ليس مما تجرى فيه مشاحّة ولا مماراة ، لأنه الحقيقة التجريبية المطردة ، وكل حىّ ظافر ، لاشك بأكبر ما يستطيع منه ، والمعلم فى الدولة بلا مراء ، حى معنوى ، تجرى حياته على هذا السنَن ، ولن تحيد عنه أبدا ، ومكانه فى الحياة المعنوية لن يُشغل إلا إذا توافرت له هذه الحياة بنمائها أو تمثلها ، ما فى ذلك ريب .

وأما القول بأن حياتنا تعانى ضروبا من التجدد والتغير ، سبقتها إليها أمم أخرى ،

واستننت فى ذلك ما أتعبت به من بعدها ، وأن حيويتنا من أجل ذلك تحتاج إلى نماء مسرف وتمثل شره ، فذلك أيضا مما لا يكثر اللَّجاج فيه ؛ وبحسبي أن أقول لكم عن نفسي: إنى أحس إحساسا قويا عنيفا ، بحاجة حياتنا الأدبية واللغوية إلى دراسات كثيرة واسعة ، لم نقم بها ، ولا هيأنا السبيل لإتمامها ؛ ولو استطعنا أن نعرّف بها ، ونقنع بضرورتها ، وندفع إليها، ونقوم بمحاولات أولية فيها، لنخلق الجيل الذى يقوم بها ويتمها ، لكان ذلك خير ما نسدى لعصرنا ، وجل ما نؤدى به واجبنا . . ولا أظن لحظة أننا قد أوفينا من ذلك على الأمل المرجو ، والمثل المنشود ؛ لأن الميدان خال ، بل مقفر ، وسنرى فى الحديث عن البلاغة التى نزاول درسها هنا ، مثلا لذلك بينا .

وهذا الإقرار الجهير ، ينبئكم عن درجة الرأى ، فى الشطر الثانى للفكرة ، وهو أن دراستنا اللغوية والأدبية ، والعمل الذى نقوم به ، من تعليم لغة الأمة تعليما يفى بحاجتها العملية والفنية فى ذلك ، من حيث هى جماعة ناهضة لها مآرب مادية وحاجات نفسية ، هذه الدراسة الأدبية واللغوية المحققة لهذا كله ، تحتاج إلى الصلة القوية بمنابع التأثير فى حياتنا اليوم ، ومصادر التوجيه المسلطة علينا ، من حيوية الأمم التى رادت الطريق قبلنا ، وعبَّدته أمامنا ؛ ثم هذا الإقرار الجهير بما ينقصنا ، صريح فى أننا محتاجون إلى هذا الاتصال.

وذلك جانب من الفكرة ، قد تتوقفون فى الاطمئنان إليه ، وقد يؤيد هذا التوقف منكم ، ما نقرره بين حين وحين ، من أن هذه الدراسة اللغوية الشرقية الخاصة بنا ، لا تؤخذ عن غير مصادرها الأصلية ، ومواطنها الحقيقية ؛ وأن ما يقوم به الغربيون ، المستعربون أو المستشرقون من ذلك ، لأسباب علمية أو عملية ، بريئة أو مُريبة ، ينقصه كل النقص ذوق العربية ومزاجها ، الذى لا يكسبه أجنبى عنها فى سهولة وقرب ، وبمعاناة تعليمية مهما تطل . نعم ، هذا ومثله قد يدفع فى قوة الفكرة التى ترى الاتصال بهذه المصادر الأجنبية أمرا لابد منه الآن فى حياتنا .

ولكن شيئا أدق من ذلك وأبعد ، تصحح ملاحظته الرأى فى هذا الموضوع ؛ وذلك أن النهضة الإنسانية وحدة متسقة ، يعود بعضها بالخير على بعض ، ويفيد بعضها بعضا ؛

فالرقى العلمى المادى ، يفيد الجانب الفنى كذلك ، والتقدم العملى يؤثر فى الجانب النظرى ؛ لأن دائرة المعرفة البشرية لا ينفصل فيها جزء عن جزء ، ولا يستعصى جانب منها على التأثر بالآخر ، والقوم فى الغرب قد ذهبوا بالتقدم فى أنحاء كثيرة وافرة ، تقدما بينا ملموسا ، فعاد ذلك بالجدوى على ما سواه ، إن لم يكن لهم فى هذا الآخر جهاد فى قوة الجهاد الأول ونشاطه ؛ على أنهم فى الحق قد تولوا جوانب الحياة على اختلافها بالعناية السابغة ، وأصابوا فى مختلف النواحى تجددا وحيوية ، وصار لهم من الدراسات اللغوية ، للغاتهم وأصولها وقراباتها ونواميس حياتها ، ما لابد لنا من مثله فيما نعانيه من ذلك .

ونبغت فيهم نابغة فنية ، قدمت حياة الفنون المختلفة وأصولها ودراستها ، وأعانتهم على ذلك ثروة من المعرفة بالنفس الإنسانية وقواها وخفاياها ، فصار لهم من ذلك ما لابد لنا من مثله فيما نعانيه من ذلك .

ومضت لهم تجارب فى دراسة الفنون، والآداب ، واللغات، وتصنيفها وتقريبها ، أعانها التقدم العام فى سائر فروع المعرفة إعانة بعيدة الأثر ، فصار لهم فيه الآن ما ليس لنا مثله فيما نعانيه من ذلك .

فليست الصلة الواجبة لمعلمى لغة الأمة بمصادر التأثير العصرى فى حياتنا ، واقفة عند دراسة بعض المعارف الضرورية ، من مسائل العلوم أو فروع الرياضة ، ليصيب المعلم ثقافة حديثة تصله بمن حوله ؛ وليست الصلة بمصادر هذا التأثير العصرى فى حياتنا منتهية عند معرفة لغة من اللغات الحديثة ، والاتصال الوثيق أو اليسير بشىء من أدبها ؛ وليست الصلة المرجوة فى معرفة دراسات المستشرقين للغتنا وآدابنا ، واعتناق آرائهم فى ذلك ، والترويج لها فى اندفاع بغير تمحيص ؛ ليس بشىء من ذلك تكون هذه الصلة ؛ وإنما الصلة المرجوة بهذه المصادر تكون بتمثل النواحى المحدثة ، التى اتجهت إليها الدراسات اللغوية والأدبية والفنية عامة فى لغاتهم وآدابهم وفنونها . والشعور بأن أنماط الحياة الإنسانية ، وأساليبها المتشابهة المشتركة ، تحوجنا إلى مثل ذلك فى حياة لغتنا وآدابنا وفنوننا ، وفى مناهج فهم ذلك كله ، وفى أساليب تناوله بالتأليف أو الجمع أو الشرح أو العرض التعليمى ، على أن يكون

لنا مع ذلك كله الاتصال الشديد الوثاقة بقديم لغتنا وآدابنا وفنوننا ، اتصالا ينال كل مستتر خفى ، ويجمع كل ما تفرق ، ويستخرج منه خير ما فيه ، ويعرف طابعه الخاص ، ومزاياه المفرقة بينه وبين غيره ، بعد معرفة مثل هذه الفوارق والخصائص لما عند الآخرين ، حتى يكون الأخذ على هدى وبصيرة .

وإذن ، فالحاجة إلى الاتصال بمصادر التأثير فى حياتنا الحاضرة ، ليست فى ظواهر سطحية ، ولا فى دراسات الغربيين لميراثنا ، بل فى معرفة نواميس حياة اللغات ، والآداب والفنون ، وصلتها بالحياة العامة ؛ وفى معرفة ما جد من مناهج بحث هذه اللغات والآداب والفنون ، وتناولها بالنقد والتمحيص ، المستهدى بالخبرة الكاملة فى شئون النفس الإنسانية وشجونها ، المستفيد من ظواهر التغير والتقدم ، التى شملت نواحى الحيـاة الأخرى من علمية وعملية .

٣

وهذا المَلْحَظ الذى رأيته مصححا للرأى عن هذه الصلة ، يشهد بصحة الجزء الباقى من فكرة المفكرين فى إنشاء مثل هذا المعهد ، وهو تصويب نظرة الشرق إلى ماضيه ، ورأيه فيه ، وتقديره ليومه وغده وما يرجو منهما .

فإن ما أشرنا إليه من النهضة وتماسك أجزائها ، وتأثر حياة اللغة والأدب والفن بها ، وانفعال مناهج درس هذه الأشياء وعرضها بذلك كله ، يدل على أن القضية إنما هى قضية التقدير الصحيح ، والثقة المطمئنة ، أو غير المطمئنة لهذه النهضة ؛ فمن آمن بأن أمس خير من اليوم ، وأن ليس تحت أديم السماء جديد ، وأن الكلمة الأخيرة قد قيلت فى الفنون والعلوم ، وأن ليس فى هذا التجدد إلا ضلال واضطراب ، وأن الماضين قد عرفوا من حقائق الكون العلمية واللغوية والأدبية ، ما لم يبق معه مجال لمستزيد ؛ وأن العربية وأدبها قد انقضى من حياتهما العصر الذهبى و و... إلى أمثال هذه الآراء الأمسية ، التى تقوم على اليأس من اليوم والغد ، والإجلال والإكبار للماضى والأمس ؛ من آمن بهذه العقائد وما إليها ، فنظرته

ـ بلاشك ـ إلى هذه المحاولات ، أو إلى أعظم منها وأجل ، لن تهيئه نفسيا للانتفاع بشىء منها ، لأنه لا يثق بشىء منها ، ولا يؤمن بشىء منها ، ولا يرجو شيئا منها .

ومن آمن بأن الزمان لم يعقم ، وأن الحياة لا تزال خصبة مثمرة ، وأن ما جهلنا قد يكون أكثر مما علمنا ، وأن القديم الجليل قد يكون أساسا ومقدمة وسابقة لحديث أجل ، ينفع ما تقدمه ، ويزيد الخير خيرا . . . من آمن بهذا فقد يُرجى ، ويرجو هو أن ينال من كل ما حوله من هذا النشاط والتوثب شيئا يتأثله ، ويتعرف به قديما قيِّما عنده ، أو يضم إلى قديمه جديدا يصلح غير الصالح منه ، أو يزيده صلاحا .

ولئن قال أصحاب فكرة المعهد — فيما أحسب — إن الشرق أو المفكرين فيه ، إنما ينظرون اليوم إلى الأمام وإلى الغد ، فى أمل ورجاء ، ولئن قلت معهم بذلك ، إنى لأرجو من لا يقول هذا القول بينكم ، ألاَّ يضن على نفسه وعلى الحياة بشىء من التسامح ، يصيخ فيه لهذه المحاولات ، مجربا إياها ، غير قاطع الطريق عليها ، ولا مستيئس من خيرها ، وله أن يتريث كل التريث فى القبول ، ويمعن أكبر الإمعان فى التحقق والاستجلاء ؛ فإن رأى بعد ذلك شيئا صائبا ، قال بأن الحياة لا يزال فيها مجال لجديد مرجو فى علوم العربية ، وفى مناهج دراسة أدبها وفنونها ، وإلا فقد أكسبته تلك التجربة أدلة عززت عقيدته النفسية فى إجداب هذا العصر ، وتجارب صيرت يقينه القلبى ، حقيقة مؤيدة ، تعينه على الكفران والنكران لما يزعمون .

وليس فيكم أيها الأخوان إن شاء الله ، من يضن بهذا التسامح والتريث ، ليرقب فى حذر ما يقال ويُدَّعى من التناول الجديد ، والعمل للتجديد الذى يمس أسسا فى حياة العربية وعلومها الأدبية .

هذا ما حسبناه فكرة المفكرين فى إنشاء هذا المعهد ، وهذا تقديرنا لها .

٤

وأما العمل فى هذا المعهد : إذا ما تناولناه بالتفسير الحيوى والاجتماعى كذلك ، فإن لنا كلمة للمشرفين على الدراسة فيه ، ثم كلمة لمتلقى الدراسة فيه .

ولعل الكلمة الأولى للمشرفين فردية شخصية ، أو هى كما يقال حجة قاصرة على صاحبها ؛ وقد يكون الرأى فيها عند غيرى غير ما أقوله . وهذا الاختلاف ، إن كان ، خير لكم ، وللحياة العلمية نفسها ؛ فليكن هذا الاختلاف ، ولتعدوا أنفسكم للانتفاع به ، والتمرس باتجاهات متعددة ، ونظرات متفاوتة من مختلف من تلقونهم .

وكما أن هذه الكلمة فردية ، فإنها كذلك خاصة بالمادة المدروسة ، وهى هنا البلاغة ، أو البيان ، أو النقد ، أو ما تؤثرون لها من اسم ؛ ولا نبغى تعميم هذا القول ، لأن لكل مادة منهجها وأسلوب درسها وخطة تناولها ؛ وفى ذلك تتفاوت المواد وإن التقت جميعها فى غايات بعيدة ، أو أهداف موحدة .

وكلمتى إلى نفسى أو عن نفسى ، من بين المشرفين على الدراسة فى هذا المعهد ، هى أنى أعتبر هذه الدراسة فرصة للون من النماء العقلى ، الذى يظفر به المدرس دائما فى عمله حيثما كان ، ولعلكم تذكرون وتقدرون أنكم حين بدأتم الدراسة ، جعلتم تنظرون إلى معلوماتكم الأولى ،نظرة غير التى نظرتم إليها بها يوم تلقيتموها واكتسبتموها أول مرة ؛ وكانت مهمة العرض التدريسى فرصة عقلية ، لتمحيص هذه المعلومات ، والجولان الفكرى الحر فيها ، على غير الأساس الأول لمعرفتكم بها ، وفى أفق أوسع وأضوأ من أفقكم الأول ، يوم لقيتموها أول مرة ؛ ثم كان لتلاميذكم ولاشك أثر واضح فى هذا ، سواء منهم الذكى الدقيق الملاحظة والغبىّ المعتم ؛ فإن دفعكم الأول إلى نواح من التفكير والتقدير بأسئلة له وملاحظات يوجهها ، فإن الثانى بإعتامه وجموده ، يدفعكم إلى التفنن فى العرض ، والتنويع فى الإخراج تفننا وتنويعا ، يقرب إليه ما غمض عليه ، واستعصى على ذهنه ، وفى كل أولئك تجدون الفرصة للون من المرانة العقلية ، والتأمل المتصرف فى معارفكم ، فتتمثلونها تمثلا جديدا ، إن لم تتغير ، أو يتغير الكثير منها فى نظركم لها ، وتناولكم إياها ، وانتفاعكم بها ، وإخراجكم لها ؛ وهذه التجربة التى باشرها كل منكم ، وخرج منها بقسط ما ، هى ما أشير إليه ، إذ أذكر أن التدريس فى هذا المعهد ضرب من النماء العقلى ، يسر صاحب الفكرة المتجددة والاتجاه الإصلاحى لعلوم العربية ، فيجد فيه عوامل ذات أثر بعيد فى تحرير فكرته وإنضاجها ، فوق الذى يمكن أن يكون قد وجد من هذا فى تمثله لغوامض هذه العلوم

ومعقداتها ؛ وفى ذلك من الخير على الحياة العلمية والعاملين فيها ، ما نحتاج إليه فى هذه الحقبة الناهضة ، ونرجو من ورائه خيرا .

* * *

كما أن التدريس فى هذا المعهد ذو أثر اجتماعى بعيد أيضا ، لمن كانت له محاولة إصلاحية فى هذا الميدان اللغوى الأدبى ، المحتاج إلى إصلاح بعيد الأساس ، واسع المدى . وهذا الأثر الاجتماعى هو أن هذه المحاولات الإصلاحية تحتاج إلى دعاة ورسل يحملونها للناس ، ويبشرون بها ، ويوم يكون هؤلاء الرسل الكرام من الذين يثقفون النشء ، ويكونون الجيل الخالف ، تكون هذه هى الفرصة العملية المثلى لجعل هذه المحاولة عملا واقعا ، وتغييرا فعالا ، تحكم الحياة له فتقره وتفرضه ، وتأخذ الناس به ؛ أو تحكم الحياة عليه ، فتكشف أمره وتريح منه ؛ وإذا كان القادة فى حقيقة أمرهم إنما هم معلمو جماعاتهم ومربوها ، وكان المعلم بذلك كاد أن يكون رسولا ، كما قيل ، فكيف بدعوة إصلاحية دعاتها المعلمون ، والمستجيبون لها معلمون ، وأنصارها معلمون !

ومن هنا أغتبط أشد الاغتباط بأن أضع بين أيديكم محاولاتى المتواضعة فى البلاغة العربية ، لتفحصوا عنها معى ذلك الفحص الذى يعود بالجدوى على المدرس ، حين يعرض معلومات قد كسبها من الكتب أو الأساتذة ؛ ولشد ما تكون هذه الجدوى عظيمة جليلة حينما يكون المعروض محاولات عقلية وفنية ، قد كسبها إخلاص دارس ، وتأمل مخلص ، ورغبة صادقة ، فى جعل العربية وفنونها الأدبية ، مادة حياة لأمة ناهضة ، وشعب متجدد ، يريد ليجد فيها مادة هذه النهضة فنيا ونفسيا وعمليا .

تلك هى جملة التفسير الحيوىّ والاجتماعى للعمل فى معهد الدراسات العليا ، من حيث ما يقوم به المشرفون على التدريس فيه معكم و بينكم .

أما التفسير الحيوى والاجتماعى لعمل المتلقين فى هذا المعهد فإنى لأذكر أيها الإخوان ، قبل الحديث عنه ، أنى إنما أتحدث إلى كتيبة معلمى لغة الأمة ، من كتائب جيش الثقافة ، فأذكر أن لهذه الفرقة تقاليدها الجهادية ، التى لن تفرط فيها ، ولا أذكرها

بها عن نسيان لها ، ولـكن إثارة لمشاعر الفخر والرضاء فى نفوسها ، فتجد وتقبل .

تلك التقاليد إنما تقوم على الصلة الوطيدة بين مادة عملكم و بين الثقافة الإسلامية الجليلة ، وهى صلة لن تخفى على متصل بعملكم ، ولن ينكرها عليكم منصف ؛ و إنكم بفضل هذه الصلة القوية ، قد قمتم بدور اجتماعى دقيق ، عظيم الأهمية ، فى نهضة الشرق ، حين تكالبت عليه أهواء الغرب المستعمر ، وعصفت باستقراره الهامد رياح التجدد الهوجاء ، وكان ذلك الشرق قليل الحول ، ضعيف الطول ، فاقد المناعة ، شديد الانفعال بهذه المؤثرات العاصفة بشخصيته وكيانه ، حتى كاد يفقد كل ثقة بنفسه ، بل كل شعور بشخصيته، وتنبه لذاته ، أمام هذا الجبروت الغربى ، والـكيد الاستعمارى ، و بعنف تلك الحملات الفاتنة ، من أبنائه الذين كانت ثقافتهم الغربية تقلبهم أعوانا مُخْطرين على أنفسهم لغيرهم ، وتجعلهم رسلا مخذلين لقومهم ، مؤيدين لعدوهم ؛ حتى إذا ما اهتز كيان الشرق تحت هذه الهجمات ، وترنح يكاد يسقط ذاهب الوعى ، ضائع الرشد ، كان المِساك الوحيد ، واللِّياذ الأكبر له إذ ذاك ، هو ما بقى من اعتداد بشخصية تلك الثقافة الإسلامية ، واستمساك بعراها ، واعتزاز بماضيها ، واستظهار بقوتها ، مما كنتم تعلنونه ، وتعاونون على تلقينه للنشء والشباب ، وتستحيبون فيه للدعاة والهداة الذين قيضتهم العناية لحماية هـذه الشخصية ، فكان لتلك الـكتيبة من معلمى لغة الأمة — مهما يُقل فيهم — فخر هذا الدفاع ، وفضل الاشتراك فى رد هذا الهجوم الجارف ؛ حتى أفاء الله على هذا الشرق وعيه ، وأعاد إليه رشده، فانتبه لنفسه ، واعتز بماضيه ، وقوى طموحه إلى مستقبل يتناسب مع هذا الماضى ، فكانت تلك النهضة التى وقفت تقهقره على الأقل ، وهى بعون الله دافعته قُدُما إلى الأمام ، وما تحته أسباب القوة العملية والفنية والعلمية إن شاء الله ، وسيكون لـكم فى هذا كله نصيبكم الذى لابد أنكم قائمون به .

أذكركم أيها الإخوان بتقاليد فرقتكم المجاهدة فى الحياة الاجتماعية ، تلك التقاليد الجليلة التى آمل حين ألفت نظركم إليها ، أن أدفعكم إلى تقدير ما تستطيعونه من خطير العمل الحيوى والاجتماعى ، لأمتكم الناهضة ، حين تنهضون فيها بحياة لغتها وأدبها ، نهضة

تغذى هذا الطموح ، وترضى هذا الأمل ، وتذكّر هذا القديم المجيد ، وتساير الحياة ، فتحقق حاجة الجماعة المتوثبة من لغتها ، ورغباتها فى فنها الأدبى ، كما تجد ذلك كل أمة من الأمم المكافحة حولكم عن منزلتها ومكانها بين أمم العالم ، الجاد فى عنف ، المناضل فى استماتة ، الموقن أن الحياة لا تكتب إلا للصابرين ، المرابطين المجاهدين .

***

وأخطر من هذا وأجل ، أنى حين أذكركم بهذه التقاليد القائمة على قوة ارتباط مادة درسكم بالثقافة الإسلامية ، أريد لأجعل التفسير الحيوى والاجتماعى لعملكم فى الدراسة بمعهد الدراسات العليا ، تفسيرا مستمدا من أصول ثقافية ، تعليمية إسلامية ، عرفت قديما لأسلافكم من أصحاب هذه الثقافة ، وعلى أساسها فهموا صلتهم بالجماعة التى يعيشون فيها ، وحق هذه الجماعة عندهم ، وواجبها عليهم ؛ فأنتم وقد كنتم أقرب وارثيهم ، تكونون — ولا مراء — أحق الآخذين بهذه التقاليد ، المحتفظين بها ، القوامين عليها ، الذين لايحيدون عنها ولا يخونونها .

أيها الإخوان : أحب إلى أن أحدثكم — ولو فى إيجاز خاطف — عن نظرة أسلافكم إلى التجدد والتجديد ، وشعورهم فى هذا بأن حياة الجماعة ليست إلا نماء دائما وتجددا مستمرا ، ألا ترون أنهم قبلوا التجديد والتجدد فى مقدسات موحاة راسخة ثابتة ، هى أول ما يستعصى على التغيير ، وآخر ما يهون القول فيه بالتغير ؛ فقد تداولوا فيما بينهم حديث : إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها ؛ وسواء أكان حديثا أم كان أثرا ، أم لم يكن شيئا من هذا كله — مع أن فيهم من قال بتواتره — فإنه فكرة عرفت فى البيئة الدينية ، وتبودلت بين أصحاب الفكرة الاعتقادية ، وراحوا يعدون مجددى الأمة على رأس كل مائة سنة ، من العلماء فى العلوم الدينية حينا ، ومن الولاة والأمراء حينا ؛ وما بنا أن نتحدث هنا عن فكرة التجديد فى الدين ، وما للقوم من قول فيها ، فقد تحدثت عن ذلك فى غير هذا الموضع ، وبحسبنا هنا أن نقول : إن أصحاب العقيدة الدينية التى يتلقونها بالوحى ، وأصحاب العلم الدينى ، الذى منهجه نقلى ومصدره توقيفى ،

قد روجوا لفكرة التجديد فى الدين ، ورددوها ، وعُنوا بها ؛ وفى هذا دلالة جد واضحة ، على فهم الحياة العاملة ، والشعور بما تتطلبه من الاتصال الدائم بعوامل التغيير والتوجيه فيها، وبرهان جد قوى على صلاحية كبيرة للحياة والبقاء ، واستعداد للتدرج الدائم المستمر ، والمستقبل المتفتح لكل ما يطرأ على الوجود ، ويظهر فى ميادين النشاط .

وتلك من تقاليد أسلافكم ، فضيلة جليلة ، أنتم أحق الناس بتقديرها ، والانتفاع بها ، بعد الذى عرفنا من واقع اتصالكم بهذه الثقافة الإسلامية ، والقيام على حمايتها ، وحماية الشخصية الشرقية ، والاحتفاظ بالحيوية المصرية ، والذاتية القومية ، بفضل هذا الفهم الجليل لنواميس الكون ، وسنن الوجود .

ومن تحدث آباؤهم بمثل هذا ، أغنياء — ولا مراء — عن إطالة القول فيما يرجى منهم نحوه ، وما يلقونه فيه ، وهم متلقوه وناهضون به إن شاء الله .

وإذا ذكرت هذا من تقاليد أسلافكم الكريمة ، ومقرراتهم فى فهم الدنيا ، وسعنى أن أتحدث عن فهمهم لذلك فى حياة العلم والعلماء .

أيها الإخوان : يتحدث المتكلمون من أسلافكم عن آداب العالم والمتعلم[1] ؛ وأن أدبهم فى ختم كل درس هو أن يقولوا : والله أعلم ؛ وكذلك يكتب المفتى بعد كتابة الجواب هذه الكلمة : والله أعلم ؛ ومهما يكن لهذه العبارة من معنى دينى ، فى الذكر أو التبرك أو نحوه ، فإنها شعار وتقليد علمى ، يأخذ أصحابه بالشعور القوى الدائم ، بأن الكلمة الأخيرة لم تقل ؛ وأن وراء ما عرفوه ، أو قالوه ، أو كتبوه ، مواضع للتعلم والازدياد والتحقيق ، وبذلك كانوا يشعرون دائما ؛ فسار بينهم القول بأنه : لا يزال الرجل عالما ما تعلم ، فإذا ترك التعلم ، وظن أنه قد استغنى ، واكتفى بما عنده ، فهو أجهل ما يكون[2] .

ولئن كانت تلك الكلمات الجامعة حكما مثالية تسير وتردد ، ويخشى ألا يجرى العمل

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، فى آداب العالم والمتعلم، طبع الهند سنة ١٥٣٣ ص ٤٤و٤٥.
(٢) المصدر السابق ص ٢٨ .

عليها ، ولا يأخذ الناس أنفسهم بها ، إن لأسلافكم مع ذلك القول وتلك الحكمة ، تقاليد تعليمية عملية ، كان لها نفعها الحيوى ، وخطرها الاجتماعى .

فمنها رواية الرواة الأكابر عن الأصاغر ؛ يدفعون بذلك توهم أن يكون المروى عنه أكبر وأفضل من الراوى ، نظرا إلى أن الأغلب كون المروى عنه كذلك ؛ مع أن ما وقع من رواية القوم فعلا وتلقيهم كان غير هذا ؛ وقد وقعت لهم منه أضرُب : منها أن يكون الراوى أكبر سنا ، وأقدم طبقة من المروى عنه ؛ ومنها أن يكون الراوى أكبر قدرا من المروى عنه ، بأن يكون حافظا عالما ، والمروى عنه شيخ راو فحسب ؛ ومنها أن يكون الراوى أكبر من المروى عنه ، من الوجهين جميعا ؛ وقد روى كثير من العلماء والحفاظ فعلا عن أصحابهم وتلامذتهم ؛ وروى التابعى عن تابع التابعى[١] ؛ كما صح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين . وأجل من ذلك كله وأنبل ، ما يتوجون به هذا المقام من نقلهم قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَيّ ، وقوله له : أمرنى الله أن أقرأ عليك[٢] الخ . وإذا كانت تلك تقاليدهم العملية ، ونظام تلقيهم الفعلى ، وقد صدره رسول الله عليه السلام بقراءته على صاحب له ما تلقاه هو وحيا ، فليس من القول المتزيد ، ولا من الأدب الكلامى فقط أن يقولوا بعد ذلك ، إن من آداب العالم فى نفسه ، ألا يستنكف أن يستفيد مالا يعلم ممن هو دونه مَنصِبا ، أو نسبا ، أو سنا ؛ بل يكون حريصا على الفائدة حيث كانت ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها[٣] .

أيها الإخوان : إذا ما كانت تلك تقاليد الثقافة التى أنتم أقوى الناس بها اتصالا ، وأوثقهم ارتباطا ، فهل ترونى مع هذا أحتاج إلى شىء وراءها فى تفسير عملكم حيويا واجتماعيا فى هذا المعهد ؟ أحسب أن لا . فأنتم فيه أفهم الناس للمعنى الحيوى فى المعلم ، من طالب المعرفة والازدياد منها دائما ، ولست بحاجة إلى أن أقول لكم ما قلت آنفا ،

(١) ابن الصلاح والزين العراقى : المقدمة وشرحها ، طبع حلب سنة ١٣٥٠ ص ٢٨٤ وما بعدها .
(٢) ابن جماعة : المصدر السابق ص ٢٩ .
(٣) ابن جماعة : المصدر السابق .

من أن الأمم المتجددة تتحقق من هذا النماء وتلك الحيوية ، بين فترة وأخرى ، أفبعد ذلك غريبا ، أو صعبا على النفس ، أو ما إلى ذلك من اعتبار سطحى قاصر ! ولئن كان فى كتائب هذا الجيش الثقافى من المعلمين ، من لاتسعفه خليقته ، ولا يهون فى رأيه وتقديره فهم هذه الحقائق ، إنكم لآخر الناس وقوعا فى هذا ، بل أنتم أبعد الناس عن الوقوع فيه ، مهما ينزغ الشيطان ، لأن لكم فى فهم هذا وتقديره ماضيا نبيلا ، وأسلافا كراما .

أيها الإخوان : كان هؤلاء الأسلاف يقولون : إن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية ، من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك ؛ لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس ، والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها ؛ ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه ، وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها؛ ولأن فى بقاء العلم إحياء الشريعة ، وحفظ معالم الملة . . . الخ ما يقولون من مثل ذلك[1] النظر الاجتماعى السديد ، القائم على الشعور الكامل بصلة الفرد بجماعته ، وواجبها عليه ، فهل ترونني بعد ذلك فى حاجة إلى أن أكرر توجيه النظر إلى ما قدمت من أن هذا المعلم كائن حى فى جماعة ، يحتاج إلى الاحتفاظ بأمارة الحياة ، من قوة النماء ، والمقدرة على التمثل والاغتذاء . وهل ترونني بعد ذلك فى حاجة إلى أن أطيل فى تفسير العمل الاجتماعى فى هذا المعهد ، وأنه لون من أداء الواجب الخطير ، الذى يجب على كل فرد منا لقومه وأمته ، ليحيا بحياتهم ؛ ويسعد بسعادتهم، ولن تتحقق سعادته عن غير هذه السبيل .

هـذا تفسير عملكم فى المعهد حيويا واجتماعيا ، وهو التفسير الذى تلزم به تقاليد أسلافكم ، ومقرراتهم الراسخة ، وأعمالهم الثابتة ، قبل أقوالهم السائرة ، فأنتم بهذا كله أغنياء عن الإطالة فيه ، أو الإفاضة فى شرح ما يرجى منكم من إخلاص وإقبال .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣ .

أيها الإخوان : ذلكم هو التفسير الحيوى والاجتماعى لفكرة هذا المعهد ، وللعمل فيه ، وهو التفسير الذى تقضى المصلحة العملية نفسها ، بأن يسبق و يتقدم على التفسير المنفعى ، والاستفسار المادى عن فكرة المعهد ، وأثر العمل فيه ، وفى هذا التقدم حفظ للمنفعة العملية نفسها ، وتحقيق للفائدة المادية ذاتها ، انتفاعا بما عرفه المجربون من الناس إذ قالوا :

إن الجيش الذى يقاتل من أجل الخبز لا ينتصر .

الخطة

إجمالا وتفصيلا

١ — المادة .

٢ — المعلم .

٣ — العرض .

٤ — الكتاب .

بهذه الطمأنينة التي انشرحت بها صدوركم — إن شاء الله — بعد الذى فهمنا من تفسير العمل فى المعهد ، ننظر فى خِطة العمل المرجّى .

والخِطة سبيل إلى الغاية المنشودة ، فلا يضعها إلا من استوضح الغاية ، واستبان الغرض، فعرف بذلك أصح الوسائل ، وأيسر السبل لتحقيقه .

وفى وصف هذه الغاية ، أسوق إليكم فقرة كتبتها تحت عنوان « **البلاغة اليوم** » ، مما كتبت عن مادة « البلاغة » فى دائرة المعارف الإسلامية — مجلد ٤ ص ٧٠ ط عربية — قلت :

« فى الشرق — ولا سيما مصر — حركات تجديدية بلا مراء ؛ ومن هذه الحركات الموفق الرشيد ، ومنها طائش غير مسدد ؛ ودون أن نمس تفصيل ذلك فى الحياة الأدبية بخاصة ، وما يتناولها من تجديد ، ومع اجتناب ما يضيع الجهد ، و يثير الخلاف حول هذه المحاولات ، نقول :

إن التجديد الأدبى يرمى إلى غرضين : قريب و بعيد .

فالغرض القريب : هو تسهيل دراسة المواد الأدبية ، وتقليل ما يبذل فيها من جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من ورائها تحقيقا عمليا ، بحيث يمكن كل دارس لها أن يظفر فى وقت مناسب ، و بجهد محتمل ، بما يستطيع معه استعمال اللغة فى حياته ، ذلك الاستعمال الذى تطلب من أجله اللغات .

وهذا الغرض يحققه المنهج الصالح ، والكتاب المنظم ، والمعلم الكفء ؛ وإن استلزم تغييرا فى ترتيب مسائل هذه العلوم ، أو طريق تناولها وعرضها ، فذلك أمر قريب المنال ، حين تصدق النية فى طلبه .

وأما الغرض البعيد من التجديد فى علوم الأدب ، أو علوم العربية :

فهو أن تكون هذه الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر الأمة ، وترضى كرامتها الشخصية ، وتساير حاجتها الفنية المتجددة ؛ فتكون اللغة فى مصر مثلا لغة الحياة فى ألوانها المختلفة ، وأداة التفاهم المرضية ، فى البيت والمعمل والجامعة والمسرح والسوق والنادى وما إلى ذلك ؛ فلا يعيش الناس بلغة ، ويتعلمون لغة أخرى ؛ ولا يفكر الناس بلغة ، ويدونون أفكارهم بغيرها ؛ ولا يتعاملون بلغة ، ويشعرون وينثرون ويمثلون ويخطبون بغيرها ؛ ولا تكون اللغة سببا فى فرض نظام من الطبقات على الأمة ، يتسع به البعد بين خاصة الأمة وعامتهم ، فى اللغة المتفاهم بها .

ولا يتحقق هـذا الغرض إلا بتغيير قد يمس — أو لابد أن يمس — الأصول ، أو الأسس البعيدة ؛ ويدخر له العزم والجد ، حتى تصير اللغة ناحية من كيان الأمة ، وجانبا من وجودها العملى؛ ولا تفترق اللغة فى حال عنها فى أخرى إلا بقدر ما تتطلب الأناقة الفنية والعمل الأدبى .

وهذا المطلب شاق غير يسير فى جوانب مختلفة من العلوم العربية ، إلا أنه أقل مشقة فى البلاغة ودرسها ، لمرونة فى فطرتها ، وقابلية فى منهجها ، الذى يعتمد على الذوق والوجدان ، ويصل أبحاثها بالفن والجمال ، مهما تخف ذلك اتجاهات ضالة ، وأعمال خاطئة ؛ ثم إلى هذا كله أمر آخر يضيِّق الخُلْف ، ويقلِّل المشادّة بين الواقفين والسائرين ، هو أن الأقدمين أنفسهم قد صرحوا : أن البلاغة من العلوم التى لم تنضج دراستها .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإنى أرى أن نعمد رأسا إلى تحقيق الغرض البعيد فى تجديد البلاغة العربية ، تجديدا يمس الأصول والأسس فيغيرها ، وينفى فيها ويثبت ، ويخالف مقررات كبرى — وبخاصة فى البلاغة المتفلسفة — ويضيف إضافات جديدة ، حتى نصل البلاغة بالحياة ، ونمكنها من التأثير الصالح فيها ؛ وإذا تم ذلك كان تسهيل الدرس أمرا هينا

يسير التحقيق؛ فلنا إذ ذاك ، أن نؤلف من الكتب مانشاء ، ونعرض الموضوعات ، ونتناول المسائل كما نشاء ، بعد ما استطعنا التحكم فى الأصول الكبرى » .

* * *

هذا ما قلته وصفا لغرضين من الدراسة المتجددة فى البلاغة ، وتصويرا لغاية من ذلك مزدوجة ، وقد عُنيت حينما قلت هذا ببيان مجمل للغرض البعيد ، والغاية الثانية — فى بحث البلاغة بالدائرة — فهل نفعل هنا ما فعلناه هناك ؟ وهل تكون عنايتنا فى المعهد بهذا الغرض الأخير ؟

أظن أن لا ، وإنما سنُعنى بالغرضين معا ، لأن أولهما غرض قريب ، يحتاج إليه العمل ، ونرجو منه الفائدة الناجزة . وإذا كان الأمر كذلك فستكون خطتنا إذن قائمة على ما يمكن تحقيقه من الغرضين معا ، وإن بينهما من الصلة الوثقى ، لما يجعل تحقيق واحد منها تحقيقا مباشرا للثانى ، بل ما يتوقف به تحقيق واحد على تحقيق الآخر .

فنحن فى هذا المعهد نتحدث إلى المعلم ، حين نتحدث عن مادته ، وكتابها ، وعرضها ، ونطمع أن نهيىء له من ذلك كله أفضل مما وُجد حتى الآن ؛ ولهذا نعنى بالغرضين القريب والبعيد جميعا .

وإذا ما حاولنا ترتيب الغايتين من حيث التقدم والتأخر ، فلعل المادة المدروسة هى الأولى ؛ ثم يلى ذلك كتابها ، ثم طريقة درسها . فإذا ما تمت لنا الفكرة عن حدود المادة التى ندرسها ، وعن المنهج الذى ندرس عليه مسائلها ، وأسلوب البحث الذى نتناول به قضاياها ، استطعنا من معرفه أولئك جميعا أن نهتدى إلى وجه الرأى فى مسلك المعلم نحوها ، حينما يحاول إنماء معلوماته فيها ، وازدياد خبرته بها ؛ وبذلك نهيىء له من قرب الطريقة المثلى فى عرضها وإخراجها ، وتقديمها إلى التلاميذ ؛ ونستطيع من هذا أن نحكم على مافى أيديهم حتى اليوم من كتبها ، وأن نتصور الكتاب الصالح لهم وطريقته ، وبيانه لمسائلها ؛ فنرتب نقط بحثنا كما يأتى :

(ا) المادة : منهجها ، ومباحثها .

(ب) المعلم : تفقهه فيها ، وزيادة علمه بها .

(ح) عرضها و بيانها للناشئين ، عرضا يكسبهم المقدرة الكاملة فيها .

(ى) الكتاب الذى يتحقق به هذا العرض والبيان المكسب لهذه المقدرة .

تفصيل الخطة

و إذا ما كانت تلك أجزاء خطتنا ، فى درس ما نتناوله من البيان ، أو النقد الأدبى ، أو البلاغة فى هذا المعهد ، فإن ذلك الإجمال يحتاج إلى التفصيل التالى :

أولا ، فى المادة ومباحثها :

نصف تصور القدماء لها ، وتنظيمهم لمسائلها ، ومنهج دراستهم لها ، وأسلوب بحثهم لقضاياها ، وغايتهم المرجوة من درسها فى رأيهم ؛ مستعينين فى ذلك بنظرة تاريخية ، تمكننا من القول الدقيق فى هذه النواحى الأربع : (١) صورة المادة (٢) ومدى أبحاثهم فيها ، (٣) ومنهجهم فى بحثها ، (٤) وغايتهم من درسها .

و بعد بيان هذه النواحى ، نعرضها للنقد واحدة واحدة ، مستضيئين فى ذلك بما عرفت الدنيا بعد عهدهم ، وما تطلبته حاجة الحياة ومرافق النهوض ، لنرى هل تحقق المادة بصورتها المعروفة لهم ، وفى دائرة بحثها التى حددوها بها ، وعلى المنهج الذى التزموه فى درسها ، و إلى الغاية التى رجوها منها ؟ هل يحقق بذلك كله ما يرجى اليوم من هذه الدراسة ، و يفى بطلبة الأمة ؟

فإذا ما انتهينا إلى رأى فى هذا كله ، بقبول المعروف من ذلك جملة ، أو برفضه جملة ، أو بزيادة عليه ونقص منه ، نظرنا إلى ماترك القوم فيها من كتب ومؤلفات متداولة أو مهملة.

وهنا نحتاج إلى فحص دقيق عن هذه المؤلفات ، لنعرف كيف نأخذ منها ونترك ، وكيف ننقص منها أو نزيد عليها ؛ و بذلك ننتهى إلى رأى فى تقدير قيمتها من حيث هى مراجع

للمادة اليوم ، و إلى أى حد يكون ذلك ؟ . وهل يُزاد عليها غيرها ؟ و إذا كان فما هو؟ و إن لم يكن فى العربية فما السبيل إليه ؟

وعلى قدر ماننتهى إليه من رأى فى ذلك كله ، نستطيع حينما نبحث مسألة من المسائل أن نعرف صورتها الأخيرة التى نرى أن تكون عليها ، ومن أى المواد تؤلف هذه الصورة ، وأى المراجع أو الوسائل تعيننا على صنعها وتكوينها .

و إلى هنا نكون قد عرفنا كل ما يخص المادة ومباحثها ، فيتجه سؤال تردد غير مرة منكم ، وهو : ما الذى نتولاه بالدرس من مسائل المادة ؟ أهو المنهج المقرر فى المدارس كله ؟ أم بعضه ؟ .

والجواب عن هذا السؤال الآن ربما كان سابقا لأوانه ، لأنه يتوقف على درجة التغيير الذى سنتناول به مسائلها ، فإن كان جوهريا عميقا شاملا ، احتجنا إلى تناول أكثر مسائل المنهج ، و إن كان غير عنيف ولا مبدل تماما لصور هذه المسائل ، اكتفينا بكثرة من هذه المسائل ، نتولاها بالبيان ليعرف بها غيرها .

وأستطيع الآن أن أقول مؤقتا : إن هذا التغيير ليس يسيرا ، و إن لم يكن صعبا ولا متعبا ؛ هو جوهرى يمس الأسس البعيدة فى البلاغة ، ويغيرها تغييرا غير قليل ، ولكنه فى الوقت نفسه فنى وجدانى ، يعتمد فيه على الذوق الأدبى ، والحس الفنى ، ويستقل به الدارس مهتديا بقوة إدراكه للجمال ؛ فيكفى فى الرياضة عليه ، و إكساب الخبرة به ، دراسة جوانب من المقرر يتبين بها غيرها .

***

وهنا نعرض كذلك لمسألة يسيرة فى ذاتها ، ولكنكم قد أعطيتموها عناية أكثر مما تستحق ، نظرا لظروفكم العملية الخاصة ، وهذه المسألة هى : ماذا تفعلون أنتم من ذلك ، وماذا يفعل غيركم ؟ أو ما نصيبكم الشخصى من هذه الدراسة ؟ .

والجواب عن هذا : أنكم — فيما يغلب — لا تكلفون عملا أساسيا ، قبل الفراغ من هذه الدراسة الخاصة بالمادة ، أى أنه يجب أن تستمعوا الآن أكثر مما تقرءون عن صورة

المادة عند الأقدمين وغايتها ومدى بحثها ومنهجها ؛ و بعد تمثل ذلك ، والانتهاء فيه إلى رأى نتفق عليه فيما بيننا ، أو نختلف فيه الاختلاف الخير ، الذى يقوم على وجهات نظر صالحة للحياة ، خليقة بالاحترام ، يبدأ عملكم أنتم... و إن كلفتم قبل ذلك شيئا من العمل الشخصى ، فإنى لأرجو ألا يكون أكثر من إحالتكم على مصادر ترجعون إليها ، استيفاء لفكرة يشار إلى جملتها فى المحاضرة .

و بعد إتمام الفحص عن هذه النواحى من المادة ، يجوز أن تكلفوا تكليفا أساسيا مستقلا ، مسألة تدرسونها فى صورتها القديمة ، وتنقدون هذه الصورة ؛ وتزيدون عليها أو تنقصون منها ، وتنتهون فيها إلى كيان جديد ، يحقق الرغبة المنشودة من دراسة المادة اليوم ، ويجرى على منهجها المبتغى الآن . و إلى هنا عرفنا الخطة بشأن المادة : ما نتولاه منها وما تعملون فيها ؛ وننتقل إلى مسألة أخرى هى :

ثانيا — المعلم : تفقهه فى المادة ، وزيادة علمه بها :

و إذا كان الذى رجونا ، من توسيع أفق دراسة المادة ، والأخذ فيها بمنهج دراسى يلائم طبيعتها ، ويحقق من قرب غايتها الحيوية ، وقد وصلنا إلى ذلك عن طريق دراسة تاريخية لعمل القوم فى كل أولئك النواحى ؛ كما قمنا بالفحص التاريخى الكافى لمؤلفاتهم فيها ، وقد عرفنا كيف نأخذ مما فى هذه الكتب وندع ، وما نزيد عليها ، ومن أين نصل إلى هذه الزيادة .

وقد عرفنا أنكم بعد الاتفاق على أصل لذلك كله ، ستقومون بالعمل التطبيقى ، فى مسائل تدرسونها فى وضعها الأول ، وتمرنون على تصويرها الجديد ؛ فبذلك كله نكون قد دللنا على المصادر المسعفة ، ومرنا القوى على الانتفاع بها ، ولم يبق فى سبيل تفقه المعلم فى المادة إلا رغبته الصادقة فى الاستزادة ، وحبه النفسى لهذا التفقه ، وقد هيئت له سبله ، ويسرت وسائله له ، وجرب كسبه الشخصى فيها ، وكل ما بعد ذلك فهو عمله المستقل ، وجهده الشخصى إن شاء أن يستزيد ، فإن لم يشأ هو ذلك ، فلن تفلح قوة ما فى حمله عليها

ولو ألفت له كتب الدنيا ، وقدمت إليه خلاصات درس العالم كله ؛ وذلك خطر لن نخشاه إن شاء الله ، اعتمادا على حسن تقديركم ، ونبيل رغبتكم فى تحقيق الغاية الحيوية والاجتماعية ، من عملكم الجليل ، لقومكم ووطنكم .

وإذا ما أردنا بعد ذلك النظر فى النقطة التى بعد هذا وهى

ثالثا — العرض الصالح على التلاميذ ؛ والإخراج المحقق للفائدة :

فهذا فيما أعتقد يصبح يسيرا أكمل اليسر إذا ما صورت المادة صورة صحيحة ، وامتدت حدودها إلى مدى يكمل نقصها ، ويعدها للوفاء بحاجة الحياة ، ويصحح منهج درسها ، تصحيحا يلائم طبيعتها الفنية أو العملية أو العقلية ، ويوجهها إلى الغاية الجديرة اليوم بأن تطلب . ثم ريض المدرس بعد ذلك على العمل الشخصى ، والثراء الفنى فى المادة ، فأصبح قادرا على كسب الحقائق فيها ؛ مستطيعا الزيادة على المعروف قبل الآن منها ، مضطلعا بالجرأة الواثقة على حذف ما لاخير من بقائه بين أبحاثها ، وهو مطمئن إلى صحة ما يفعل اطمئنان الطبيب المجرب حين يبضع أو يبتر .

إذا ما كانت تلك حال المادة فى ذاتها ، ومقدار تمكن المدرس من التصرف فيها ، فقد هان عليه وهو المجرب المختبر ، أن يأخذ من طبيعة المادة ومنهجها الذى ارتضى لها ، الصورة الجميلة التى يعرضها على تلاميذه ، فتكشف عن مفاتن هذه المادة المدروسة ومحاسنها ، وتغرى النشء بالعناية الواجبة بها ، والإقبال المحب عليها ، وليس ذلك مما يحتاج فيه إلى المرانة الخاصة رجال أمثالكم ، بعد أن يتم الاتفاق معهم على كل أولئك الأصول الأساسية والعناصر الجوهرية .

ولقد كنت — ولا أزال — أقول : إن خير من ينصر هذه المحاولة المجددة ، ويصيرها واقعا ذا أثر فى حياة اللغة وعلومها ، هم أولئك المدرسون ، حينما يؤمنون بصدق هذه المحاولة ، ويطمئنون إلى أصولها ، فيكونون كما قلت لكم فى المحاضرة الماضية — دعاتها الجادين ، ومبشريها المخلصين ، ورسلها المجاهدين ، ولهم من الخبرة بنفوس التلاميذ ، ومن الاتصال

الممارس بقواهم ، ومصادر انتباههم ، ما يغنى عن كل غاية خاصة ، باختيار طريقة للعرض دون طريقة ، وإيثار صورة للإخراج دون صورة .

على أنى برغم ذلك كله ، سأحاول أن أعمل بالاشتراك معكم على اختيار هذه الصورة فى مسائل ، لتكون نماذج ومُثُلا لما نرجوه من عرض مساير لطبيعة المنهج المتخذ فى دراسة المادة الأدبية الناقدة ، من هذا البيان الذى ندرسه ؛ ولن نكثر من ذلك ، فقليله يكفى جد الكفاية لما أسلفته من أسباب فى عنايتنا بالمادة والمنهج ، ومرانتنا الكافية على مقدرة التصرف والتغيير ، مع ما لكم من خبرة قادرة مجربة لأحوال التلاميذ ، والطرق القريبة إلى نفوسهم .

وإذا ما تم هذا الذى رجونا من حال المادة ، وحال المعلم ، وصورة العرض ، فقد هان أمر ما بعده ، مما عددناه فى عناصر الخطة ، وهو :

رابعا — الكتاب الذى يتحقق به هذا العرض المفيد :

ذلك أننا من حيث الكتب القديمة فى مادتنا ، قد قدمنا لها بحثا تاريخيا ، هدانا إلى منهجها الذى تبعته فى الدراسة ، وإلى قيمتها المرجوة من حيث هى مصادر ومراجع فى دراستنا ، على منهجها الذى نبتغيه ، وقد بصرنا بمواضع الفائدة منها فيما نحاوله من زيادة أو نقص ، ثم ما زلنا حتى اكتسبنا القدرة على الاستغناء عن شىء فيها ، والانتباه الخاص إلى شىء نافع بين محتوياتها ، بل زدنا على ذلك ، إلى حد الاقتدار على إضافة شىء ليس فيها إلى الذى انتقيناه منها ، وبذلك فرغنا من وزنها وزنا دقيقا صحيحا .

وأما ما ألف من الكتب المتأخرة على غرار هذه الكتب ، وكان اختصارا لها ، وعرضا نظيف الطبع والورق لما فيها ، فله ما لها من قيمة ، ولنا عليه ما لنا عليها من قوة متصرفة ، ومقدرة ناقدة ، ولا أسمى هذه الكتب ، فأنتم تعرفون تلك المجموعات المدرسية .

وأما ما ألف بعد ذلك من كتب حاولت أن تستحدث وتتصرف ، وتزيد وتنقص ، فلنا منها موقف أخص من الموقف السابق ، نستعين فيه بالذى اطمأننا إليه وارتضيناه

من منهج بحث ، وخطة عرض ؛ فإن كان فيها من ذلك شيء أبقيناه وانتفعنا به ، و إن كان فيها من غير ذلك شيء استغنينا عنه ، وألقيناه إلقاءنا لما قبله مما فى الـكتب السابقة ، ومثال ذلك ما فى أيدى تلامذتكم اليوم من كتب فى البيان ، وسترون أن فيها محاولات متجددة ، كما أن فيها إلى جانب ذلك آثارا من الوهن ، لحقتها بحكم ظروف الانتقال التى ظهرت فيها.

***

وهنا أرى حقا ألا أخفى عليكم شيئا من الرأى ، جهرت به قبل اليوم ، بشأن هذه الـكتب المدرسية ، وهو أن المدرسين الممارسين هم وحدهم أصحاب الحق كله فى وضعها ، ومن غير المصلحة أن يضع لهم غيرهم شيئا من هذه الـكتب ، لأن لهم بتجاربهم الطويلة ، وخبرتهم المزاولة لأحوال التلاميذ ، ما يعينهم أفضل الإعانة على التأليف لهم ، وتجنب السقطات التى يقع فيها من يؤلف لهم من غير مدرسيهم ، حين يبعدون عن جوهم ، فيجيئونهم بما لا يألفون ولا يفهمون ، مما يحوجكم حينما تدرسون إلى تلخيص الـكتب ، ووضع المختصرات ، أو اختيار طرق أخرى لعرض المسائل على تلامذتكم عرضا جديدا ، غير عرضها فى الـكتب .

على أن هذا الرأى يحمِّلكم عبئا ثقيلا قد يئودكم حمله ، وقد يحتج به أنصار التأليف باللجان والأشخاص البعيدين عن التدريس الفعلى ، ولـكنى لا أعترف بشى من هذا الأود والإجهاد ، أو بعبارة أصرح ، لا أعترف أنكم لا تستطيعون هذا ، أو بعبارة أدق لا أعترف أن ليس فيكم غير قليلين يستطيعون هذا ؛ فلنترك لهؤلاء القليلين الفرصة ليجيئوا من هذا بما يستطيعون ، ولتختر الجهات الرسمية بعد ذلك أفضله وأمثله ، فتقره وتذيعه إن رأت ذلك ، فينتفع به من لايستطيع مثله ، و يغرى به من يستطيع مثله ، لـكيلا يكسل دونه .

ولعلى فى هذا المقام أجهر ببقية رأيى وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس — و بخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية ، التى تتأثر بأقليمها أو بيئتها تأثرا شديدا — يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلامذته مراجع لمذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها عليهم ، وما أهون أن يهيىء لهم ذلك إذا ما يسرت له الجهات الإدارية سبله ،

يبذل قليل مما تنفقه ثمنا لهذه الكتب ، أو مكافأة على تأليفها ، وسيكون عرضه هذا ، وإعداده المرجع لما عرضه بالصورة التى أحبها واختارها ، عملا ذا أثر فى تحقيق ما ابتغى من نتيجة فى تلامذته ، تسقط به معذرته حين يقيد بالكتاب ، ويظهر إبداعه حين يعفى من هذا التقييد .

ولقد كنت ولا أزال أقول بشأن هذه الكتب المدرسية ، ما يقوله أنصار التقنين غير المنصوص ، بل أصحاب التقنين المنصوص ، حينما يقدرون أن الأهمية كلها أو جلها للقاضى المطبِّق ، لا للقانون مدونا أو غير مدون ، فيقولون : أعطنى قاضيا ولا تعطنى قانونا ، وكذلك أقول : أعطنى مدرسا ولا تعطنى بعد ذلك شيئا ، حتى المنهج التفصيلى لا أريده . وأما الكتاب المسطر المحدد الذى يربط أبناء الجنوب والشمال ، والشرق والغرب ، والصحراء والخصب ، بلون واحد من العرض ، وعناية ثابتة بجوانب خاصة من المسائل ، أما هذا فلا ، ولا أريده ، وإليكه عنى ، فإنه لن يفيد ، إن لم يضر .

وبهذا بدت مسألة الكتاب كما رأيتم ، أهون المسائل ، واستغنينا عنها استغناء تاما أو قريبا من التام ، بعد الذى قمنا به من فحص عن الكتب القديمة ووزنها ، والاقتدار على التصرف فيها ، ولعلنا لا نحتاج من وراء ذلك إلى نظرة فى الكتب ، إلا أن تكون النقد لبعض ما فى أيدى التلاميذ الآن .

* * *

وهنا أشير إلى صعوبة سنواجهها ، هى هذه الكتب القديمة ، والاتصال بها اتصالا يقدرنا على فهمها ، ذلك الفهم الجرىء القوىّ ، الذى ينفى منها ويثبت ؛ إذ كيف يتيسر لنا هذا فى تلك الكتب التالدة ، التى رأينا أهلها يعدون تفهمها عملا عظيما ، يجيزون به العلماء ، ويقدرون الخريجين ، حين يستطيعون أخذ معنى من عبارة ، ويبينون مرجع ضمير ، ومشارا إليه فى إشارة ، أو مضافا محذوفا ، وما إلى ذلك مما تعرفون خبره ، وتعرفون أن المعاهد المتجددة قد خلصت منه ، فاتهمت بأنها قد نقصها شىء ثمين ؛ وما نريد أن ندخل هنا فى الخلاف على قيمة هذه الطريقة ، وضرورتها فى تكوين الدارس الأديب ، ولكننا

نريد لنشير إلى واقع لاينكر ، هو أن هذه الكتب قد عميت فيها السبل إلى المعانى ، واستبهم المراد ، وأصبحت تحتاج إلى درس خاص بها ، وتلقين يستنفد الجهد ، ويحتاج إلى وقت طويل ، وتوقيف معين ، لن نجد السبيل إليه هنا فى هذه الدراسة بمعهدكم ، فكيف السبيل إلى هذا الفهم القوى ، الذى يستطيع التصرف الجرىء فيها تصرفا يزيد وينقص ؟

تلك مسألة أتعجل الجواب عنها هنا تطمينا للخواطر ، وتهدئة للنفوس ، فأسبق إلى الإجابة عن مسائل منهجية ، سنشبع القول عنها فى مكانها من القول عن منهج بحث القدماء للبلاغة ونقده ، فأقول : إن الصعوبة المعروفة فى هذه الكتب تنجم عن أشياء ، وراء أسلوبها المضغوط المركز ، وهذه الأشياء لو بتّ فيها برأى لهان كثير جدا من هذه الصعوبة .

فأول هذه الأشياء التعرض لمسائل فلسفية معقدة بطبعها ، كالذى يعرضون له فى كتبهم من الحديث فى مبادىء العلوم عن مسائل منطقية فى الحد والموضوع مثلا ، أو من فروع فى المقولات ، كالكلام عن الملكات وما إليها ، ثم ما يعرضون له من الفلسفة الطبيعية والرياضية فى ثنايا بحثهم البلاغى . كالكلام فى الحس والوهم والخيال والضوء واللون ونحو ذلك ، أو ما يعرضون له من معقدات المنطق ، كالبحث فى العموم والخصوص والسلب والإيجاب ... الخ ، وكل هذا مما نرى البعد عنه واجبا ، فلا نخوض فى شىء منه فى دراستنا ، بل سنترك كل ما كتب فيه ، وهو غير قليل فى هذه الكتب .

والثانى من هذه الأشياء أسلوب التناول الفلسفى لمسائل البلاغة وأمثلتها ، كالتحليل العقلى للتعريف والأركان ، والتفسير الفلسفى للمعنى الأدبى فى بيت من الشعر أو شاهد مسوق وما إلى هذا ... وكل ذلك وما إليه سنرى البعد عنه أيضا واجبا ، مكتفين بأن نعرف منه مُثُلا يسيرة ، نبين بها عدم جَدْوى مثل هذا الأسلوب فى الدراسة ؛ ثم نستغنى كل الاستغناء عن هذا الصنف من البحث الذى يحول كتب البلاغة إلى كتب حكمية لا فنية .

وإذا ما استبعدنا هذه العوامل من مثيرات الصعوبة ، بقى ما فى أسلوب تلك الكتب القديمة من ضغط وتركيز ، وهذا أمر يسير ، يخلصنا منه ، أو جز شرح لمتونهم المختصرة ، فنخرج بخلاصة معانيهم المرومة ، وعليها يصدر حكمنا بالصلاحية للبقاء أو بعدم الصلاحية ، فلن نقف طويلا عند البحث فى تخريج عبارة المتن ، أو تصحيح عبارة الشرح ، أو تحرير لفظ الحاشية ، أو تخطئة لنظر التقرير ، فذلك كله مما ليس لنا به حاجة فى درس البلاغة ، وإن صح أن لأحد حاجة فى تكوين مقدرته التحليلية ، أو براعته التخريجية ، فليكن عمله ذاك فى غير هذه البلاغة !

وإذن فسنخلص من أهم مصاعب هذه الكتب القديمة ، ونأخذ منها جوهرا نتبين به اتجاهات بحثهم وإشاراتهم ، التى ندرك أنها تتصل بالفن البلاغى ، فنستبقيها ، بل نتتبع تحقيقهم فيها ، لنبعثه جديدا عصريا ، أو ندرك أنها بعيدة كل البعد عن الفن البلاغى وأدبيته ، فنبعدها ونتجاهلها مهما يكن نصيبها من العناية عند غيرنا من الدارسين .

تلك مشكلات مختلفة فى مسألة الكتب قديمها وحديثها ، أكلنا بها القول فى الخطة الدراسية ، ونستطيع بعدها أن نبدأ بالنظر فى القسم الأول من هذه الخطة ، وهو المادة .

الكتاب الأول

صورة البلاغة

١ — الصورة الإفرادية عند القدماء .

٢ — الصورة التركيبية عند القدماء .

٣ — الصورة الإفرادية عند المحدثين .

٤ — الصورة التركيبية عند المحدثين .

١ — صورة البلاغة :

ونعرف إذ نلتمس هذه الصورة أو المنهج أو ما إلى ذلك من شئون الدرس البلاغى ، أن هذه الجوانب من حياة البلاغة قد تطاول عليها العمر ، وتمادى الزمن ، فاختلف ذلك كله فيها باختلاف الأدهار ، على نحو ما يصفه تاريخ حياتها المفصلة ؛ ولكنا سنقصد من ذلك إلى آخر ما استقر عليه الأمر وثبت ، وأمسى هو المراد عند الإطلاق ، وهو المتناول الآن فى معاهد درس هذه المادة .

وتعلمون أن أساس ذلك كله عند المحافظين هو متن التلخيص ، الذى هو خلاصة القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكى ، ثم ما كتب على هذا المتن من شروح وحواش ، كشرحى سعد الدين التفتازانى المطول والمختصر ، وغير ذلك من شروح تجمعها النسخة المطبوعة المتداولة باسم شروح التلخيص . ومنها كتاب الإيضاح الذى كتبه الخطيب القزوينى إيضاحا وتيسيرا لمتنه التلخيص ؛ فتلك الكتب وما يلف لفها هى عمدة الدرس فى الأزهر على اختلاف يسير فى تناولها بين الأقدمين منهم أيام الحلقات ، والمحدثين أيام الحجر والمقاعد ، وقد جعلوا يخففون ذلك برجعة بسيطة إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، يرون فى ذلك كل علاج لجفاف البلاغة ، أو بعدها عن الحياة الأدبية الفنية .

وعن هذه الأصول أخذ متجددو المدرسين الذين ألفوا فى البلاغة مدرسيات مختلفة الصورة اختلافا هينا ، لكنها واحدة المادة والحقيقة ، كالذى سموه من البلاغة التطبيقية ، أو البلاغة الواضحة حديثا ، وليس جوهره إلا ما فى قواعد اللغة العربية ، أو زهر الربيع ، وحسن الصنيع ، وما ماثل ذلك من قبل .

ولم يختلف عن هذا اختلافا خيرا ، ما أقرته الوزارة أخيرا من كتابى المعانى والبيان ، وإن نال ترتيبهما شيء من التغيير ، لا ندرى أشر هو أم خير ، مع ضرب من البيان والشرح لا ندرى كذلك أفن هو أم علم ، أم شيء لا إلى هذا ولا ذاك ؛ وسنرى فيه الرأى حين يصل بنا الحديث إلى الكتاب ، وبحسبنا هنا أن نكون قد أشرنا إلى أصول المراجع والمصادر التى سنأخذ عنها . أو فى الحق سنحكم على صنيعها فيما نطلبه من صورة البلاغة ودائرة بحثها ، ومنهج درسها ، وغايتهم من تعلمها ، ومن هذه الأصول نحدث عن الصورة القديمة للبلاغة عند أسلافنا . .

وهى صورة لا تتجلى لنا واضحة القَسِمات إلا إذا رأيناها وحدها فى الحديث المفرد عنها ، دون غيرها من علوم العربية ، ثم رأيناها بين هذه العلوم الأدبية ، حين يصنفونها ، ويبينون اتصالها وارتباطها ، وأين يقع العلم منها من صاحبه ، وما موضعه فى الصورة الكلية التركيبية لهذه المجموعة من المعارف اللغوية الأدبية . . . ومن هنا سنعرض عليكم هاتين الصورتين مقدِّمين :

الصورة الأولى الإفرادية :

وأوضح خطوط هذه الصورة تعريف البلاغة حين يقولون كما عهدتم :

إن البلاغة تكون فى المتكلم والكلام فقط ، دون المفرد ؛ فإذا ما عرضوا لتعريف البلاغة فى الكلام ، لاحظوا أن للمتقدمين — أى على ما قبل عصر المفتاح وتلخيصه — رسوما واهية (١) ، وسردوا من هذه الرسوم الواهية كثيرا مما تقرءونه فى كتب الأدب . وكان الرسم القوى عندهم ، هو : البلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . . وقد قدموا بين يدى ذلك ماتعرفون من قولهم فى بيان هذه الفصاحة ، التى تكون فى المفرد ، والكلام ، والمتكلم جميعا دون البلاغة !

ومن خطوط هذه الصورة حديثهم عن الحال ، ومقتضى الحال ، وقولهم فى حصر هذه

(١) عروس الأفراح — شروح التلخيص ١ : ١٢٣ الطبعة الثانية سنة ١٣٤٢ بالسعادة

المقتضيات ؛ فإذا ماضممت إلى ذلك قولهم فى الاعتبارات التى تحصر أبحاث هذه البلاغة ، فى كيت وكيت ، ووجه هذا الانحصار ، بدت لك صورتها فى ذهنهم جلية الملامح .

فالحال — كما تعرفون — هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما ؛ والحال هو المقام أيضا ، لايتغايران إلا بالاعتبار ، أى أنهما متحدان بالذات ، وكل منهما هو الأمر الداعى إلى إيراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة ؛ ولايتغايران إلا بحسب اعتبار المعتبر وتوهمه ؛ وهذا الاعتبار الذى يتوهمه المتوهم ، هو أن يتخيل أن ذلك الأمر الداعى إلى ملاحظة الخصوصية زمان أو مكان ، أى لا بد له من زمان ومكان يقع فيهما ، وهو مطابق للزمان الذى يقع فيه ، وللمكان الذى يقع فيه ؛ أى أنه بقدرهما ، لا يزيد عليهما ولا ينقص عنهما ؛ فباعتبار مطابقة هذا الأمر الداعى للزمان ، يتوهم أنه زمان ، وهو ليس فى الحقيقة زمانا — فيسمى لهذا التوهم حالا ، لأن الحال من أسماء الزمن المستقبل والماضى ؛ وباعتبار مطابقة هذا الأمر الداعى إلى اعتبار الخصوصية مطابقا للمكان الذى يقع فيه ، أى بقدره لايزيد عنه ولا ينقص ، يتوهم أنه مكان ، فيُسَمَّى بهذا التوهم مقاما ؛ والمقام من أسماء الأمكنة كالمجلس والمضجَع ؛ وإنما اختاروا من أسماء الزمان لفظ الحال ، لأن المتكلم بالكلام البليغ من شعر وخطابة ، كان يتكلم بهذا الكلام فى حال وجود الاعتبار الذى لاحظه ، لا بعده ولا قبله ، كما كان البليغ يسوق شعره أو خطابته وهو قائم فيمن يتحدث إليهم ، فأطلق المقام على الاعتبارات التى يلاحظها .

وقد يفسرون وجه اختيار « الحال » و « المقام » بغير هذ التفسير ، فيجعلون الحال : ما عليه الإنسان من الصفات ، لا أحد الأزمنة الثلاثة ؛ ويسمى الأمر الداعى إلى اعتبار خصوصية فى الكلام بالحال ، لأنه مما يتغير ويتبدل ، كالحال الذى عليه الإنسان من غضب أو رضاء ؛ أو سمى ذلك الأمر الداعى بالحال ، لأنه صفة ، وحال من أحوال الإنسان ؛ وهذا الاعتبار الأخير كما ترى يربط الكلام البليغ بحال النفس الإنسانية ربطا قويا ، حين ينى تسميتهم الحال على هذا الاعتبار الذى عليه الإنسان من غضب أو رضاء .

وأما المقام على هذا التفسير الثانى غير الناظر إلى أنه اسم مكان كما سبق ، فهو الرتبة ؛ وإنما سمى الأمر الداعى إلى اعتبار خصوصية فى الكلام مقاما ؛ لأن مراتب الكلام تتفاوت بالأحوال ، كما أن مراتب الرجال ودرجاتهم تتفاوت بالمقامات [١] ، والحال أو المقام كإنكار المتكلم أو تردده ؛ وله مقتضى ، هو ما يسمونه مقتضى الحال أو مقتضى المقام ، هو التأكيد للمنكر مثلا ؛ وإنما وقفنا هذه الوقفة عند كلامهم فى الحال أو المقام ، ومقتضى الحال أو المقام ، لأنه لباب نظرتهم للبلاغة ، والخط الأصلى فى صورتها عندهم ؛ ومنه تتضح نظرتهم إلى هذا الفن ودرسه .

* * *

وهم يشيرون إلى ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، فتفهم من هذا الضبط والحصر صورة البحث البلاغى عندهم ، ومن هنا تقرأ مثل قول القزوينى فى تلخيصه : « فمقام كل من التنكير والإطلاق والتقديم والذكر ، يباين مقام خلافه ؛ ومقام الفصل يباين مقام الوصل ؛ ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه ؛ وكذا خطاب الذكى مع خطاب الغبى ؛ ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » .

فنجد أنهم [٢] قد استخلصوا منه ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، وأنها أقسام ثلاثة :

١ — ما يتعلق بأجزاء الجملة ، وإليه يشير قوله : « فمقام كل من التنكير والإطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه » .

٢ — ما يتعلق بالجملتين فصاعدا ، وإليه يشير قوله : « ومقام الفصل يباين مقام الوصل » .

٣ — ما لا يختص بشىء من ذلك بل يتعلق بهما معا ؛ وإليه يشير قوله : « ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه » إلى قوله : « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » .

---

(١) حاشية الدسوقى شروح ١ : ١٢٥ و ١٢٦

(٢) المصدر السابق ١ : ١٢٦

وبهذا تدرك الاعتبارات التى رأوها محققة للبلاغة ، أو تدرك ما نظروا فى بلاغته من الجملة والجملتين ، كما سمعت من صريح قولهم فى الضبط والحصر ، وكان هو الذى جرى عليه عملهم فعلا فى الدرس والتأليف ، لا يَعْدُونه ولا يخالفونه ، فأيد فعلهم قولهَم ، وحال ذلك كله دون الفهم الطليق من نص القزوينى السابق ؛ فإن ادَّعَى لهم هذا الفهم الطليق أحد من لا يوافق على حصرهم ، دل عملهم الواقع على مرادهم .

على أنه وإن يكن فى هذه الصورة شىء من التظليل المبهم ، فاسمع من قولهم مايزيدها جلاء حين يقولون [1] :

إن البلاغة فى الكلام مرجعها إلى :

١ — الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد .

٢ — وإلى تمييز الكلام الفصيح عن غيره ؛ ثم يبينون ما يعملونه ويتعلمونه ، ليحققوا هذين الأمرين ، فيرون أن الأمر الثانى منهما ، قد أعانت عليه ومكنت منه دراسات لغوية أدبية سابقة ، أو هو مما يستعان فيه بالحس فحسب ، ثم يبقى بعد ذلك شىء من الغرض الثانى ، يحتاج فى تحقيقه وتحقيق الغرض الأول إلى دراسة خاصة ، وذلك قولهم :

إن الثانى ، وهو تمييز الفصيح من غيره ، بعضه يبين فى علم متن اللغة ، أو علم التصريف أو علم النحو ، أو يدرك بالحس ؛ وهذا الجانب من تمييز الفصيح هو ما عدا التعقيد المعنوى ، الذى اعتبروه فى الفصاحة حين عرّفوها فى الكلام بأنها : خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد ، مع فصاحة الكلمات .

فيأخذون من الثانى — أى تمييز الفصيح — هذا التعقيد المعنوى ، ويضمونه إلى الأول ، وهو الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ؛ ويقولون : إنهما هما المحتاجان إلى دراسة خاصة — لأن مرجع البلاغة فيما عدا هذين ، بعضه مبين فى علوم معروفة ، وبعضه مدرك بالحس ، فلم يبق إلا هذان الأمران .

* * *

(١) التلخيص وشرح السعد المختصر . شروح ١ : ١٤٤ بتصرف .

وإذا كان الأمر كذلك فقد وضحت الصورة العامة للبلاغة عندهم بأنها البحث عما يعرف به التعقيد المعنوى ، والخطأ فى تأدية المعنى المراد ؛ وقد أدركت قبل الآن أنهم يعملون لتلافى هذا فى الجملة أو الجملتين فقط .

فالبحث الذى يحترز به عن التعقيد المعنوى — الذى بقى من شؤون الفصاحة — هو علم البيان .

والبحث الذى يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، هو علم المعانى ؛ وما يعرف به وجوه التحسين التابعة لهذين ، والثانوية بعدهما ، هو علم البديع ، ويسمى الجميع : « **علم البلاغة** »[1] .

وكثير من الناس يسمى الجميع : « **علم البيان** » .

وبعضهم يسمى الجميع « **البديع** » وبعضهم يسمى الأول علم **المعانى** والثانى والثالث أى — البيان والبديع — **علم البيان**[2]

٭ ٭ ٭

ومن كل هذا ترى أن هـذه الصورة الإفرادية للبلاغة يخططها قولهم : إنها البحث عما يحترز به عن التعقيد المعنوى ، وعن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وذلك فى الجملة والجملتين .

فلنزدها إبانة بعرض الصور الثانية ، وهى :

الصورة التركيبية :

وهى كما قلنا الصورة التى نرى بها البلاغة مصنفة مع غيرها من علوم العربية ، مبينا بذلك الوضع ارتباطها بما يسبقها من دراسات عربية لغوية ، وما يتلوها من تلك الدراسات ؛ وإنما نستبين هذه الصورة أيضا راجين أن تتضح ملامحها كاملة ، فى سائر الأوضاع ، ليكون

---

(١) مختصر السعد — شروح ١ : ٤٩

(٢) مختصر السعد — شروح ١ : ١٥١

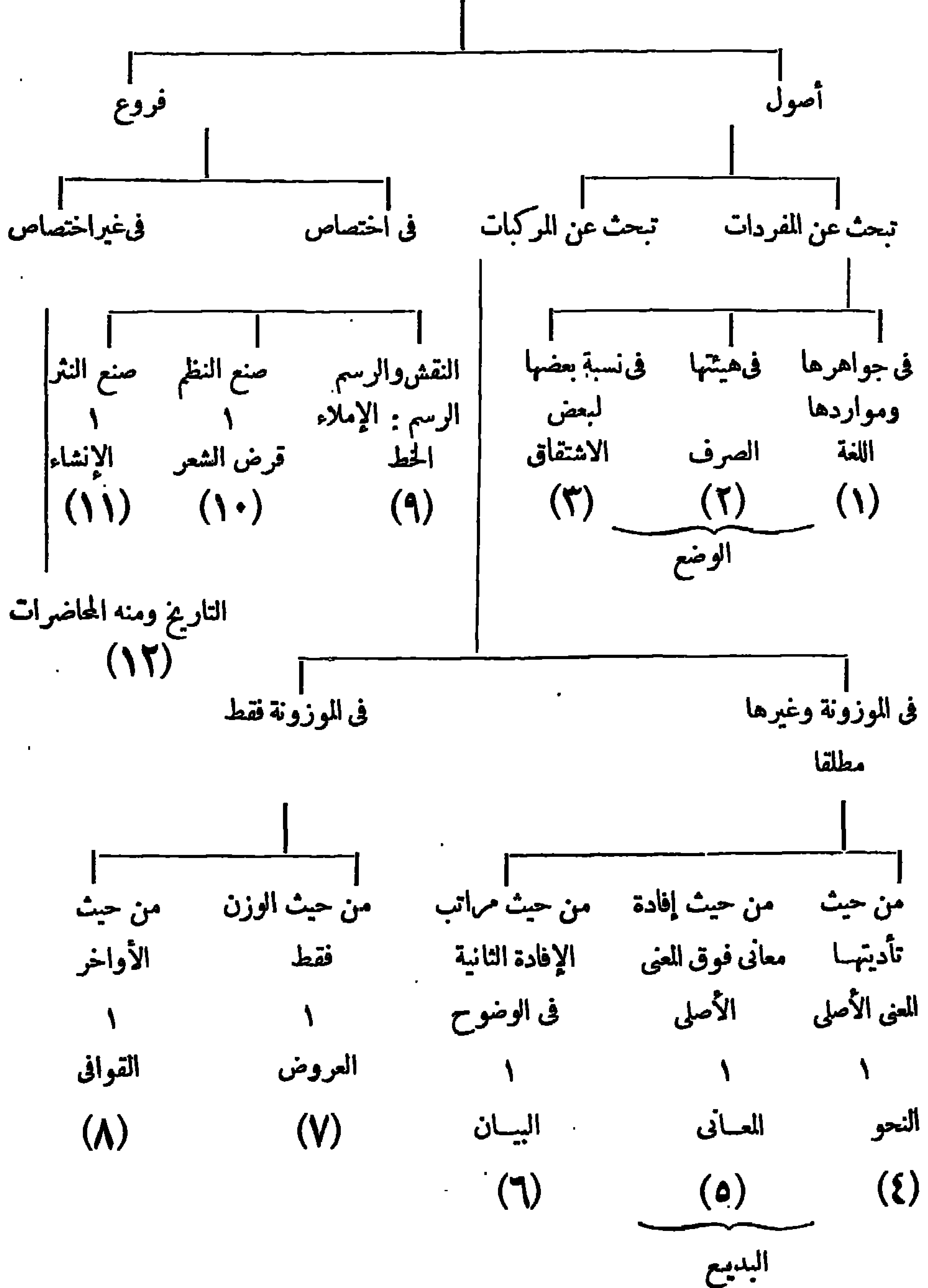
تقديرنا للصورة صحيحا غير خاطئ ، دقيقا غير خاطف ، ولأن هذه الصورة الثانية تؤخذ من نظرة أشمل من غبارات الرسوم وتحديد الموضوعات ، فلعلها تكون أجلى وأوضح .

وحصر علوم العربية أو علوم الأدب وتصنيفها ، مما اختلف كذلك مع الزمن ، وتغير بتوالى القرون ، فنرى مثلا أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى — ت ٥٧٧ هـ ، فى كتابه «نزهة الألبا ، فى طبقات الأدبا[1]» ، يعدها ثمانية علوم ، ويزيد عليها هو اثنين ، يقول إنه وضعهما ، فتكون هـــذه العلوم عشرة ؛ ثم إذا بالسبكى فى « عروس الأفراح » ١ : ٥١ شروح التلخيص — ينقل عن الزمخشرى المتوفى قريبا من عصر ابن الأنبارى — ٥٣٨ هـ — أن هذه العلوم اثنا عشر علما ؛ وهو أكثر ما اشتهر عن هذا التقسيم ، ونرى من عدهذه العلوم وتقسيمها صورة فى كتاب: الدر النضيد ، من مجموعة الحفيد ، للحفيد الهَرَوى: أحمد بن يحيى بن محمد المتوفى سنة ٩٠٦ هـ — انظر ص ٤ وما بعدها ط الخانجى ١٣٢٢ هـ ، كما نجد صورة من ذلك فى كتاب كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى الهنـدى — من أهل القرن الثانى عشر الهجرى — أنظر جـ ١ : ص ١٧ وما بعدها ط الآستانة سنة ١٣١٧ .. كما نجد إجمالا من ذلك فى حاشية الخضرى على ابن عقيل فى النحو جـ ١ ص ١٠ ط الشرفية سـنة ١٣٢٠ — فى هذه المصادر ونحوها نجد فكرا عن إحصاء علوم العربية ، أو علوم الأدب وتنسيقها ؛ فنلمح تدرجها مع الزمن ، ونستطيع أن نصور الصورة الأخيرة التى استقر عليها رأى القدماء فى جدولٍ على النحو الآتى :

---

(١) ط ١٢٩٤ هـ ص ١١٧

علوم الأدب أو علوم العربية



وبالنظر فى هذا الجدول نتبين موقع البلاغة ومنزلتها بين علوم العربية ، وأنها من أبحاث الأصول فيها ، تتلو النحو ، وتبحث فى المركبات ، موزونة وغير موزونة من حيث إفادتها معانى فوق المعنى الأصلى ، ومن حيث مراتب هذه الإفادة الثانية ، وأنها تتألف من علمين أصليين هما : المعانى والبيان ، والبديع تابع لهما .

صورة قد تكون أجلى قليلا من الصورة المفردة التى رأينا فيها البلاغة وحدها من حيث تحدد مكانها ، وأن دورها فى البحث بعد النحو ، والإشارة إلى بحثها عن المعانى الثانية التى بعد المعنى الأصلى ، و إلى مراتب تلك الإفادة الثانية ؛ والأول من قسميها وهو الباحث فى المعانى الثانية ، التى بعد المعنى الأصلى ، يقابل فى الصورة المفردة ، ما ذكروه من الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وجعلوه بحث علم المعانى ، وما ذكروه من مراتب الإفادة فى الوضوح يقابل ما ذكروه فى الصور الإفرادية من الاحتراز عن التعقيد المعنوى ، وجعلوه بحث البيان ، ولئن كانت صورة علم المعانى على بيانهم له فى تصنيف علوم العربية أحسن قليلا من صورته الأولى الإفرادية ، فإن صورة علم البيان لا تتفاوت كثيرا فى الحالتين .

ونستطيع إذا ما تأملنا فى هــــذه الصورة البلاغية عندهم ، بعد تصورها فى وضعيها الإفرادى والتركيبى ، أن نشعر بأنها صورة وجه معروق ، بادى العظام ، شاحب ، يسير الحظ من الحيوية والنضرة ؛ ويزداد شعورنا بقلة حيوية هذه الصورة ، وعدم جمالها ، إذا ما سمعنا حديث غيرهم عن هذه البلاغة ودرسها وصورة ذلك عندهم ؛ فاستمع لطرف من تصوير الغربيين للبلاغة .

صورة البلاغة عند المحدثين

الصورة الإفرادية :[1]

(١) يسوق المؤلف قطعتين أدبيتين ، هما وصف لشىء واحد ، وقد صيغتا من كلمات

(١) هــذه الفقرات وما بعدها مترجمة من الفاتحة والفصل الأول من كتاب الأسلوب الإيطالى Lo Stilela Italiano للباريى ، مع تقديم وتأخير بين أجزائها ، توصلا لرسم الصور المطلوبة ، على مثال ما سبق فى رسم الصورة العربية .

واحدة ، ثم يقول : إن التفريق بين هاتين القطعتين ليس بشيء ؛ ولـكنه كل شيء ، وليس يجب أن تكون نقادا أو أديبا لتدرك أن واحدة منهما أفضل من الأخرى . وقد أشار الكاتب إلى رُجحان الثانية ؛ وهُزال الأولى وضعفها .

(ب) ثم عرض معنى للكتابة فيه ، هو : وصف البهجة التى تغلب على طبيعة العصافير . وذكر لأداء هذا المعنى صورا مختلفة ، من بينها صورة لـكاتب كبير . ثم قال : «وكل أحد يرى أن خير هذه الأوضاع ، هو الذى صاغه فلان ؛ على حين أن سائر الأوضاع الأخرى قد استعملت فيها قواعد النحو وتركيب الـكلام ذاتها التى استعملها فلان هذا » . ثم خلص من هذه الأمثلة التى أوردها ، والتى اقترحها ، إلى أن معرفة اختيار أحسن وضع للتعبير ، وأفضل الصور لإيضاح غرض ، وأداء معنى ، إنما تعتمد على حسن وجمال الوضع الأجمل ، والصورة الأفضل .

والعلم الذى يعلم الـكلام الأفضل ، والـكتابة الأحسن ، هو « **علم البلاغة** » .

* * *

هذه صورة فردية من الصور التى تعرض بها أبحاث البلاغة دون تعريف بالرسم أو الحد ، ويمكن عرض هذه الصورة مع ملاحظة أخص مما سبق فى معنى حسن التعبير ، وفضل الصورة ، عند هؤلاء المحدثين كما يأتى :

* * *

١ — يعرفون إجمالا بالفنون الجميلة ، ويوردون أمثلة لأقسامها المختلفة ، ويعدون هذا الأدب ، نثره وشعره ، من الفنون الجميلة .

٢ — ثم يقولون : إنه ليس كل قول يعد عملا فنيا خاصا ، بل القول الفنى إنما هو قول ممتاز — وهكذا تجد الـكثيرين جدا يعرفون قواعد النحو أعجب المعرفة ، ويكتبون كتابة صحيحة ، لـكنها غير فنية ، كما نجد مثل ذلك فى أى فن آخر .

ففى التصوير مثلا ، نجد أن درس التخطيط والتلوين ، شىء غير تصوير لوحة جميلة .

كما نجد فى لوحتين مصورتين ، تمثلان شيئا واحدا ، أن إحدى هاتين اللوحتين إنما هى لطخة حبر على ورق لا غير ؛ على حين أن الثانية عمل متفوق جميل .

٣ — ومن هنا يحتاج فن القول إلى مايمكننا من الوصول إلى قوة الأسلوب ، و إدراك جمال القول .

والدرس المختص ببحث الأسلوب ، وتعليم الكتابة الفنية ، يسمى « البلاغة » ، كما يسمى كذلك « فن القول » Arta de dire .

وهكذا تعرض الصورة الفردية للبلاغة ، دون تورط فى تحديد ولا تقسيم ولا تسمية أجزاء علوم ... الخ . وأما

الصورة التركيبية :

فنجد عندهم عنها ما يعطينا صورتين تركيبيتين : أولاهما صورة تبين مكان البلاغة بين سائر الدراسات اللغوية المختلفة ، التى يتلقاها متعلمو لغة من اللغات ، وهى من نوع الصورة التى عرضناها من تصنيف القدماء لأقسام تلك الدراسة .

وأما الصورة الثانية فتبين مكان فن القول بين سائر الفنون الجميلة المختلفة ، على نحو ما يصنفون هذه الفنون ؛ و إليكم :

الصورة التركيبية الأولى : البلاغة بين سائر المعارف اللغوية

١ — يبينون أننا نعرف القواعد التى بها تترابط الحروف فتكون المقاطع . ومن المقاطع تتكون الكلمات ـ وهى صناعة النطق والرسم .

ثم نعرف القواعد التى بها تقويم الكلمات ، من حيث سهولتها وعذوبتها فى قوالبها الصحيحة ـ وهو درس الصرف ، ثم نعرف قواعد تنظيم الكلام ، وكيف نركب الجمل والفقر دون غلط . وهو درس النحو ، وبما درسناه من كل أولئك القواعد نعرف كيف نؤلف الكلام صحيحا .

٢ — لكن الكتابة بغير خطأ ليست الكتابة الجيدة . . ولو كانت الكتابة الجيدة تكفى فيها قواعد علوم اللغة لاستطاع كل منا كتابة الروائع الأدبية ، التى نقرؤها لعظماء الكتاب ؛ ولكن الأمر ليس كذلك ؛ نعم إن كل أحد أهل للكثير الجليل ، لكن لم يخرج هذه الطرائف كثيرون ممن درسوا طويلا ، وممن اتخذوا الكتابةصنعة، أو من كتبوا الكتب .

فلا تكفى القواعد النحوية واللغوية لإخراج الكتابة الجيدة ، نعم إن القواعد لازمة ، لكنها ليست كافية ، إذ تستطيع أن تقول عن الكثير من أوضاع التعبير إنه صحيح ، لكن واحدا من هذه الأوضاع هو الذى تقرر أنه الأفضل والأبلغ .

وبهذا الصنيع ، ترون تدرج الدرس اللغوى ، فى خطوات أبحاثه المختلفة ، حتى ينتهى إلى الصحة ؛ ثم يجىء البحث عن الأفضل والأحسن ، أو الأبلغ ؛ وهو درس البلاغة أو فن القول .

موضعه فى الصورة المتكاملة لمواد الدراسة اللغوية ، يتأخر عن كل ماسموه قبله من دراسات . تلك هى الصورة التركيبية الأولى ، وأما :

الصورة التركيبية الثانية : فن القول بين الفنون الجميلة

فتسمع مثل قولهم عن الفن — مؤقتا إلى أن نستطيع الإفاضة —

١ — تضل أصول الفن فى ظلمات الزمن . . . حينما بدأ الإنسان يستخدم حاجات مادية . . وعند ما استطاع فى بعض الأحيان أن يستعمل ذكاءه ومواهبه استعمالا طليقا ، حول التفاته إلى بعض المطالب السامية ، فبدأ الفن يتحول ، حتى صار شيئا نبيلا جميلا ، ضروريا للحياة الإنسانية ، وكان هدفه الخاص : إظهار الجميل .

٢ — والفنون الجميلة خمسة : التصوير ، والنحت ، والعمارة ، والموسيقى ، والأدب . وتدعى الثلاثة الفنون الأولى الفنون التجسيمية ، أو التشكيلية ، كما تدعى الفنون البصرية ، ويدعى الفنان الأخيران الفنون المعنوية أو السمعية .

٣ — وتستعين الفنون جميعا فى إظهار الجميل ، بوسائط مادية : اللون ، والرُّخام ، والحجر ، كما تستخدم الموسيقى الصوت ، ويستخدم الأدب الكلمة ، فإذا ما دعيت الموسيقى فن الصوت ، دعى الأدب فن الكلمة .

٤ — والأنواع الخمسة تؤلف مجتمعة ما يسمى « الفن » ، دون غير ذلك من الأسماء ، فقطعة أدبية خالدة ، وقصر مشيّد ، ولوحة فذة ، ولحن رائع ، لأشخاص مشهورين ، فى كل نوع من هذه الأنواع ، هى الأعمال الفنية ، التى تعد أسمى وأنبل وأنقى مقدرة للروح الإنسانيه ، نُعْنَى بها لنتمتع بما فيها من المسرة الظاهرة ، التى تنفحنا إياها دون أن تنحرف أرواحنا إلى غاية وضيعة ؛ الشاعر والمصور والمَثَّال عظماء حقا يبدعون الشعر ، والصورة ، والتمثال ، لرغبتهم فى إبداع الجميل والمفيد ، ولأن فى قرارة أرواحهم من العظمة والسمو مالا يمكن الدلالة عليه بخير من هذا الصنيع ؛ ولأن أرواحهم تعجب من الأشياء الزائلة بقالب الجمال ومظهر الجمال الذى لا يزول ، فتحفظ هذا الأبدى الخالد بصنيعها الفنى ، كما قال ليوناردو دافينشى — ١٤٥٢ — ١٥١٩ م : « كم من مصور خلد مثال الجمال الإلهى ، حين فنيت سريعا وتبددت الأمثلة الطبيعية لذلك الجمال ، فظل عمل المصور أقوم من طبيعته الموحية المعلمة » !

* * *

وألزم فن بين تلك الفنون جميعا وأجداها ، هو ولا شك ، فن الكلمة ، فكانا نستعمله دون أن نفكر فيه ، ودون أن نشعر به ، فنذكر شاكرين أولئك المنشئين الأفذاذ الذين يعجب الجميع بفنهم القولى .

وحينما تكتب بطاقة لأحد الأصدقاء ، لا تستطيع أن تقول حقا إنك تعمل عملا فنيا ، لكن حينما تكتب باحثا مهتما بإبداء آرائك ، فى طريقة واضحة ، أكثر تحديدا وأكثر قوة ، تكون بهذا فقط قد بدأت عملا فنيا .

* * *

هذا شيء من قول المحدثين عن الفن ، والفنون المختلفة ، وأهمية فن الكلمة بينها ، وأما عن علاقة مابين أقسام هذه الفنون المختلفة ، فمن قولهم فى ذلك :

١ — أن ثلاثة الفنون التجسيمية بينها قرابة قوية ، وهى تتعاون وتشترك فى الحياة ؛ فالتصوير والنحت يزينان ويجملان العمائر ، التى يخرجها فن العمارة .

٢ — وكذلك الموسيقى والأدب فنان شقيقان ، ولدا فى وقت واحد ، وكانا قديما متحدين . ويذكرون هنا مظاهر هذا الاتحاد فى حياة القدماء من اليونانيين والرومان ، وحياة مختلف الأمم الغربية فى العصور الوسطى ، وهو من وادى ما يقوله ابن خلدون من أن الغناء فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضلاء يأخذون أنفسهم به ، حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه .

ويبدو فن القول ، أو فن الكلمة ، بين مجموعة الفنون الجميلة صنوا للموسيقى ، وشقيقا لفن الصوت .

* * *

أفلا ترون هذه الصورة للبلاغة ، أنضر وجها ، وأبهى قسمات ، من تلك الصورة التى عرضها حديث الأقدمين عنها فى رسوم وتقسيات رفضوا بها الرسوم الأدبية وعدوها واهية ، ليقيموا مكانها قولهم فى المطابقة والمقتضى ، وليحدثوا عن التعقيد المعنوى ، والخطأ فى تأدية المعنى المراد ، دون طموح إلى شيء وراء ذلك ؟ أحسب أن نعم .

* * *

وإذا ما كان التعريف هو سبيل اللفت إلى هذه الصورة ، يجلى طلعتها ، فهلا ترون من الملائم أن نقول فى تعريف البلاغة إنها هى فن القول ، لنستحضر من المادة التى سندرسها تلك الصورة المتفننة ، التى تشير إلى أرقى وأنبل وأصفى ما تستطيعه الروح الإنسانية ، حين تقول مظهره الجميل ، بفن أداته الكلمة ؟

وعلى قدر إعجابنا بهذه الصورة البلاغية الجميلة ، تقبل من القديم ما كان طموحا إليها ،

أو شعورا بشيء من حسنها ، وترفض ما كان بعيدا عن جمالها ، وإغراقا فى جفاف وتشويه يبعد عنها .

وسيزيدنا قدرة على القبول والرفض ، لما نراه من هذا القديم ، ما نستنير به بعدُ من اتجاه فى تحديد أفق البحث البلاغى ودائرته ، ومنهج البحث البلاغى وطريقته ، وهدف البحث البلاغى وغايته .

وهو ما نمضى إلى النظر فيه ، بعد الذى مضى من قولنا فى صورة البلاغة .

الكتاب الثانى

دائرة بحث البلاغة

١ — دائرة بحث القدماء .

٢ — دائرة بحث المحدثين .

قد عرفتم قبل الآن تلك المصادر التى سنأخذ عنها، ونعتمد عليها فى هذه الأبحاث، وأنها ما استقر عليه أمرهم أخيرا ، وقد اعتمدنا فى هذا — ولو مؤقتا — شروح التلخيص على المتن المعروف بهذا الاسم .

وهم فى هذا الكتاب وما ماثله من كتبهم ، قد ضبطوا أبحاث البلاغة بأنها : مقدمة وثلاثة فنون ، و بيانهم لهذا الضبط والانحصار قد أورد عند الكلام عن تنظيم السعد لشرحه المختصر ، أو بالأحرى عند تنظيم القزوينى مختصره للمفتاح ، وعللوا هذا الانحصار ، بأن المذكور إما من قبيل المقاصد فى هذا الفن أولا ؛ الثانى ، أى ما ليس من المقاصد فى البلاغة هو المقدمة ، والأول ، أى ما هو من المقاصد فى البلاغة ، إن كان الغرض منه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، فهو الأول ، أى المعانى ، و إن لم يكن الغرض منه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، فإن كان الغرض منه الاحتراز عن التعقيد المعنوى، فهو إذن الفن الثانى ، أى البيان ، و إلا فهو الثالث ، أى البديع ، وهو عندهم من توابع البلاغة ، و به تعرف وجوه التحسين[1] .

ثم ما لبثوا أن سلكوا مثل هذا السبيل فى ضبط مباحث كل فرع من هذه الفروع الثلاثة ، بل فى ضبط المقدمة نفسها ، فقالوا : إن هذه المقدمة مقدمة علم ، تشمل ما يتوقف عليه الشروع فيه ، وهو هنا معنى الفصاحة والبلاغة . وانحصار علم البلاغة فى علمى البيان والمعانى ، وما يلائم ذلك ، ولا يخفى وجه ارتباط المقاصد بذلك[2] .

* * *

---

(١) شروح التلخيص ١ : ٦٦ ، ١٥٠ .
(٢) الشروح ١ : ٦٩ ، ٧٠ .

وعرفوا علم المعانى بما عهدتم من أنه : علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال . ثم حصروا بنظرتهم العقلية المقصود من هذا العلم فى ثمانية أبواب ، هى :

١ — أحوال الإسناد الخبرى .	٢ — أحوال المسند إليه .
٣ — أحوال المسند .	٤ — أحوال متعلقات الفعل .
٥ — القصر .	٦ — الإنشاء .
٧ — الفصل والوصل .	٨ — الإيجاز والإطناب والمساواة .

و بينوا وجه انضباطه عقلا بهذه الأبواب دون غيرها ، بأن الكلام إما خبر أو إنشاء لامحالة ... والخبر لا بد له من مسند إليه ، ومسند ، و إسناد ؛ والمسند قد يكون له متعلّقات إذا كان فعلا أوفى معناه ؛ وكل من الإسناد والتعلق إما بقصر أو بغير قصر ؛ وكل جملة قُرنت بأخرى إما معطوفة عليها أو غير معطوفة ... والكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة ، أو غير زائد ...

هذا هو الوجه العقلى لانحصار علم المعانى فى هذه الأبواب الثمانية ، و إن كانوا هم يوهّنون قوة هذا الوجه ، إذ يلحظون : أن ماذكر من القصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز ومقابلَيه ، إنما هو من أحوال الجملة ، والمسند إليه ، أو المسند ؛ مثل التأكيد والتقديم والتأخير وغير ذلك ، ولا يردُّون على هذا التوهين بأكثر من أن هذه الأبواب ، من القصر والفصل والإيجاز الخ ، إنما أفردت بأبواب خاصة لكثرة تشعبها ، وصعوبة أمرها بكثرة مباحثها ، بخلاف غيرها من الأحوال كالتعريف والتنكير ... الخ الأحوال التى تفْرد بأبواب [1] .

وفى كلٍّ فقد انحصر العلم أخيرا فى هذه الأبواب الثمانية ، سواء أكان الملحظ فى هذا الحصر قويا ملزما ، أم كان ضعيفا اعتباريا .

* * *

وعرفوا علم البيان بما تعهدونه من أنه : علم يعرف به إيراد المعنى الواحد — المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال — بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه .

---

١ فى والشروح ١ : ١٧٢ ، ١٧٣

ثم حصروا أبحاث هذا العلم فى أبواب ثلاثة معينة كذلك، هى التشبيه ، والمجاز ، والكناية... ووصلوا إلى هذا الحصر من ملحظ عقلى، أخذوه من مسألة قدموها بين يدى البحث فى علم البيان ، وهى مسألة الدلالات ، التى تطرقوا إليها من ورود الدلالة فى تعريف العلم ، عند قولهم « ... طرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه » ..

فوصلوا إلى هذا الحصر بقولهم : إن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ـ كما فى تعريف البيان ـ إنما يتأتى بدلالتى التضمن والالتزام ، لا بدلالة المطابقة ، ولفظ كل من دلالتى التضمن والالتزام ، إن قامت القرينة على عدم إرادة ما وضع له منه ، فالمجاز ؛ وإن لم تقم القرينة على إرادة ما وضع له منه ، فالكناية ... وإلى هنا خرجوا ببحثى المجاز والكناية ... ثم لاحظوا أن من المجاز ما يبنى على التشبيه وهو الاستعارة ، ثم لما كان فى التشبيه مباحث كثيرة ، وفوائد جمة ، لم يجعل مقدمة لبحث الاستعارة ، بل جعل مقصدا برأسه (١) .

وهكذا وصلوا إلى هذا الحصر من فكرة لا تخلو من النقد عندهم ؛ إذ يقول قائلهم: إن الاستعارة بالكناية على مذهب المصنف — وهو أنها تشبيه مضمر فى النفس — ليست من التشبيه المصطلح عليه ، فلا تدخل فى المراد بالتشبيه هنا، وليست مجازا ولا كناية. وقول صاحب هذا الرأى — أى المصنف — فى الاستعارة : إن المراد من التشبيه فيها ليس التشبيه المصطلح عليه ، يردّ على من يحاول إدخالها فى التشبيه، وإن أفردت عنه، للاختلاف فى حقيقتها ، واشتمالها على لطائف ودقائق .

وبقى مسلكهم فى هذا الحصر يقضى بأن التشبيه إنما جعل بابا من أبواب الفن ، تشبيها له بالمقصد ، من حيث كثرة الأبحاث ، وإن كان هو مقدمة فى المعنى ، على رغم أهميته القوية فى الصناعة الأدبية .

وبهذا كملت البلاغة ، وبقى البديع تابعا لها ، يُعنى بوجوه أخر ، تورث الكلام حسنا وقبولا ، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة عليه .

---

(١) شروح التلخيص ٣ : ٢٩٠

وكذلك تقرر هذا فيما رأيتم من الصورة التركيبية لعلوم العربية ، برغم أن منهم هم من يقول فى نقد هذا الوضع ما نصه :

« والحق الذى لا ينازع فيه منصف ، أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ، ولا وضوح الدلالة ؛ وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ، قد يوجد دون الآخرين ؛ وأدل برهان على ذلك أنك لا تجدهم فى شىء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شىء منها على التطبيق، ولاتجدهم فى شىء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد ، بل تجد كثيرا منهـا خاليا عن التشبيه والاستعارة والـكناية ، التى هى طرق علم البيان ؛ هذا هو الإنصاف، وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين » اهـ . بلفظه من عروس الأفراح للسبكى (١) . وهذا كلام نورده هنا تمهيدا للاحتفاظ بحرية التصرف ، حينما ننظر فى دائرة البحث عندهم ، وكيف حددوها وخططوا جوانبها .

* * *

وقد حصروا — كعادتهم — باعتبار ما ، أبحاث البديع ، فجعلوا وجوه تحسين الكلام ضربين : معنوى راجع إلى تحسين المعنى أولا وبالذات ؛ وإن كان قد يفيد بعضها تحسين اللفظ أيضا ، كما فى المشاكلة التى هى ذكر شىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته ، فإن الغرض فيها معنوى ، وإن صحبه حسن اللفظ لما فيه من إيهام المجانسة . والضرب الثانى لفظى راجع إلى تحسين اللفظ أولا وبالذات ، وإن كان قد يفيد تحسين المعنى أيضا ، لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعا ؛ وإن شئت قلت كذلك فى التحسين المعنوى أيضا : إنه يتبعه تحسين اللفظ دائما ، لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن ، تبعه حسن اللفظ الدال عليه . (٢)

* * *

هذه هى دائرة البحث عندهم ، مع إشارات إلى ملاحظات الأقدمين أنفسهم عليها

(١) شروح ٤ : ٢٨٤ (٢) المغربى شروح ٤ : ٢٨٥

ولو نظرنا نظرة شاملة إلى هذه الدائرة وتحديدها ، وربطهم بين أجزائها ، مستعينين فى ذلك بالصورتين الإفرادية والتركيبية ، اللتين رسمناهما قبل الآن ، فى عرض صورة المادة ، لوجدنا ما يأتى :

(ا) *أن دائرة بحث هذه البلاغة مقصورة على الجملة* ، كما سمعنا هذا ورأيناه فيما مضى من صورتها ، ومن قولهم فى ضبط موضوعات البحث وتحديده ، سواء فى ذلك علم المعانى وعلم البيان ؛ فالأول يبحث فى أجزاء الجملة ، أو فى جملة ترتبط بأخرى؛ وأبواب البيان الثلاثة — التشبيه ، والمجاز ، والكناية — لا تجاوز ذلك فى حقيقة الأمر ، وإن جاوزته فإلى مكملات الجملة ، أو إلى جمل تؤدى معنى واحدا وتجتمع فى جملة ، كالذى ترى فى آية تمثيل الحياة الدنيا — يونس ٢٣ — فإنها تشبيه تمثيل شمل عشر جمل ، ولكنها جميعا تكمل معنى يجتمع فى جملة واحدة .

(ب) *أن دائرة بحث هذه البلاغة محدودة بالألفاظ* ؛ فعلم المعانى : يعرف به أحوال اللفظ العربى ، من حيث كذا ... والبيان : علم يعرف به إيراد المعنى بطرق تعبير مختلفة... الخ ، والبديع : تحسين تابع لهما ، إن يكن فيه شىء معنوى ، فيما سموه ، فإنه بعد ثانويته — على وضعهم — ليس إلا ملحقا جزئيا يسير الأهمية .

وأما العنصر الثانى من عناصر الأدب وفن الكلمة ، وهو المعانى — مهما يكن الرأى فى أمر الألفاظ والمعانى — فإن البلاغيين لا يعرضون له بالبحث الخاص ، ولا تسمع لهم قولا مفردا فى شأن من شؤونه .

تلك ملاحظة عامة ، على تحديدهم للبحث البلاغى ، وتخطيطهم إياه ، نؤخر القول المستوفى عن تقديرها ، إلى مابعد عرض حدود البحث البلاغى ، وتنظيمها عند غيرهم، لتتكون لكم الفكرة الواضحة عما يمكن أن تتسع إليه هذه الدائرة .

***

وسنرى أولئك الباحثين الآخرين فى البلاغة ، لايتكلفون فى تنظيمها الضابط النظرى الذى يرد الأبحاث إلى كيت وكيت ، ويحصرها فى شىء بعينه لا تعدوه ؛ وإنما يردون

ذلك إلى حاجة العمل الأدبى ، وطبيعة الفن القولى ، ويلمون بكل ما يحتاج إليه من بحث ونظر ؛ فترون :

دائرة البحث المحدث

وهى دائرة تحددها عندهم طبيعة العمل الأدبى ، والأدوار التى يمر بها ذلك العمل ، وأى المراحل التى يشعر قارىء القول الفنى أن مبدعه قد قطعها ، حتى انتهى إلى إخراج ذلك الأثر ، وتقديمه لقارئه ؛ فلو تمثلت نفسك ذلك القارئ المتأمل لبعض هذه الآثار المنظومة أو المنثورة ، وفكرت ما ذا صنع صاحبها ، حتى استوى له هذا النتاج الأدبى ، لأدركت فى يسر أنه حينما اتجه إلى صنعه ، قد التفت إلى جملة من الأفكار والآراء والمعانى، أوجدها بعد أن لم تكن ، إن كانت من بنات أفكاره ، أو جمعها واتجه إليها إن كانت مما قال الناس قبله ، ورأى هذه وتلك هى المادة الصالحة لموضوعه ، الكافية فيه ، وهو عمل يمكنك أن تسميه : الخَلْق أو الإيجاد أو الجمع ، على أيسر أحواله .

ثم إنك لتدرك فى يسر أيضا أن المتفنن بعد هذا الإيجاد لمعانيه ، قد مضى يختار لترتيبها نظاما يراه خير وضع تؤدَّى به ، فيبدأ بهذه ، ويثنى بتلك ، ويختم بكذا ، ويوسط كيت وكيت ، لتبدو لسامعها جلية مفهومة مؤثرة ، يسهل الانتهاء من هواديها لأواخرها ، والاطمئنان من مقدماتها لنتائجها ، فى غير لبس ولا اختلاط ولا اضطراب ، حسبما يقدر هو لها ... وهو عمل يمكنك أن تسميه : الترتيب ، أو التنظيم ، أو التنسيق .

ثم إذا ما فرغ من هذين العملين — الإيجاد، والترتيب — كان قد تهيأ لما يليهما من الإخراج ، فراح يصوغ معانيه المرتبة فى جمل وفقر ، وقد تخير ألفاظها المؤدية لما فى نفسه من المعانى ، وركبها التركيب المؤدى لما فى نفسه من ترتيب ، مؤثرا لذلك الإسهاب حينا ، والإيجاز حينا ، والعبارة الحالِيَة المنمقة ، أو الغانية الساذجة ، وما إلى ذلك من نعوت العبارات ، وشِيات الأساليب .

وتلك هى المراحل الثلاث : **الإيجاد** ، **والترتيب** ، **والتعبير** ، التى يدور الدرس المحدث

فى فن القول عليها ، وتتحدد بها دائرة بحثه ؛ وهى مايدرك كل قارئ متأمل ، أن كل متفنن قد مرّ بها لا محالة ، حتى أنجز عمله الأدبى .

نعم ، قد مر كل متفنن بتلك الأدوار ، سواء فى ذلك المُرَوِّى صاحب الحوليات ، يعطى كل جانب من هاتيك الجوانب حظه من العناية ، فيتريث حتى يوجد من الأفكار والإحساسات والأخيلة ، كل ما يتصل بموضوعه و يلائمه ، ثم يتأنى فى ترتيب ذلك ، وتأليف صورته ، واضعا كل خط و إشارة منها فى مكانه ؛ فإذا ما عبر عن ذلك كله ، محا وأثبت ، وتخير وتنوّق ؛ فمر بتلك الأدوار متميز الخُطا متمهلا . وقد يمر بها آخر على غير هذه الصفات كلها ، فهو عجل متسرع ، يكتب أول ما يتبادر له من الخواطر والمعانى ، و يخرج ما يلوح له من الصور ، فى غير دقة ولا تمييز ، و يعبر بما يسبق إلى قلمه أو لسانه ، فى غير تذوق ولا تخير، فيمر بتلك الأدوار معجلا مرتبكا ، متداخل الخطا ، قاصر النظرة ، سطحى الفن .

ولقد يشبه لك أمر الفن الملهم ، يعطى فنه مسحّرا ، تسبق عباراته خواطره ، وتزاحم خواطره على لسانه ، وتحمل عباراته من معانيه ما لعله لا ينتبه إليه انتباه قارئه أو ناقده ، فتحسبه لم يمر بشئ من تلك الخطا ، ولم يجز تلك الأدوار ، لكنه فى الحق قد مر بها حين كتب أو قبل ذلك ، منتبها أوغير منتبه ، فلا نُدْحة له عن نظرة فى معانيه ، قد يقرأ فيها آفاق السماء ، و يتلقى عن وحى الجمال ، و يستلهم روائع الطبيعة ، فى غير قصد عامد إلى شىء من ذلك، إلا أنه كان ولا شك ... وهو لابد مرتِّب معانيه ، متمثّل لها صورة قد تنبثق فى نفسه انبثاقا ، وتلوح له فى عالم الأضواء والأنوار لياحا ، دون ترتيب لذلك وتدبير له ، إلا أنه كان بلا شك ... وحينما يقصد إلى التعبير ، قد تذوّق ألفاظه وتخير كله ، وآثر تركيبا على تركيب، وفضل لونا من التعبير على لون ، و إن لم يختر ذلك فى شىء من أناة المتريث المتدبر ، إلا أنه كان فى غير شك ، وتم فى لقانة ولباقة ، تقتنص الشارد ، وترى البعيد قريبا ، وتشير إلى النتيجة وكأن لا حاجة بها إلى المقدمة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكذلك تطمئن إلى أن تلك الأدوار الثلاثة هى خطوات العمل الفنى ، سواء أمر بها المتفنن متعجلا مقصرا ، أم متأنيا متريثا ... ملهما مستوحيا ، أم متدبرا مفكرا ، فهؤلاء

المحدثون محقون فى إدارة البحث فى الفن القولى على تلك الأقسام التى رأيت ، وتبو يبه عليها فى ضبط صحيح ، ونظر حكيم .

* * *

ثم هم ينظرون فى تفاصيل تلك الخطوات وما تقوم به ، فيدركون فى ذلك جوانب دقيقة، بعضها مما لم نعرض له ذلك العرض الفاحص للعمل الفنى، وهى حركات نفسية وعقلية وعملية ، يحسن أن نقف عندها ، جلاء لتلك النواحى الجليلة الخطر فى العمل الأدبى .

فهم يرون أن الإيجاد وهو ظَفَر بأفكار و إحساسات وأخيلة ، يقوم على أشياء ، منها : الإرادة ، والملاحظة ، والقراءة ، والتأمل ، والإخلاص ... الخ . ولنقف عند كل واحد من تلك الأشياء وقفة قصيرة.

الإرادة :

فنى العمل الأدبى ، لا بد قبل كل شىء من الإرادة ؛ لأنها شرط أول لكل عمل ، والعمل الفنى فى حقيقته ، نفسى داخلى ، يقوم على الوجدان المُوَاتِى ، و يتولى الترجمة عما تجده النفس ، ومثل هذا لا يتحقق منه شىء إذا لم يقم على إرادة صادقة دافعة قوية ، وليس كغيره من الماديات الآلية ، التى قد تتم دون دافع كاف ، و إرادة واضحة ؛ ومتى أعوز المتفنن هذا التهيؤ النفسى الذى هو الإرادة، فقد أعوزه كل شىء فى الفن ، وجاءك بهذه الهنات التافهة الفاترة ، التى يغص بها الأدب العربى فى غير عصر من تلك العصور ، التى كان نظام الحكم وواقع الحياة فيها يلغى إرادة أصحاب الفن، و يصيرهم آلات مكملة لسيطرة حاكم مستبد ، وسطوة ظالم مسخر ؛ يقولون وهم لا يريدون أن يقولوا ، ويقررون وهم يكذبون أنفسهم من قرارة أرواحهم ، و إلا يكن ذلك كله ، فبحسبهم جناية على فنهم أنهم لا يعتقدون ما يقولون ، ولا يجدون ما عنه يترجمون ... وأنت واثق أن العمل إنما ينجح ويتم بقدر ما يتم له من الإرادة الدافعة ، فإن لم تكن تلك الإرادة موفورة، فليس إلا الاضطراب والتخاذل والجهد الذى لا يجدى ولا يفيد ؛ وذلك هو ما دخل على الفن فى مثل هاتيك العصور بالخسار

والبوار ، فلم يتح له شيء من البقاء ، ولم تظفر منه العربية إلا بما يفر منه أبناؤها اليوم إلى فن غيرها من اللغات ، وفاء بحاجتهم النفسية ، وطلباتهم الوجدانية .

ومهما يكن الرأى الفلسفى فى حرية الإرادة وجبريتها ، فإن الفن لا يكون فنا جديرا بهذا الاسم إلا إذا انبعث عن إرادة طليقة، تعبر عما تجدالنفس من وقع الأشياء حسنا وقبحا، و بقدر ما تفقد الإرادة من تلك الطلاقة ، يفقد الفن من قيمته .

ومن هنا يجب أن تقدروا ، وأنتم مدبرو مزاج الأمة الفنى ، أن التكوين الأدبى لبنيها لا يتيسر لكم بنجاح ، إلا إذا بعثتم إرادة تلاميذكم إلى الأهداف الأدبية التى تغرونهم بها ، فكانت لهم الرغبة الصادقة فى إيجاد ما تريدون منهم إيجاده من عمل أدبى ، و إلا فلن يقرءوا قراءة مجدية ، ولن يتمثلوا ما يقرءون تمثلا مفيدا ، ولن ينتفعوا بما ينتهى إليهم من ذلك انتفاعا صالحا ، ولن يكونوا بعد ذلك الأشخاص الذين يحسنون استعمال اللغة أداة من أدوات التعبير الفنى ، ومصدرا من مصادر القوة والمتعة فى الحياة .

الملاحظة :

إذا وُجدت الإرادة ، وصح العزم على أن تكون متفننا ــ والفن ليس إلا التعبير عن الإحساس بالحسن أو القبح ــ فقد حق عليك أن تكون يقظا كل اليقظة لوقع الأشياء على وجدانك ، لتكسب بذلك مادة الفن ، فتكون ملاحظتك لما حولك من أشخاص وأشياء وأحداث و، و..هى الطريق الواضحة ، والسبيل الميسرة لاكتساب المعانى الأدبية ، كما أنها الطريق الوحيد لاكتساب المعرفة كلها ، و إنما يعنينا هنا كسب المعارف الفنية ، والمعانى الأدبية ، أى معرفة وقع الأشياء على النفس ، بالتنبه اليقظ ، والملاحظة الفطنة لهذه الأشياء، و إدراك حقائقها إدراكا صحيحا محدودا منضبطا ، تستطيع به القول عنها ، عند ما توجد مناسبة هذا القول فى عملك الفنى ، من وصف أو خبر، أو تذوق أوحكم ، أو ما إلى ذلك من الفن القولى ... وما أصدق الذين يقولون : إننا نقوم كل حين بما هو طريق لكسب

المعرفة بالأشياء ، ولا ينقصنا إلا الاستفادة المنتبهة لذلك ... نعم فإن حواسنا لا تستريح أبدا ، بل تلقاها دائمـا أضواء ، وألوان ، وروائح ، وطعوم ، وأصوات ، وحركات تملأ يقظتنا ، وتتراءى فى نومنا ، لـكننا لا ندرك فى وضوح إلا قليلا منها ، ولا نذكر إلا أقواها وألذها ؛ وأقل من القليل منها ما يبدو واضحا فى أذهاننا ، وما نتذكره عند الحاجة إليه ، حينما يصبح موضوعَ عملنا الأدبى ومادته .

فلو كنا حين نقيم على شاطىء البحر ، أو نرتاض فى الريف ، أو نتنزه على شاطىء النهر ، أو فى الحدائق والمنازه ، أو نسير فى الصحراء ، أو نصعد فى جبل ، أو ما ماثل ذلك من مواقف نستجلى فيها جمال الطبيعة وجلالها، لو كنا نلاحظ مفاتن الطبيعة إذ ذاك ، وندرك فى وعى ملاحِظ مشاهدها وأوضاعها ، لادخرنا بتلك الملاحظة ، المعانى الأدبية التى هى مادة وصف هذه المشاهد، أو التعبير عن حسنها ، أو الافتتان به ، أو هى ميدان قصصنا ووقائع روايتنا ، دون أن يكون قولنا فى ذلك عند المناسبة ترديدا لـما حفظنا ، وتمثلا زائفا سطحيا لـما رأيناه فى غير ملاحظة ، وشهدناه فى غير دقة . وكذلك الأمر فيما حولنا من أشخاص مختلفين : أقارب ، وزملاء ، وأساتذة ، وعابرى سبيل ، ورفقة سفر وو ... ممـا لاتخلو حياتنا منه أبدا ، فتكون ملاحظتنا له سبيل كسب الحقائق عنه ، ومصدر المعانى الأدبية فيه ، ومعيننا لاقتناء الملاحظات والحقائق والتجارب التى نستطيع الظفر منها بألوان مختلفة باختلاف أسناننا ، وتغير مداركنا ، وذلك كفيل بأن يمدنا بمـا نحتاج إليه ، حينما نتحدث أو نخطب أو نكتب فى أكثر الأحوال . وكذلك تكون الملاحظة والنظرة الدقيقة ، أقرب سبل الإيجاد الأدبى المستقل غير المقلد ، بل المبتكر الخلاق ، إذا أحسنا الانتفاع بما نلحظه .

وإنكم أيها المعلمون ، لتحسنون جد الإحسان إلى الفتية الذين تعدونهم، إذا ماجعلتموهم يكتسبون معانيهم الأدبية ، من النظر فى الـكون ، والملاحظة للوجود ، وتهيئونهم بذلك ليقظة أوسع من الميدان الفنى ، وأشمل لحياتهم كلها فى علمهم وعملهم ، لا فى فنهم فحسب ... فلا تجعلوا مادتهم الأدبية هى وحدها تلك العبارات المرددة ، والمعانى التى تحملها ألفـاظ وصيغ أخذتموهم بحفظها ، فراحوا يتخذونها مادة فنهم القولى ، وهم فى كثير من الأحيان

لا يفقهون معانيها ، ولا يدركون مدلولاتها المحددة ؛ ولا تنكروا عليهم أن يلقوكم فيما يكتبون بملاحظاتهم مما حولهم ، وأمثلتهم من بيئتهم ، فتظنوا عاميتها أو سذاجتها ، بل خذوهم بهذه الملاحظة أخذا ، فإنهم لا يلبثون مع تقدم السن ونمو المدارك، أن يفيدوا بهذه الملاحظة المنتبهة حقائق قيمة، وأن تتكون لهم بذلك، الشخصية الأدبية المتميزة ، بل الشخصية العامة القوية النضال.

القراءة :

إذا كانت الملاحظة تعرفنا ما حولنا من الكون الذى تناله حواسنا ، فإن وراء ذلك من أنحاء الدنيا ما لا تناله تلك الحواس ؛ وإذا كنا بالملاحظة نتعرف عصرنا فى الحياة ، فقبل ذلك عصور وعصور حوت من الحقائق ما نحتاج إلى معرفته ؛ وإذا ما كانت الملاحظة تقتضينا مقدرة خاصة على التفهم والتمعن ، فإن لنا قبل إحراز هذه المقدرة أن نستعين بما عرف الآخرون قبلنا وحولنا ... وكذلك تعوض علينا القراءة كل ما لا تنيله إيانا الملاحظة . فالشاب الناشىء قبل الدُّرْبة على الملاحظة، يصل قوته بقوى كبار المتفننين ، ويتلقى عنهم آثار ملاحظتهم الدقيقة ، ومظاهر فهمهم للأحداث والأشخاص والأشياء ؛ والرجل الذى اكتملت قوة ملاحظته لما حوله وفى عصره ، يزيد قوته كمالا بملاحظة الآخرين ، وما دونوه فى آثارهم عن عصورهم الماضية ، أو أقطارهم النائية ؛ فأعمال الأبطال ، وأحداث التاريخ ، وآثار الكتاب ، لا تنال إلا بالقراءة ؛ وكذلك تكون القراءة مصدرا خصبا ، ومعينا فياضا لكسب المعانى الأدبية ، وتقويم ما لديك منها . وتعد القراءة بحق ، من أهم طرق الإيجاد الأدبى ، ومقومة فعالة للطرائق الأخرى من طرق الإيجاد ، تسددها وتزيدها عمقا .

وجلىّ أن القراءة التى تحقق هذه الغاية ، إنما هى القراءة العميقة ، المسايرة للكاتب مسايرة تستشف خواطره وحركات نفسه ، لا تلكم القراءة التى تَعْبُرُ جمله وأسطره ؛ والقول فى القراءة وكيف تكون ، وماذا يُقرأ ، وواجب الموجّه الأدبى فى ذلك، مما يحسن القول الموسع فيه ، لكن ليس هنا مكانه ، فإنما نعرض مناطق بحث المحدثين إجمالا .

التأمل :

إذا كانت الإرادة هي التهيؤ النفسي لكسب المعاني الأدبية ، وعنها تنبعث الملاحظة مظاهر الوجود حولنا ، ثم تمدنا القراءة بما عدا ذلك زمانا ومكانا ، فذلك كله ليس إلا أيسر الإيجاد وأقربه ، ووراء ذلك ما هو أعمق وأقوم من كل أولئك ، إذ به يكتسب العمل الفني قوته ومقدرته على الحياة، بل صلاحيته للخلود ، ذلكم هو التأمل والتمعن ، الذي يمضي إلى ما وراء الظواهر المدركة بالملاحظة ، ويذهب إلى اللُّباب ، وينال الصميم ، ويفسر مظاهر الوجود ، وظواهر الحوادث ، وسمات الأشخاص . . . أجل إن الملاحظة تقدم لنا هذه المظاهر والظواهر، والحِلَى والشِّيات ، وتهيء لنا إدراكها بدقة ، والقراءة تقدم لنا ملاحظات الآخرين وتجاربهم ، لكن علينا وراء ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، أن نسبر تلك الأغوار كلها ، وندرك من كنهها ، ونفهم من دلالتها ، ونتمثل من معانيها ، ونقدر قيمها ، بثاقب نظرنا الفني ، وتأملنا الوجداني ، لنصل من ذلك إلى معاني الحسن ، وملامح الجمال ، وأسرار الفتنة ، وقوة الوقع ، التي تجعل معانينا الفنية ، ليست ذلك الوصف السطحي التافه ، والإلمام الشكلي الخارجي المادي ، بل تجعلنا نتحدث من الأشياء والأحداث والأشخاص ، عن دلالاتها وأسرارها وأرواحها ، فنكون قد أدركنا إيحاءها ، وتلقينا وحيها ، ووجدنا وقعها . وسبيل ذلك كله التأمل الفني ، والتمعن الوجداني . وهكذا تكون الملاحظة إدراكا خارجيا ، والتأمل استبطانا داخليا ، واستشفافا روحيا . . . وما أكثر الذين يقُصُّون أو يَصِفون ، أو يشبهون ، أو يتخيلون ، فلا يَعْدُون المظاهر المادية ، والأشكال الخارجية ، والحجوم والألوان والمقادير ، ويعطون في ذلك ما يحكي الحديث التعليمي عن «الأشياء» ، ولا يمسون شيئا من تلك الإيحاءات المعنوية ، ولا يفهمون شيئا ما من دلالة الماديات على المعاني ، ولايعون شيئا من وقع الألوان والأوضاع والأقدار ، إلا ما يعيه من يكيل ويزن ، ويبيع ويبتاع ، لامن يستوحي ويستشف ، ويجد ويشعر ، ويتذوق ويتلقى ، ويعي ويفهم ، ويترجم ويعبر ويفسر ، ويلقي النفوس الإنسانية الشفافة بما تجده وتريد التعبير عنه ، فلا يتيسر

لهـا سبيله كما تيسر للموهوب الفن ، القدير على التعبير ... وكذلك بدت قيمة الخطوات السابقة من إرادة وملاحظة وقراءة ، فيما نُعِد أذهاننا له من مقدرة على ذياك التأمل والتروى الفنى ، توصلا إلى المعانى الجليلة الخالدة .

ويدرك هذا التأمل حق الإدراك ، ويقدر قيمته الفنية ، من ألمّ بمعنى الجمال وحقيقته ، وعرف ماذا يدرك فى الجميل ، وماذا يلقى النفوس منه ، وهو مالا نجد سبيل القول فيه هنا ، فندعه لمكانه فى الدرس المتجدد ، الذى نرجو أن ننتهى إلى تخطيطه ووصفه إن شاء الله .

ورياضة النشء على ذاك التأمل المستبطن للحقائق الفنية فى العوالم حولنا ، من أجدى الرياضيات فى إعدادهم ، لكنها كذلك من أشقها فى تكوينهم ، يعوزها الحس المسعف ، والرقة النفسية المشفة ، فى الرائض والمرتاض جميعا . ولو كان فى الفن مالا يستطاع أخذه من القواعد ، لكان هذا أدق ما فيه استعصاء على التعليم بالقواعد ، والضبط بالقوانين ، هيأ الله لكم من الحس الفنى المرهف ، وهيأ لطلابكم من ذلك ، ماتلتقون به فى آفاق الجمال ، باللفتة واللمحة واللحظة والنظرة .

ويذكر المحدثون سوى ذلك أمورا أخرى معينة على الإيجاد ، ومبينة له ، حَسْبنا منها ما وصفناه فى شىء من الإسهاب يدلك على روح بحثهم فى هذه الخُطا .

وقد استبنت مما مضى أن هذه الخطوات الثلاث ، التى قسموا إليها العمل الأدبى ــ الإيجاد والترتيب ، والتعبير ــ ليست خطوات أو أدوارا بالمعنى القريب المتبادر ، أعنى أنها مراحل يقطعها مزاول الفن ، فى وقت معين ، وعلى ترتيب معين ، بل هى فى الحق أقسام جوهرية لجهد المتفنن ، أو ألوان من نشاطه ، يمارسها فى أوقات مختلفة ، وفرص متفاوتة ، وقبل تصدّيه للعمل الأدبى نفسه بوقت قد يكون طويلا أو قصيرا ؛ فهذا الإيجاد مثلا والأعمال المعينة عليه ، ليست إلا ضروبا من الإعداد الفنى ، قد تشغل السنين الطوال ، والأعوام الممتدة ، كما أن من هذا الإيجاد مالابد أن يفرغ له الفنّ عند مايشرع فى صنع قطعة أدبية ؛ ومن كل أولئك تدرك أن بعض الظواهر التى يختلف فيها أصحاب الفن القولى حينما يباشرون عملهم الأدبى ، هى التى تفرق ما بين الملهم المعجّل ، والمتريث المتأنى .

لـكن فرق ما بين المبتدئ المتهيب ، والمتمرس المدرب ، واختلاف هذه الخطوات عندهما شكلا وزمنا ، ومظهرا وقدرا ؛ مما لا يؤثر فى فكرة هذا التقسيم لخطوات العمل الأدبى ، ولا يدل على أنه يجرى على غير هذا الغرار ، ويختلف عن ذلك النظام .

* * *

وهم يذكرون فى الدور الثانى ـ وهو الترتيب ـ مثل تلك الأعمال ، وهاتيك الخطوات التى ذكرنا فى الإيجاد ، فيتحدثون عن الاختيار ، والنظام ، والوضع .. وما إلى ذلك ، وهى خطوات نتولاها بالشرح حين يستقر رأينا على خِطتنا فى الدرس البلاغى ، والمنهج الذى نختاره له ، والموضوعات التى نتصدى لها .

* * *

فإذا كانت الخطوة الثالثة ـ وهى التعبير ـ عرضوا للبحث فى : الفصاحة أو الإبانة ، ثم الصور البيانية ، ثم صنوف الأساليب . وتحت كل واحدة من هذه النواحى الـكبرى أبحاث جزئية نسوق شيئا منها .

ففى الفصاحة والإبانة يتحدثون عن : الوضوح ، والمطابقة ، والتناسق ، والطلاوة ، والآراء والمذاهب الأدبية فى ذلك ... كما يتحدثون عن أحوال الـكلمة من حيث أثرها فى الفن القولى ، وما ينبغى أن يلاحظه الأديب فى تلك الأحوال ؛ فيبحثون فى العامىّ ، والدخيل ، والمهمل ، والملحون ، والمستحدث ، وما إلى ذلك من أعراض حياة الكلمات ، إلى جانب حديثهم عن اللغة واللهجات ، وما أشبه من الحياة الاجتماعية للغات .

وفى الصورة البيانية يلمون بكثير من المصطلحات التى عرفها بياننا ، فى اتجاه فنى أدبى . يلائم ما عرفنا من ميلهم فى هذا البحث ؛ فيذكرون مثلا: المجاز المرسل اللغوى Sineddoche ، والمجاز العقلى الأسـنادى Metonomia ، والاستعارة Metafora ، والـكناية Antonomasia الخ ، ويذكرون من ذلك تفاصيل قد تلتقى مع مانعرفه منها فى أصله ، وإن اختلف التناول ولونُ البحث ، على ما أشرنا ونشير إليه .

وفى أوضاع القول ، وصنوف الأساليب ، يعرضون للبحث فى النثر والشعر وخصائصهما، والفنون المختلفة لكل من النثر والشعر ، كالنثر القصصى ، والخطابى ، والإيضاحى ؛ والشعر الحماسى ، والغنائى ، والتعليمى ، والدرامى ... الخ .

ومن هذا وما ماثله يكون تخطيطهم العام للبلاغة فى إجمال هو :

١ — مقدمات عن فن القول بين الفنون ، وتقسيم درس البلاغة على حسب طبيعة العمل الأدبى .

٢ — بحث خطوات العمل الأدبى من إيجاد وترتيب وتعبير ، حتى تكون الخطوة الأخيرة وهى التعبير ، فيزيدونها اهتماما .

٣ — بحث الكلمة ، وصور البيان ، وفنون القول ، ثم الأساليب ... فإذا البلاغة عندهم بخاصة و بعامة كما قيل : هى درس الأساليب أو هى **علم الأسلوب** Stilistica [1] .

تلك دائرة البحث البلاغى عندهم ، وأمهات مباحثها فى ترتيبهم ، نستطيع بالموازنة بينها و بين ما عند قومنا ، أن نتبين نواحى الفرق ، منها ما نجد فى القديم آثارات أو لمحات تعين عليه ؛ و بعضها ربما لا نجد له أساسا فى القديم ، ولكنا قد نقوى على الأخذ به إذا ما قدرنا حاجة الحياة الأدبية ، وما أسلفنا من قول الأقدمين بعدم نضج بلاغتهم .

* * *

ولعل أول ما نلحظه فى هذا البحث ودائرته ، هو عدم وقوف هذا التخطيط البلاغى عند ما لاحظناه فى تنظيم البلاغة عندنا . فهذا درس :

١ — لا يقف عند الجملة ، بل هو كما رأينا فى وضوح ، يتصل بالعمل الفنى الأدبى كله ، و ينظر فى فنون القول وأوضاعه نثرا وشعرا ، وفى الأساليب المختلفة ، بل يعد البلاغة علم أسلوب .

٢ — ولا يقف عند بحث الألفاظ كما فعل قومنا ؛ فقد سمعنا أنهم يبحثون عن الإيجاد وطرائقه ، والترتيب وخطواته ، كما ينظرون فى الفنون الأدبية نظرة تعنى بالمعانى حين تنظر إلى الألفاظ .

---

١ — يرجع فى هذا إلى مثل كتاب الأسلوب ، الذى سبقت الإشارة إليه ، ومبادىء البلاغة والعروض Elementi di Stilistica & Metrica لمؤلفه Luigi Valmaggi وما إلى ذلك .

وبهذه الملاحظة المجملة ندرك اختلاف حدود البحث عند الأقدمين والمحدثين اختلافا جوهريا ، ننظر بعده فى أمرنا ، وما يمكن أن نفعله على هدى هذا البيان ؛ ثم على هدى ملاحظة أننا إنما نعلم هذه البلاغة لنصل إلى غاية أدبية ؛ على ما سنبينه فى بحثنا عن الغاية من درس البلاغة عند الأقدمين وعند غيرهم .

وهنا نكتفى بما لاحظناه من ضرورة مجاوزة البلاغة بحث الألفاظ إلى بحث المعانى ؛ ومجاوزتها بحث الجملة إلى ما بعدها من العمل الأدبى الكامل . نكتفى بهذا الآن مؤخرين سائر نواحى التغيير إلى ما بعد الكلام فى غاية درس البلاغة ، وأسلوب درسها ، فسنرى أن كل ناحية من هذه النواحى تزيدنا بصرا بما تحتاج إليه بلاغتنا الآن من زيادة عليها ، أو استغناء عن شىء منها .

الكتاب الثالث

منهج درس البلاغة عند القدماء والمحدثين

أ- منهج الأقدمين

١ — فكرة المنهج عندهم .

٢ — البيئات والمنهج .

٣ — مدرستان بلاغيتان .

٤ — خصائصهما .

٥ — صلاتهما .

٦ — صراعهما .

ب- منهج المحدثين

١ — المؤثرات فيه .

٢ — وصفه .

ما من شك فى أن قدماءنا أدركوا فى وضوح ، أن الدراسات تختلف أساليبها وطرائقها ، وأن المعارف تتفاوت وسائل كسبها والوصول إليها ؛ ووضح ذلك فى تقسيمهم العلوم إلى عقلية ونقلية ، ونظرية وعملية ؛ ومنذ عُنوا بالحكمة ، واتصلوا بآثار الأقدمين قبلهم فيها ، قد صنفوا العلوم ورتبوها على أصول وأسس تجتمع عندها قضاياها ومسائلها ، وطرق كسب الحقيقة فيها .

وقد أوردوا من حديث القدماء ما سموه الرءوس الثمانية ، التى يجب على من يشرع فى مقصود أن يتعرض لها ؛ وعدوا من هذه الرءوس الثمانية ، خامسها ، وهو : أن يعرف هـذا المقصود من أى علم هو ؟ أمن اليقينيات أم الظنيات ؛ ومن النظريات أم العمليات ؟ ومن الشرعيات أم من غيرها ؟ لطلب المتعلم ما يليق به من المسائل المطلوبة له ، وهى قضاياه التى يقررها[1] . . .

كما أنهم حين وضعوا نظامهم لتبادل البحث والمناقشة فى الحقائق والمعارف ؛ وهو ما يسمونه « أدب البحث والمناظرة » ، قد فرقوا بين المناظرة فى المعقول ، والمناظرة فى المنقول ، و بينوا ما يوجه فى كل نوع منهما ، مفرقين بين طبيعتيهما فى ذلك .

هذا وما إليه هو الفكرة العامة فيما نسميه منهج البحث ، وأسلوب الدرس ، قد شعروا به شعورا واضحا ، ورتبوا عليه آثارا ظاهرة فى التناول والنقاش وما إلى ذلك ، وإن يكن ما أصاب الدراسة الأدبية التى نحن بصددها منْ هذا ليس بشىء يذكر .

وأما المحدَثون فقد اختلف تناولهم لهذا الأصل ، عن تناول الأقدمين ، بحكم تقدم العقل البشرى ، وتفاوت الزمن ، فأصبح لديهم من الدرس المنطق ما هو منطق المادة ، إلى جانب منطق الصورة ، الذى عُرف منذ القدم ، واشتدت العناية به ؛ وفى منطق المادة هذا يعرف

---

(١) — كشاف التهانوى ١ : ١٥ طبع الآستانة .

الدارس كيف يكتسب حقيقة بعينها ، وما طريقه إليها ، بعد ما عرف الكثير عن الصورة التى يضع فيها حقيقة يعرفها .

ومنطق المادة هذا يُعْنَى تحقيقا لغايته ، بأساليب بحث العلوم ، ومناهج درسها ، فيقسم العلوم إلى أقسام ومجموعات ، يقدر أن لكل مجموعة منها أسلوبا ومنهجا ملائما لطبيعتها : فللعلوم الرياضية أسلوب بحثها ودرسها ، كما أن لها موضوعها الخاص بها ، وبراهينها وأدلتها المناسبة لها . ثم إن العلوم الطبيعية وهى تجريبية ، لها منهجها وأسلوب درسها ، وبرهانها ، كما أن لها موضوعا خاصا ، غير موضوع العلوم الرياضية ؛ والعلوم الأدبية تختلف عن هاتين المجموعتين السابقتين من الرياضيات والطبيعيات ، فلها منهجها الخاص ، ولها أسلوب بحثها المعين ، وطريقها فى قبول الحقيقة أو الفكرة وإقرارها ؛ وهكذا يحث المنطق الحديث عن التجربة وقوانينها واستخدامها ، وعن قوانين الاستنباط العلمى وأصولها واستعمالها ، وعن الفرض والتعليل العلميين ، وكيف يستخدمهما الدارس ، كما يحث هذا المنطق الجديد عن الدليل النقلى ، وقيمته ، وأساس قوله ، وتحدث بهذه المناسبة عن الرواية والشهادة ، بما عسى أن يكون القدماء قد أشبعوه بحثا فى دراستهم لأصول الحديث وعلومه المختلفة ؛ ومن هنا التقى الجهدان ، وإن اختلف ميداناهما ، ووجد هذا فى المنطق ، بعد ما وجد عندهم فى العلوم الشرعية والنقلية .

وبهذه الإلمامة العامة تكونت لنا فكرة واضحة عما نعنيه حينما نتحدث عن منهج درس العلم ، وأسلوب بحث المادة ، وما نريده حينما نقصد إلى هذا فى البلاغة بخاصة .

وأقرب مايقرّب لكم مناهج العلوم واختلافها ، طرق الدراسة التربيبية للمواد المختلفة ، فإن طريقة دراسة المادة تختلف باختلاف طبيعة المادة ، وعمل المتعلم فى تلقيها ، والقوى النفسية التى يعتمد عليها لكسب المعارف فى المواد المختلفة ، فليس الرسم كالرياضة ، ولا العلوم كاللغات ؛ وهكذا .

* * *

وإذا ما حاولنا بعد البيان العام ، أن نقدم فكرة جامعة عن المنهج أو المناهج التى

اتبعت فى دراسة البلاغة العربية وتناول بحثها ، وجب أن نعتمد فى ذلك على مقررات فى تاريخ هذه البلاغة ، كما ينبغى أن تقفوا عندها الوقوف الكافى لتمثلها ، ولكننا هنا لن نجد الوقت لذلك ، فبحسبنا أن نشير إلى هذه المقررات ، وأن نعدها مسلمة مقبولة — ولو مؤقتا — وقد توليتها بالدرس المفرد ، وسأحيل هنا على نتائج هذه الدراسة ، وأشير إلى ما تيسر من مراجعها المطبوعة .

وتاريخ البلاغة يبين لنا أنها كانت كسائر المواد : حاجة فنية من حاج الحياة الاجتماعية ، فى عصور العربية التى لم تكن للقوم فيها حياة علمية دارسة ، فكان يفى بتلك الحاجة تناول فعلى ، تحتكم فيه طبيعة الحياة ، فتلزم بأساليب معينة فى تعلمه ؛ فحاجة الأمة إلى القول الجيد ، نثرا أو شعرا ، كانت تخلق فيها الخطباء والشعراء ، وكان الخالف فيهم يأخذ عن سالفه بالملازمة والتلقى ، والمحاكاة والممارسة ، كالذى سمعتم من خبر الرواة والشعراء ، وأن راوية الشاعر كان يكون تلميذه ، المتخرج على يده والآخذ عنه — هذه المدرسة الطبيعية ـ وإن لم تتخذ النُّظُم التعليمية ـ قد سلكت منهجا وأسلوبا ، يمكن الحكم عليه عند أصحاب التربية بأنه أسلوب ناجح ، ملائم لطبيعة الصنعة الأدبية ، التى تقوم على الممارسة والمزاولة ، أكثر مما تقوم على غيرهما من النظر الباحث ، والدرس التجريدى ، وتعتمد على الفطرة والموهبة قبل اعتمادها على أى شىء آخر ، وفى هذه الملازمة والمحاكاة فُرَص كافية لصقل الموهبة والكشف عنها ، وإفساح السبيل أمامها للظهور والتفوق ؛ على أنا لا نشير إلى هذه الطريقة ، ولا نتجوز بتسميتها منهج درس وأسلوب بحث ، إلا تمهيدا لما سنتحدث عنه فى العصور التعليمية ، التى احتاجت الحياة فيها لاصطناع هذه المدارسة بنظمها المقررة ، وأوضاعها المدرسية ؛ لنرى ماذا كان منهج القوم فى التعليم والتدريس ، وماذا كان أسلوبهم فى التدوين والتأليف ؛ وهذا هو الذى نريد لنقرنه بغيره ، ونحكم عليه بالخير والملاءمة ، أو بغير ذلك ، لنستفيد بهذه النظرات فى عملكم الحاضر ، الذى تزاولونه مدرسيا تعليميا محضا .

* * *

ثم ظهرت هذه الدراسات الاصطلاحية ، فيما يقول القدماء أنفسهم، بعد القرون الثلاثة الأولى ، كما يخبر بذلك (ابن تيمية) فى فصل من كتاب له اسمه (الإيمان) ، عرض فيه لمسألة أن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز ، اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى — ص ٣٤ ط السعادة — كما قال فى خلال ص ٣٥ : « ... فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر فى المائة الرابعة ، وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجودا فى المائة الثانية إلا أن يكون فى أواخرها». ونحن وإن كنا لانميل إلى التحديد الزمنى الضيق لوجود هذه الظواهر الاجتماعية ، من حياة الفنون أو العلوم ، فإنا لانتحرّج من هذا التقدير المتوسع فيه ، ونقول : حوالى أواخر القرن الثانى وفى القرن الثالث، ظهرت تلك الاصطلاحات ، فكان هذا مظهر الوجود الواضح للدراسة البلاغية التعليمية ، ونريد من الإشارة إلى هذه القرون ، أن نلاحظ الحال الاجتماعية للشعب العربى ، صاحب هذه البلاغة التى جعلت تدرس .

ونحن نعرف أن هذا الشعب قد عاجلته شُعُوبية قوية ، وأحداث سياسية ، وحركات اجتماعية ، وما إلى ذلك من عوامل عجلت القضاء على كيانه العنصرى ، حتى لنعدُّ أواخر القرن الثانى الهجرى تقريبا ، النهاية للوجود العنصرى للشعب العربى ، إذ قُضِىَ عليه بمصرع الأمين ، وحكم المأمون ؛ وهذه الآخرة كانت قد تقدمتها عوامل مُوهِنة غير قليلة ، جعلت تعمل عملها حتى حققت تلك الخاتمة .

وأما من ناحية الوجود اللغوى للشعب العربى ، الذى ندرس بلاغة لغته ، فإنا نستطيع أن نقول إنه قبل ذلك المصرع العنصرى للشعب قد كان المصرع اللغوى ، أى منذ حدد المحتجون عصر من يُحتجّ بقولهم ، أعنى نصف القرن الثانى الهجرى على الأرجح ؛ وإن كانت العامية قد جعلت تظهر ثم تفشو قبل ذلك العهد ، وجعلت العربية تتخذ فى الحياة غير الصدر مكانا ، فلا تكون لغة الحياة العاملة ، إذ تزاحمها تلك العاميات التى جعلت تتميز فى المواطن المختلفة ، آخذة بحظ من العربية ، يتفاوت بتفاوت منازل الأمم وعناصرها وماضيها ؛ فاللغة العربية فيما بعد القرون الثلاثة الأولى الهجرية ، التى يشير إليها مؤرخو البلاغة — على ما أسلفنا — لم تعد لغة حية حياة كاملة ، كتلك التى كانت تظهر بها فى العهد الجاهلى مثلا ، أو أوائل ظهور الإسلام .

وبقيت العربية لغة العلم والتعليم ، واللغة الرسمية للحكومة ، وإن لم تكن اللغة الفعلية للحكام فيها ، على نحو ما نشهد اليوم من حالنا ، لكن بنسبة متفاوتة ولا شك ، إلا أنا نطمئن فى جملة الأمر إلى مشابهتها لحالنا الحاضرة مشابهة عامة .

وتعرفون أن نصيب اللغة من الحياة يرتبط به فى غير شك ، منهج تعليمها ، وخطة تلقينها ، كما سمعتم ذلك فى دروس التربية ، من أجل ذلك أشرنا إلى حال الشعب العربى جنسيا ولغويا ، فيما بعد القرون الثلاثة الأولى ، وحين ظهرت هذه الدراسة البلاغية ظهورا واضحا ، أشرنا إلى ذلك كله لما له من أثر عملى فى تعليم العربية وتعلمها ، هو ماسنفهم على ضوئه كيف سار ذلك التعليم والتعلم ؟ وكيف اتخذت المناهج لذلك ؟

بينما كانت العربية فى هذه الحالة الاجتماعية ، جعلت الدراسة البلاغية تظهر ، وتنال العناية ، ويلاحظ مؤرخو البلاغة [1] أن هذه البلاغة كانت تتعاون على خلقها بيئات متعددة ، ومناشئ مختلفة ، فكانت فى وادى الحياة العربية والأدب العربى ، نُهَيرات تنبع من مناطق متعددة ، وتلتقى تلك النهيرات جميعا فى نقطة واحدة ، هى معرفة إدراك الجيد من الكلام ، وكيف يكون التفريق بين كلام جيد وآخر ردىء ، أو الاقتدار على صنع كلام جيد .

ولكل بيئة من هذه البيئات المعنوية المختلفة طابعها العقلى ، وأساوب درسها ، وتقاليدها فى ذلك ، كما نقدر هذا إجمالا ... فكانت النهيرات التى تنبع فى كل مِنْطقة من هذه المناطق تحمل معها بلامراء آثار واديها ، ومظاهر طبيعته ، فبنظرة إلى تلك المنابع وخصائصها ، مع ملاحظة الحال الاجتماعية الحيوية للغة العربية ، ندرك فى جلاء ووضوح كيف كانت أساليب درسها ، ومناهج تناولها ، وكيف اتفقت كلها على أساس واحد ، وأصل واحد ، أو اختلفت فى ذلك كله ، ولماذا ؟

* * *

فإذا ما كانت الحال الاجتماعية للغة على ماوصفنا من العزلة عن الحياة عزلة تامة أو ناقصة ،

(١) دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية مجلد ٤ ص ٦٦ — ٦٨

فإن ذلك –كما تعرفون– يكون له أثره فى نظر المتحدثين عن التربية وطرق التعليم ، إذ هم منذ بعيد يقولون : « إن قواعد اللغة بطبعها مؤسسة على الكلام الصحيح بها ، وليس الكلام الصحيح هو المؤسس على القواعد ، وإن الطريق الطبيعى فى تعليم اللغة هو تأسيس هذا التعليم على الكلام ، وإنه حتى تعلم القراءة والكتابة فى لغة أجنبية ، إنما يمكن من أقرب طريق ومع الإتقان ، إذا ما كان البدء بتعلم الكلام والمحادثة بتلك اللغة . . . وما زالوا يقررون : أن تعليم اللغة إنما يكون باستعمالها وممارستها ، ودراستها بالمحادثة ، واللغة الحية إنما تدرس بالمحادثة عن ذوات الأشياء نفسها وعن الأعمال ، مقترنا فيها الكلام بالشىء والعمل ، أى أنها تدرس بالاستعمال ، فاللغة الحية المستعملة يكون عماد درسها الأذن واللسان ، والغرض من تعليمها نفعى وعملى أولا ، ثم تهذيبى علمى ثانيا . وأما اللغة الميتة التى باد أهلها ، فهى التى تعلم من الكتاب لا من الحياة ، وتعلم بواسطة الألفاظ ، واستظهار جداول الكلمات الشاذة ، وقواعد النحو والصرف ، وما إلى ذلك من وسائل تجعل الغرض من تعليم اللغة الميتة غرضا تهذيبيا تعليميا أولا ، أو هو تهذيبى علمى محض ، لا غرض وراءه (١) » .

ومن كل أولئك ندرك أن عزلة العربية عن الحياة فى العصر الذى ظهرت فيه الدراسة التعليمية البلاغية ، جعلتها لغة ميتة أو كالميتة ، فكان من الطبيعى أن تعلم بالطريقة الملائمة لحالها ؛ وهكذا نجد من الصلة بين حال اللغة وطريقة تعليمها ، ما يمكننا من أن نستنتج : أنه حين ظهرت ثم استقرت تلك القواعد فى تعليم البلاغة ، وحينما سادت الطريقة النظرية فى تدريسها ، كانت اللغة العربية تدخل فى عزلة اجتماعية ، تقضى على حيويتها ، كما فهمنا أن هذه الحالة الاجتماعية نفسها توحى تلك الطريقة فى التعليم ، فإحدى الحالتين تدل على الأخرى ، وتقضى بوجودها ، وهما متفاعلتان .

ومن هنا ندرك أن البلاغة العربية ، حينما جعلت درسا تعليميا ، يمارس ويزاول بطرق مدرسية منظمة ، كانت ظروفه تقضى عليه بإيثار منهج تعليمى ، وأسلوب بحث درسى ، له صفة واضحة معينة ، هى الاتجاه إلى الناحية النظرية التعليمية ، التى تعتمد على الضبط

---

(١) أ.م. قنديل : أصول التربية وطرق التدريس ص ١٩٥ وما بعدها ، طبعة أولى . على عمر : هداية للدرس ص ١٩٤ وما بعدها طبعة ثالثة — بتصرف

العقلى ، والقواعد المطردة ، والحدود الضابطة ، وما إلى ذلك مما يحقق الغرض العلمى التهذيبى المحض ، ولا يتحقق معه فى سهولة ، كثير من الغرض الأدبى العلمى ، الذى يراد من تعلم لغة ، ومعرفة أدبها وفنها القولى . أعنى أن الحال الاجتماعية كانت تدفع إلى هذا المنهج ، أو لا أقل من أنها ترجحه ، وتعدى به كل محاولة تعليمية أخرى يراد بها تحقيق غرض عملى أدبى من دراسة البلاغة ، فكان لهذه الظاهرة أثرها فيما سنصفه ، من مناهج الدرس ، التى اختلفت باختلاف البيئات التى ظهر فيها الدرس البلاغى ، على ما أشرنا إليه قريبا .

البيئات المختلفة وما ترجحه من مناهج دراسية

والقول باشتراك بيئات مختلفة الطابع ، متفاوتة المنهج فى دراسة البلاغة ، قول قديم ، شعر به الأولون أنفسهم ، على ما سنرى من أقوالهم ، وقضت به اعتبارات اجتماعية وعلمية ، تبين مكانها فى تاريخ البلاغة العربية المفصل ، فمن هذه البيئات :

١ — المتكلمون أصحاب الصناعة اللاهوتية ، فى بحثهم للقرآن من حيث إعجازه و إيحاؤه ، وفهم العقائد منه ، وما إلى ذلك من مباحثهم ... وهؤلاء هم الذين شعر الأقدمون أنفسهم، أنه من ناحيتهم ظهرت أوليات الاصطلاحات البلاغية ، فيقول :ابن تيمية) فى ص٣٥ من كتابه «الإيمان» الذى سبقت الإشارة إليه قريبا مانصه : « و إنما هذا — أى القول بأن هذا حقيقة وهذا مجاز — اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فإنه لم يوجد هذا فى كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف .. الخ »

والمتكلمون — كما نعرف — مهمتهم جدلية برهانية ، تقوم على الاستدلال ، وتبتغى الإثبات ، وتناظر مخالفين وخصوما ، وقد استعانوا عليها بالأبحاث الفلسفية ، وتسلحوا لها بالمنطق ، وصاغوا عليه مباحثهم ؛ فمثل هؤلاء إن عرضوا لشىء من القول فى الفن الأدبى ، كان تعرضهم له على أساس درسهم ، ومنهج تناولهم المنطقى الاستدلالى ، النظرى الجدلى ، العقلى التحديدى ؛ وهذا المنهج فى تناول البلاغة هو الذى كانت حال اللغة العربية من

الناحية البلاغية تتطلبه ، و يجرى تعلمها عليه ، كما هو الشأن فى تعليم لغة ليست لغة الحياة العاملة . . . وكذلك ندرك أن هذه البيئة الكلامية ترجّح جانب المنهج النظرى العقلى ، وتتناول بحث البلاغة تناولا منطقيا عقليا استدلاليا ، بعيدا عن روح العمل الفنى .

٢— الأصوليون أصحاب الصناعة القانونية فى فهمهم للشرع الإسلامى من القرآن ، واستخراج أصول التشريع من عباراته . وحاجتهم فى ذلك إلى القواعد المسعفة على هذا الفهم والاستخراج ، حاجة قوية .

وتعرفون أن هؤلاء يقدمون بين يدى عملهم فى أصول الفقه ، مقدمة واسعة الرحاب ، يسمونها المبادئ اللغوية ، يلمون فيها بأبحاث لغوية ، صرفية ، اشتقاقية ، نحوية ، بيانية ؛ ولا يزال أصحاب كل علم من هذه العلوم يعدون بحث الأصوليين فيه مما ينبغى الاتصال به ، والوقوف عليه ، وفاء بحق الدرس ، وتقديرا لنزعتهم العملية ، فى تناولهم لهذه المسائل .

ونحن من حيث الناحية البلاغية بخاصة، نعرف أن هؤلاء الأصوليين قد عرضوا فى مبادئهم اللغوية ، للبحث فى الحقيقة والمجاز ، والتشبيه والكناية ، وما إلى ذلك من أبحاث علم البيان المعروفة ؛ كما تحدثوا عن أشياء مما يتصل ببحث أجزاء الجملة فى علم المعانى ، ففى حديثهم عن العموم والخصوص ، عرضوا للتنكير والتعريف ، واستغراق المفرد ، واستغراق الجمع ، والحصر ونحوه ، كما تحدثوا عما يمت إلى هذه المباحث اللفظية بصلة قوية : من القول فى الترادف ، والاشتراك ، والتواطؤ ؛ وليس هذا فحسب ، بل إن تعرضهم للمسائل البلاغية من المعانى والبيان ، قد انتهى بهم إلى تناول نواح لم يستوفها أصحاب البلاغة أنفسهم ، من نحو كلامهم فى الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وعموم المجاز ، وأن المجاز أولى من الاشتراك ، وأن للمجاز أمارات يستدل بها عليه ، إلى جانب قولهم فى علاقات المجاز الخ .

وتلك الأبحاث البلاغية فى المدرسة الأصولية ، هى التى جعلت « السكاكىّ » يشير إلى استئثار علم أصول الفقه ، بأبحاث علمى المعانى والبيان ، و يقول : بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أى علم هى ؟ ومن يتولاها ؟

وهؤلاء الأصوليون كما نعرف ، إنما غايتهم من هذا الدرس كله أن يخدموا الجانب العملى من الاجتهاد فى استخراج الأحكام ، واستعمال القياس فى ذلك ، على أساس من التنظيم المنطقى فى هذا الاستنباط ، وذلك القياس ، فهم أدنى إلى الأسلوب العقلى المنطقى ، يلونون به مباحثهم ، ويستمدون منه نظراتهم ؛ ويتضح ذلك جليا فيما توسعوا فيه من أبحاث العلة فى باب القياس . كما أنهم إلى جانب هذا تأثروا بالفلسفة فى نواح كثيرة ، اضطرهم البحث إلى تناولها والتعرض لها ، حين تحدثوا عن الحاكم ومن هو ؟ ونظروا إلى القبح والحسن للأشياء والأفعال ؛ فكان هذا الاتصال بالمعانى والأغراض الفلسفية ، عاملا قويا فى سيطرة المنهج العقلى النظرى ، وتحكم الأسلوب المنطقى فى تفكيرهم ودراستهم ؛ وبهذا كله تأثر تناولهم للبلاغة وأبحاثها ومسائلها ، وكانت بيئتهم بطبيعة عملها ، وما ثار فى جوها ، عاملا مرجحا للمنهج الاستدلالى العقلى فى درس البلاغة ، إلى جانب ما نظل نذكره دائما من الوضع الاجتماعى للغة العربية فى هذه العهود ، وبعدها عن الحياة بعدا يجعل متعلميها ومعلميها ، يأخذون بما لا بد من الأخذ به فى دراسة لغة ليست لغة الحياة ، فيعتمدون على الكتب ، ويصطنعون الأساليب والطرائق التعليمية النظرية ، حينما يعز عليهم تعلم اللغة بالكلام والاستعمال ، والمزاولة والممارسة .

* * *

على أننا حين نذكر هذه الظاهرة الاجتماعية وأثرها ، ونشير إلى بيئات كانت ـ بحكم عالمها العقلى ـ مرجحة للمنهج الاستدلالى المنطقى ، كبيئتى المتكلمين والأصوليين ، حين نذكر هذا وذاك ، لا ننسى أن نشير إلى أن الحياة الإسلامية التى كتاب دينها هو القرآن ، ولغتها الحكومية هى العربية ، ولغتها التعليمية هى العربية ، كان فيها ولا بد نواح أخرى ، تميل أو تحتاج فعلا إلى اصطناع منهج آخر فى دراسة هذه البلاغة حين تدرسها ، فتحاول أن تتخلص ما استطاعت من تلك الطريقة النظرية ، وسواء أتخلصت منها تمام التخلص ، أم تخلصت بعض التخلص ؛ فإنها فى كل حال تستشرف لمنهج آخر غير هذا المنهج ، وتحاول محاولة مختلفة كثيرا أو قليلا عن المحاولات السابقة .

ونذكر من هذه البيئات المخالفة بعملها وغايتها للبيئات الفلسفية والمنطقية ، ما يأتى :

١ — البيئة الأدبية العامة: التى تحتاج إليها حياة أمة آخذة بأسباب الرقى . ونحن نعرف أن النهضة الأدبية ، قد كانت طليعة النهضات العربية ؛ وأنها بدأت فى الجاهلية قبل الدعوة الإسلامية ؛ وكانت النهضة الدينية ، والرسالة الجديدة ، تعتمد على هذه النهضة الأدبية ، أو تتصل بها أوثق اتصال ، فمعجزة هذه الدعوة الإسلامية كانت فنا قوليا ، وصنيعا أدبيا ، هو القرآن ؛ وكذلك استمرت تلك النهضة الأدبية العربية ، وكانت النهضة الدينية أولا ، ثم النهضة الاجتماعية التالية لهذا كله ، من نهضة عسكرية حربية صنعت تلك الإمبراطورية الكبيرة ، فى سرعة ليس لها فى التاريخ نظائر كثيرة ؛ ثم نهضة سياسية خلقت تلك الدولة ، التى حكمت هذه الإمبراطورية المترامية الأرجاء ودبرت أمرها ؛ ثم النهضة العلمية التى ولدتها حاجة هاتيك الجماعة إذ رقى فنها ، ورقى دينها ، واستحصدت قوتها ، وعلت كلمتها ، فبات من ضرورياتها أن تسلك سبيل من قبلها ، وتأخذ بأسباب النهوض ، من المعرفة والحكمة ، وكل أولئك قد تلاه حتما رقى عملى ، وغنى مادى ، ورفاهية عيش ، وتلك أوفى أسباب الرقى الفنى ، وأجمع أسباب تقدم الفنون ؛ وإذا ما تقدمت الفنون جميعا ــ والفن القولى من بينها قد كان أسبقها رقيا ، وأكثرها حظا عند هؤلاء القوم ــ فلا عجب فى أن يرقى ويتقدم ، أو قل بعبارة أدق ، أن يتأنق ويأخذ فى أسباب الاستكمال ومظاهر التفوق ، بأعمال مختلفة ، ومحاولات متعددة ، ولهذا كله قاموا بجهود منوعة منها :

(ا) جمع التراث الأدبى الأول لتلك النهضة ، التى بدأت ــ كما قلنا ــ قبل الإسلام ، وشعر القوم أنها بدأت منذ ذلك الحين ؛ وفى هذا الجمع عملت عوامل متعددة من العصبية للعربية عنصريا أو سياسيا أو عمليا ، لأسباب يقضى بها الحكم ، وإرضاء المحكومين؛ فاستقدم المؤدبون ممن لهم صلة بهذا الأدب الذى بدأ بدويا فى الجاهلية ، وبقيت البادية أبعد مساكنه عن التأثر بالمغيرات الطارئة على حياة الشعب العربى ، فجعل المتأدبون من الحكام والأمراء وأبنائهم فى نشأتهم ، يلتمسون التفصح وسلامة الوراثة العربية، أو يحمل الناس إليهم ذلك ، حين وجدوا بضاعته رائجة ، لأسباب جنسية حينا ،

أو دينية سياسية حينا ؛ فوُجدت طبقة من الرواة ، يجمعون هذه المادة الأدبية من منابتها البدوية ، ويحملونها إلى المدن ؛ ينسقونها تارة ، ويفتنون فى عرضها تارة ، فيستخلصون منها أشياء ، ويلقون عليها نظرات فاحصة ، ويحاولون عرضها فى صور جذابة . ومن هذه المحاولات كلها ، كان للرواة فى المادة الأدبية عمل ، انتهى بهم أحيانا ، إلى شيء من الحكم الضابط ، يذكرون به أن من صنيع العرب فى كلامهم كذا ، ومن طريقهم كذا ، ومن دأبهم كذا ، ثم ما يلبث مثل هذه الأحكام أن يتأثر بما حواليه من حياة متعلمة ، طالبة المعرفة النظرية المنظمة ، ما يلبث أن يأخذ صورة الاصطلاح ، فيكون من مثل ما قال الجاحظ فى بيانه : إن الرواة تسميه البديع ، فى نحو قول الشاعر :

هُمُ ساعدُ الدهرِ الذى يُتَّقى بِهِ   وما خيرُ كفٍّ لا تنوءُ[1] بساعدِ

وتلك دراسة بلاغية ، لها منهجها الذى لا يُماسّ النواحى النظرية ، ولا تحتكم فيه النظرات المنطقية ، لأن أصحاب هذا الدرس بحكم فطرتهم ، وبحكم عقليتهم ، وبحكم بيئتهم ، من آخر من يتأثر بهذه النواحى النظرية ، ويعنى بالاتجاهات المنطقية .

ومن هنا يكون لهؤلاء منهج فى درس البلاغة ، مخالف للذى وصفنا من المناهج فى البيئات السابقة .

(ب) نظرة الذين يمارسون هذا الفن القولى إلى الميراث الأدبى نظرة متمعنة ، تحاول تبيّن محاسنه ومحاكاتها . فإنه إذا ما كان خير عصور العربية — فى تقديرهم — هو ما مضى ؛ وكانت الحياة بعصبيتها حينا ، وبدعوتها الدينية حينا ، وبسياستها حينا ، وبحاجتها الفنية أحيانا ، تبتغى المقاوِل اللُّسْن ، يستجيبون لحاجاتها هذه بفنون من الشعر والنثر ، فإن هؤلاء الشعراء قد كانوا ينظرون إلى العصر الجاهلى الماضى نظرة إكبار ، وينتزعون منه مُثلَهمُ الفنية ، إلى جانب ما قد يتأثرون به من عوامل التجديد ، بنسبة متفاوتة فيهم ؛ وكذلك اتجه الشعراء إلى الأناقة ، ودفعهم التقدم إلى عمل

(١) كذا فى الأمالى وخزانة الأدب ومختار أشعار القبائل لأبى تمام . وفى البيان والتبيين للجاحظ « لا تنوء » ، أى لا ترتفع .

أكثر رقيا ، وفن أكثر تركبا ، وحياة فنية تتعدد مظاهرها وتتنوع ، كما هى سنة الحياة إذا ارتقت وكملت ، فزادت ظواهرها ، وتعددت مظاهرها فى الحى الراقى ؛ فاتجه الشعراء المولّدون إلى الاختراع والإبداع ؛ وذهبوا يلتمسون نماذجهم فى ذلك من العصر الأول الذى شاع القول بأنه خير العصور ، فبحثوا لهذا عن محاسن الكلام وأوجه جماله ، ليستكثروا منها فى أشعارهم ، بنسبة تزيد وتقل فى الشاعر منهم ، تبعا للمؤثرات المختلفة فيه ؛ وكان عملهم فى البديع ، ليس إلا لونا من البحث البلاغى ، على ما تعرفون . . . وهو بحث يقرر قواعد ، وينتهى إلى نتائج ، ويسوق ضوابط ؛ وله فى كل ذلك منهجه الخاص به ، يتأثر كذلك ، بنوع المحاولة المطلوبة فيه ، وبشخصيات وثقافات من يحاولونه ، كما يتأثر قبل كل شىء ، ومع كل شىء ، بالحال الاجتماعية للغة العربية والأدب .

فإذا ما لاحظنا أن هذه المحاولة البديعية كانت مبكرة ، وفى أوقات كانت العربية فيها ذات حظ ما فى الحياة العاملة ، فكأن الذين يبتغون هذه الأبحاث إنما يريدون أن يوفّوا بها حاجة الأمة الفنية الراقية ، من الشعر والقصيد ، وتلك حال يبعد معها — إلى حد ما ، وبنسبة متفاوتة بتفاوت العصور — الأخذ بالأساليب العلمية النظرية ، التى تجعل التعلم غرضا لذاته ، منفصلا عن العمل ؛ فهؤلاء الناظرون فى الأدب ليحاكوه ، المتبينون حسن الشعر ليتمثلوه ويماثلوه ، يكون منهجهم أدبيا عمليا ، غير نظرى ولا تلقينى ، لما تقضى به الحال الاجتماعية للغة والأدب ، ثم ما تقضى به وراء ذلك طبيعة المحاولة نفسها ، وأنها محاولة عملية ، يراد منها كسب المقدرة ، فلا تحتاج ولا تحوج إلى معاناة نظرية ، وضوابط عقلية تعليمية .

وإلى جانب هذا كله شخصيات المحاولين وثقافتهم ؛ وهم شعراء يتعاطون هذا الفن ، ولا يفرغون لمدارسةٍ تتأثر بمنهج عقلىّ نظرىّ ، أو تأخذ بأسباب من الضبط الفلسفى المنطقى.

وكذلك يكون لنا عند هؤلاء منهج أشبه بمنهج مَن قبلهم من الرواة ، وأبعد عن منهج من عداهم من البيئات التى قدمنا الكلام عنها أولا .

ثم من البيئات المخالفة بعملها وغايتها للبيئات الحكمية والمنطقية :

٢ — البيئة الأدبية العملية. وذلك أن هذه الدولة الإسلامية ، مهما يكن حال العربية فى حياتها ، كانت تلك العربية لغتها الرسمية ، وكانت أعمال الدولة الكتابية تحتاج دائما وفى كل عصر ، إلى من يحسن استعمال هذه اللغة ، فيما تتطلبه مرافق الدولة من عمل كتابى ، فإن كانت الأولى، أيام سيادة العصبية العربية ، وظفر اللغة بمكان فسيح فى الحياة ، احتاج صاحب اللغة إلى ضرب من الثقافة ، يعده لهذا العمل الخاص ؛ وإن كانت الثانية ، حين غُلبت العصبية العربية على أمرها ، ونازلتها الشُّعوبية القولية والعلمية ، وازدحمت عناصر الناس المختلفة ، وأجناسهم المتعددة ، ممن تحكمهم هذه الدولة الفسيحة ، يطلبون وظائف الكتابة فى الدولة ـ وقد كانت مَرتبة من الوزارة ـ فهؤلاء إذ ذاك أشد حاجة إلى الثقافة الخاصة ، التى تؤهلهم لهذا العمل الأدبى ، وتبصَّرهم بخصائص الفن القولى العربى ، ليبلغوا منه مبلغا يحقق الحاجة ، ويرضى الحاكمين .

ومن هنا نرى أن بيئة الكتاب ، قد كانت لها عناية شديدة بهذا التعرف والتبين لمعانى الجمال وقَسِماته فى القول العربى ، وقد قيل منذ القدم : إن الكتاب دهاقين الكلام، وعُرف عندهم من علم الأدب ما ليس عند غيرهم ، حتى قال الجاحظ :

« طلبت علم الشعر عند الأصمعىّ ، فوجدته لايحسن غريبه ، فرجعت إلى الأخفش، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ؛ فعطفت على أبى عبيدة ، فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ؛ فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن ابن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات» . وقد عُرف للكتاب دور هام فى تاريخ البلاغة ، على اختلاف الأعصر ، وتطاول الزمان ، يوصف فى مكانه من درس هذا التاريخ .

وإنما الذى يعنينا هنا — والحديث عن منهج الدرس — أن نقول : إن هذه الدراسة الأدبية العملية للفن الأدبى فى العربية على يد الكتاب ، كانت تقوم كذلك على منهج خاص ، وبأسلوب يتأثر بما تأثرت به الدراسة التى سبق وصفنا لها ، من حال اللغة اجتماعيا ، وبيئة الدارسين ، وغرضهم ، وثقافتهم . . . الخ . فأما الحال الاجتماعية للغة ، فاختلفت

باختلاف الأزمنة ، إذ كانت الكتابة حاجة عملية للدولة فى العصور المختلفة ، أيام حياة اللغة ومشاركتها ، وأيام انزوائها وعزلتها ، على السواء ، فكان لكل حال أثرها فى حينها... وأما الغرض المنشود من هذه الدراسة ، فهو فى كل حين عملى أدبى ، يبعد أن يكون تعليميا نظريا تلقينيا ؛ ومن هنا كان عمل الكتاب فى بحث البلاغة ، أبعد فى جملته عن النزع النظرى ، والخطة التعليمية . كما أن ثقافة هؤلاء الكتاب كانت فى جملتها أيضا ثقافة أدبية المادة ، فنية الاتجاه ، عملية الهدف ، فكانوا أقل اتصالا من غيرهم ، إن لم يكونوا أبعد تماما عن البيئة الحكمية النظرية ؛ والوجهة المنطقية الفلسفية ، وكان عملهم دائما : إما مشجعا على منهج مخالف للمنهج الفلسفىّ المنطقىّ الكلامىّ تماما ، أو مبعدا عنه بعدا مختلف النسبة ، باختلاف الظروف والعوامل ، فكانوا يؤيدون المنهج الأدبىّ ، ويشجعونه فى صراعه مع المنهج العلمى النظرى ، وتغالب المنهجين فى ميدان الحياة والتعليم .

* * *

إلى هنا وصفنا فى إيضاح ، العوامل التى تَخْلُقُ أو تعين على خَلْق منهج من الدراسة ، وأسلوب فى التعليم ، وخِطة فى بحث البلاغة . ولقد كان من نتائج تأثير هذه العوامل ، وجود مناهج مختلفة ، هى التى نتولى بيانها ، والتفريق بينها فيما يلى :

تعاونت العوامل المختلفة التى بسطنا القول عنها ، فيما سبق ، على خلق مذهبين ، أو على قول المحْدَثين مدرستين ، لكل مدرسة منهما منهج خاص فى درس البلاغة ، وتناول مسائلها ، وإصدار الأحكام فيها ؛ وكان بين هاتين المدرستين ضرب من التداخل والاختلاط ، حين يأخذ دارس بطرف من هذه وطرف من تلك ، على ما تدفعه إليه ظروفه ، والمؤثرات فى حياته ؛ كما كان بينهما من التفارق والتخالف ، ما هو صراع على الحياة ، قُضى فيه بالغَلَبة ، لإحداهما على الأخرى ، فى البيئة المناسبة ، والظروف المواتية على هذا النزاع ، فحديثنا عنهما ينتظم مسائل ، هى :

(ا) المدرستان ، وخصائص كلّ منهما .

(ب) صلة المدرستين فى التأثر والتأثير ، وتبادل التفاعل .

(جـ) صراع المدرستين فى الحياة ، وإلام انتهى أخيرا ؟

(١) **المدرستان وخصائصهما** : أما إن كان لا بد من تسميتهما ، فإنا ـ بقول القدماء أنفسهم ـ ندعو إحداهما مدرسة المتكلمين ، أو المدرسة الكلامية ؛ فبهذا أسماها (أبو هلال العسكرى) فى كتابه الصناعتين ، حيث قال — ص ٨ ط الأستانة : « وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، و إنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب » ، فسمى فى صراحة أولى المدرستين مدرسة المتكلمين ، وسمينا الثانية أخذا من قوله : مدرسة الأدباء ، أو المدرسة الأدبية . وهذه التسمية المبكرة ، كانت قبل استقرار البلاغة التعليمية ، ووضوح معالمها ؛ فلما استقرت البلاغة سمعنا أخيرا ، تسمية أخرى لهاتين المدرستين فيما نُقل ، إذ يقول السيوطى حين يترجم لنفسه ، اقتداء بالمحدّثين قبله ؛ و يورد هذه الترجمة فى كتابه حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة — ج ١: ص ١٥٥ وما بعدها ط الموسوعات ١٣٢١ هـ — ما عبارته :

« ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى والبيان ، والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ». وهكذا سمى بلاغة الفلاسفة ، ومنهم المتكلمون ، بلاغة العجم ، وسمى الثانية طريقة العرب والبلغاء ؛ وهم صناع الكلام الذين ذكرهم العسكرى آنفا .

وفى هذه التسمية نفسها — إلى جانب ما شرحنا من عوامل نشأة هـذه المدارس وحياتها — إشارة لخصائص هذه المدارس ومناهجها .

خصائص المدرسة الكلامية : وأبرز تلك الخصائص وأجمعها ، إصدار أحكام عقلية فى المسائل البلاغية . و بيان ذلك أننا فى إجمال ودون توسع فى شرح أنواع الحكم ، نقول : إننا نصدر أنواعا من الحكم متفاوتة ، نحسّ بتفاوتها واختلافها ؛ فنحن نحكم حينا بالصواب والخطأ ، أو الحقيقة والبطلان ؛ ونقدر أن هذا الحكم يختلف عن حكمنا بالخير والشر ، أو بالفضيلة والرذيلة ؛ كما نقدر أن هذين الحكمين غير حكمنا بالحسن والقبح ، أو الجمال والدّمامة ؛ فالأول حكم عقلى ، والثانى حكم خُلُقى ، والثالث حكم فنى . ونحن نجد دون شرح نظرى ، فرق ما بين هذه الأصناف الثلاثة وما نريده من كل واحد منها ؛ وعلى

هذا القدر الساذج ، الذى لا يجرى حوله خلاف ، ندرك أن إجراء أحد الحكمين فى موضع الثانى غير مقبول ولا مَرْضِىّ .

* * *

وقد شعرنا من جملة ما سبق من صور البلاغة المختلفة عند متناوليها ، أنها فن من الفنون ، وأنها شقيقة الموسيقا ، وقسم من الفنون الصوتية ؛ فالحكم الذى يمكن أن يصدر فى مثل هذه الدراسة هو الحكم الفنى ، الذى يثبت الحسن والجمال ، أو يثبت القبح والدمامة .

لكن أصحاب هذه المدرسة الكلامية ، قد دفعتهم العوامل المختلفة إلى أن يُصدِروا فى البلاغة أحكاما عقلية ، حيثما تناولوا درسها — وإن اختلفت درجة المنطقية فى تناول المتأخرين عنها فى تناول المتقدمين، وكانت عند اللاحقين أصرح وأقسى، حين شابها فى عمل المتقدمين بعض النظرات الفنية — وسبب ذلك أن العامل الأول الاجتماعى ، وهو منزلة اللغة فى الحياة ، كان يقضى عليهم ، وقد اعتزلت العربية الحياة ، وقصرت على التعليم وأعمال الحكومة ، أن يَعمِدوا فى تعليم لغةٍ هذا شأنها ـ لغير أهلها ووارثى مزاجها ـ إلى قواعد منضبطة ، وأساليب محدودة ، فاستعانوا بمقدرتهم العقلية ، حين عز عليهم السبيل إلى غيرها من القوى الأدبية الفنية ؛ فقد كانوا يعلّمون من الكتب ، وبالضوابط ، ولغرض تعليمى غير عملى .

ثم يلى ذلك من الأسباب جوهم المعنوى فيما يدرسونه ، فالمتكلمون فلاسفة منطقيون محاجُّون مستدلون ؛ والمنطق — فى تصنيف متفلسفة المسلمين — قد انتظم فيما ساروا عليه ، جوانب من المعارف الأدبية ، بينها الخطابة والشعر .

وإذا ما قسمت فلسفة أرسطو عند غير العرب أقساما ، خُص منها باسم الفلسفة الآلية ، ما كتب عن الصناعات والفنون — وقد رأيتم الفن يطلق على الإخراج العملى ، فإذا خص باسم الفن الجميل ، فهو إظهار الإحساس بالجمال فى صنوفه التى سمعناها : من العمارة والنقش والتصوير والنحت ، أو الموسيقى والأدب — إذا ما قسمت الفلسفة عند غير العرب

هاتيك القسمة ، فقد كان العرب يضعون المعارف الأدبية فى المنطق ، ويعدون كتب «أرسطو» فيه ، شاملة لكتابيه فى الخطابة والشعر . وكان هذان الكتابان — ملخَّصين أو معلَّقا عليهما — يُتناولان بالدراسة المفصلة عند المتقدمين من متفلسفى المسلمين ؛ لكن هذه الدراسة عند المتأخرين قد أهملت ، وبقيت آثار منها ضئيلة[1] ، يذكرونها فى خاتمة خاطفة ، حين يتحدثون عن تقسيم القياس باعتبار مادته ، فيقسمونه حسبما يتألف منه من قضايا ، إلى خمسة أقسام تسمى حججا ، وهى :

البرهان ، والجدل ، والخطابة ، والشعر ، والسفسطة .

فالبرهان : هو ما يتألف عندهم من اليقينيات كما يعدونها .

والجدل : ما يتألف من مقدمات مشهورة أو مسلمة .

والخطابة : ما تتألف من مقدمات مقبولة ومظنونة كالأقوال المأخوذة عن المتقدين ، من علماء أو أولياء ، أو ولاة ، أو سياسيين ، كل فى موضعه . ويعنون بذلك الأقوال الاستهوائية التى تصدر عن أشخاص لهم تأثير فى سامعيهم .

والشعر : عندهم قياس يتألف من المخيلات التى تخيل للنفس ما تتأثر به قبضا و بسطا ، فتنفر أو ترغب ؛ وتصير تلك المخيلات مبدأ فعل أو ترك ، أو رضا وسخط ، أو إقدام للنفس على اللذات أو على المضرات مستلذة إياها ، كما يقع من تأثير الأشعار عند الحروب ، وكما يحصل من الاستماحه والاستعطاف فى النفس عند الإنشاد .

والسفسطة : قياس مؤلف من قضايا وهمية أو مشبهة ، فهى كاذبة يحكم بها الوهم فى المعقولات الصرفة [2] .

* * *

ومن بيانهم هذا ، تشعر أن الخطابة والشعر — وهما الصناعتان الأدبيتان الكبيرتان اللتان رأيت فى العهد الأول أيام رواج الحياة الأدبية ، أنهما مادة الدرس البيانى ، وموضع عنايته ،

(١) البلاغة وأثر الفلاسفة فيها ، لصاحب هذا الكتاب ص ١٠ .

(٢) المبادئ المنطقية للفيومى ص ٤١ وما بعدها ط مصر ١٣١٧ هـ .

فى مثل البيان والتبيين للجاحظ ، وفى مثل الصناعتين لأبى هلال ـ قد صارتا لونين من القضايا التى يتألف منها القياس المنطق ، ليعطى نوعا من الحجة ليس برهانا . و إنك لتظل تسمع فى حديثهم هـذا الأخير ـ على اقتضابه وجفافه ـ همسات الفن الأدبى المختنقة فى أكبال هذه القضايا ؛ فالاستهواء والتأثير الخطابى ، هو ما يشيرون إليه فى ميزة هذه القضايا ، أو هذه المعانى ؛ والخطابة السياسية ، على خطرها فى الحياة ، هى ما يتمثلون به حين يشيرون إلى الأشخاص المعتقدين ، الذين تصدر عنهم الأقوال الخطابية الاستهوائية .

و إن وَضعوا إلى جانب الولاة ، الأولياء والسياسيين والعلماء ، وذكروا الخطابة الواعظة الدينية ، فإنهم لم يذهبوا على رغم كل شىء بمعالم الأصول الفنية والنفسية فى الخطابة وجوهرها الأدبى . كما أنك لا تزال تشم أريج الفن الشعرى فى قياسهم هذا ، حين عدوه بين الأقيسة المنطقية فى علمهم الميزانى ، الذى تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ ، فما زالوا بعد ذلك يذكرون الرضا والسخط ، والنفور والرغبة ، والسماحة والإقدام ، وما إلى ذلك من التأثرات الفنية التى يهيجها الشعر ، وإن جففوا ذلك كله ، وضغطوه فى قضية جعلوها جزء قياس ، صنعوا منه حجة ، دعوها القياس الشعرى .

بهذا الذى رأيت من صنيعهم فى مزج الفن الوجدانى ـ الذى يحكم بالحسن أو القبح ، والجمال أو الدمامة ـ بالعمل العقلى ـ الذى يحكم بالصواب والخطأ وما إليها ـ تدرك كيف صارت أحكام هؤلاء ومن لف لفهم من المتكلمين والجدليين ، فى الأمور البلاغية ، أحكاما عقلية لا فنية .

فمن شيعة هؤلاء المناطقة ، المتكلمون وقد دفعهم عملهم إلى مسألة نقدية أدبية ذات بال ، هى مسأله إعجاز القرآن ، وكيف يفهم هذا الإعجاز ؟ وهل يُعلَّل ؟ و إذا علل فبماذا ؟ وتلك كما ترى فنيات محضة ، لـكنها لم تلبث أن انقلبت فى أيديهم على الزمن ، وبتأثير العوامل العلمية والاجتماعية وغيرها فى حياتهم ، فإذا هم يسردون آراءهم فى ذلك سردا منطقيا ، ويحاولون (البرهنة) عليها فى قضايا وأقيسة ؛ و إذا ما حاولت حتى أن تفهم هذه الآراء فى إعجاز القرآن ، وتتميزها من حيث هى آراء نقدية أدبية ، عز عليك هذا ، ولم يتضح لك سبيله ، إذ تسمع قولهم فى تعليل الإعجاز بآراء ومذاهب ، منها :

١ — النظم الغريب ، والأسلوب العجيب .

٢ — كونه فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها .

٣ — مجموع الأمرين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة العالية من البلاغة[1].

فتحاول أن تعتبر النظم والأسلوب شيئا غير البلاغة العالية ، حتى يعلل الإعجاز بهذا مرة ، وبهذه تارة ، وبمجموع الأمرين طورا ، فلا يستقيم لك هذا فى نظرة أدبية أو بلاغية ؛ ونرى القوم فى تناوله قد صرفهم منهجهم المنطقى النظرى عن العالم الأدبى ، فبدت آراؤهم هذه فى الإعجاز مستعصية على التمايز الذى يجعلها أقساما ، ويحددها تحديدهم المنطقى .

ومن هنا ترى أن المتكلمين بتفلسفهم قد أخلوا بالمنهج الفنى الأدبى ، حين عرضوا لكبرى المسائل الفنية فى حياة الأدب العربى .

* * *

وإلى جانب هؤلاء المناطقة تجد الأصوليين الذين سمعت وصف (السكاكىّ) لصنيعهم ، وأن معظم أبواب أصولهم الفقهية ، إنما هى من أبحاث علمى المعانى والبيان . ثم هم قوم ذهبوا يحاولون فهم القرآن ، والنفاذ إلى دقائق معانيه ، ليتخذوا نصوصه أساسا لتشريعهم العملى القضائى ؛ كما أنهم إلى جانب ذلك كله قوم قد وقفوا وقفة خاصة عند البحث فى الحسن والقبح ، بمناسبة بحثهم فى الحاكم ، وهل يكون العقل حاكما ؟ فهؤلاء الباحثون لغرض عملى ورغبة تطبيقية حيوية ، والذين عُنُوا بدرس الحسن والقبح ، كان يرجى أن يكونوا أصحاب أحكام فنية وجدانية ، ينطلق فيها الفن من قيوده النظرية ، وتحرر النظرات الأدبية فى جمال البيان من قيودها الفلسفية ، ولكن الأمر لم يجر على هذا النسق ، ولا انتهى بهم إلى هذه النهاية .

ألا ترونهم حين نظروا فى الحسن والقبح ، ترددوا بين أن يكون الحسن والقبح عقليا ، أو شرعيا إلهيا ، وجعلوا هذه الملاحظ التى يدرك بها الناس حسن شىء وملاءمته ، أمورا عقلية ذهنية ، وراحوا يدللون على أقوالهم ، بالقضايا المنطقية ، ويتحدثون عن الحسن الذاتى والاعتبارى ، ويضبطون ذلك بأشياء مادية عملية ؛ وبهذا بعدوا عن العالم الفنى ـ الذى هو بيئة حياة اللمحات الفنية ـ وأدركتهم الفلسفة التى كانت قد اتصلت ببحثهم التشريعى

(١) (المواقفات بشرح الجرجانى ط الساسى سنة ١٣٢٥ ص : ٤٤٤ و ٤٤٥) .

العملى ، من نواح أخرى وصلتهم بمن حولهم وبمن قبلهم من الأمم ، فذهبوا لكل أولئك يصدرون أحكاما عقلية نظرية ، فى أشياء فنية أدبية .

ومن هنا نستطيع القول بأن جماع ما حادت به هذه المدرسة فى منهجها ، عن المنهج الفنى ، هو ما دعوناه أبرز خصائصها ، أى إصدار الأحكام عقلية فى موضوع وجدانى.

* * *

ومن أجل ذلك كان تعريف البلاغة أنها مطابقة تقاس ؛ وكانت حال المخاطب معتبرة من ناحية الإنكار والتردد العقليين ؛ وسمعت قولهم فى فائدة الخبر ؛ ولازم فائدته ؛ وكان التعريف للإحضار فى ذهن السامع ؛ واستغراق المفرد أشمل ، و(كل) لعموم السلب إذا تقدمت على نفى وإلا فلسلب العموم ؛ وتنكير المسند لإرادة عدم الحصر والعهد ؛ والقصر قصر تعيين، وقلْب ، وإفراد ، باختلاف حال المخاطب عقليا ، كما فى أَضْرُب الخبر . و (هل) لطلب التصديق ، وما عداها لطلب التصور ... ووجه الشبه إما خارج عن حقيقة الطرفين ، أو غير خارج عن الحقيقة ؛ والاستعارة قد تقيد بالتحقيقية ، لتحقق معناها حسا أو عقلا ؛ والاستعارة وفاقية وعنادية ، لتعاند الطرفين وامتناع اجتماعها ؛ والجامع فيها إما داخل فى مفهوم الطرفين أو لا ، والمجاز والكناية أبلغ من التصريح والحقيقة ، لأن الانتقال فيها من الملزوم إلى اللازم ، فهو كدعوى الشىء ببينة ، فإن وجود الملزوم يقتضى وجود اللازم ؛ وتأكيد المدح بما يشبه الذم كدعوى الشىء ببينة ، لأنه علق نقيض المدعى بالمحال ، والمعلق بالمحال محال ، فثبت عدم العيب .

هذه وما إليها صور من الأحكام التى تصدرها المدرسة الكلامية كما قلنا ، بالصواب والخطأ ، والإثبات عقلا أو النفى عقلا ، وهى — فى جملة القول — مخالفة بطبيعتها للحكم بالحسن والجمال ، أو الدمامة والشوهَ ، والتأثر بالأولُ تأثرا حسنا ، وبالثانى تأثرا سيئا ، على ما أشاروا هم أنفسهم إليه ، فيما ركزوا من قولٍ فى الشعر ، حين جعلوه قياسا منطقيا .

* * *

ومن خصائص هذا المنهج الكلامى اقتباس المظاهر المنطقية والفلسفية ، إما فى أبحاث

من هذا النوع ، تنقل بتمامها إلى كتب البلاغة ، وإما فى أساليب وطرائق تتبع وتلتزم . فمن الأول ما ساقوا من المقولات ، عند القول فى الملكة حين وردت فى تعريف الفصاحة والبلاغة ، وما صدروا به البيان من أبحاث الدلالات على اختلافها . ومن الثانى التزامهم التعريف المنطقى ، والتقسيم المنطقى ، وضبط المباحث وتحديدها بالاعتبارات العقلية ، والحرص على الوفاء بذلك كله والإمعان فيه ، حتى لو أخرجهم ذلك عن الاعتبار الأدبى والفنى ، الذى هو كل ما دفعهم إلى البحث فى البلاغة ، وسنرى لهذا شواهد كثيرة ، فيما نعرض له من المسائل ، إلى جانب الترتيب المنطقى للمباحث ، والضبط العقلى للأسباب والمناسبات .

* * *

ولم يقف بهم الاقتباس عند هذا الحد ، بل تناولوا بالشرح مسائل من الفلسفة الطبيعية أو الرياضية ، أو الإلهية ، أو الخلقية ، أو غيرها إذا ما لاحت مناسبة لذلك ، كالكلام فى الألوان والطعوم والروائح ، والحواس الإنسانية ومقرها ، والوهم والخيال ، والمفكرة والحس المشترك ، والأسباب والمسببات ، ومخالفة قول المعتقد لعقيدته ... الخ ؛ وتعريف الخُلق والمناقشة فيه ، وعقد فصل للصدق والكذب ، والفاعل الحقيقى ، والمذاهب المختلفة فى ذلك وغيره .

وإلى جانب هذا تختص المدرسة الكلامية ، بالجور على الناحية الأدبية فى ظواهر مختلفة ، منها : الإقلال من الشواهد الأدبية ؛ وعدم العناية بالناحية الفنية فى إدراك خصائص التراكيب ، واستعمال المقاييس الحكمية ، خلقية أو غيرها فى تقدير المعانى الأدبية ، كصنيع «قدامة» حين يجعل الفضل فى المدح — وفق النظرية الخلقية — فى الفضائل الأربع ، مطابقة المدح لها أو عدم مطابقته ، وكذلك يفعل فى الهجاء ؛ فهم يحتكمون فى تقويم المعنى الأدبى إلى اعتبار عقلى فلسفى .

وجلى أن هذا الاتجاه يؤذن بالحيف على غيره ، فترى هؤلاء الكلاميين يجملون القول فى المواطن الأدبية ويوجزونه ، وحينا يفسدون المَلْحَظ الأدبى إفسادا مؤلما ، ويشتطون فى البعد عنه ، تعلقا بأذيال غرض حكمى عقلى ؛ «فالسعد التفتازانى» مثلا ، يشبع القول فيما

ذكرنا قبلُ من المباحث الفلسفية على اختلافها ، طبيعية وإلهية ورياضية ؛ ولا يكفيه ما يجعله منها فى مختصره لشرح التلخيص ، فيحيل قارئه على شرحه المطول ، قائلا: «وفى المقام مباحث أخرى شريفة أوردناها فى الشرح ، أو وشحنا بها الشرح » . ثم هذا «السعد» هو الذى تراه يعلل حذف المفعول فى القرآن من قوله: (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) ، بأنه حذف لرعاية الفاصلة مع (سجا) ؛ كأن تلك الرعاية ضرورة نثرية ، كالضرورة الشعرية ، وكأنه لم يجد أثرا ما لهذا الحذف فى المعنى مطلقا ، فلم يبق إلا هذا الاعتبار التافه ، الذى إن صح أن يقال فى غير القرآن الكريم ، فلعله آخر ما يمكن أن يقال ؛ بل هو عند الفن مما لا ينبغى أن يقال فى القرآن (١) . ومُورِد هذا الملحظ المتهافت فى بيان سر النظم القرآنى ، هو الذى يَعُدّ مناقشته فى الأبحاث الدخيلة الغَريبة التى حشوا بها بحثهم فى البلاغة ، تحقيقات نفيسة ؛ وما أكثر ما يقول : « وتحقيق هذا البحث على ما ذكرنا من أسرار هذا الفن » وعلم الله ما له بالفن صلة ، ولا هو سر فى شىء ، فضلا عن أن يكون سرا فى الفن (٢) .

تلك هى خصائص المدرسة الكلامية ، من مدارس البحث البلاغى ؛ وقد جاءك نبأ العوامل الاجتماعية والعلمية وغيرها ، مما سبب ظهور هذه الخصائص ، وتحكمها فى حياة البحث البلاغى .

وننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن :

خصائص المدرسة الأدبية

أظهر تلك الخصائص وأوضحها ، فيما تميز به تلك المدرسة ، هو مجافاة الأحكام النظرية والشعور بجورها على العمل الفنى ؛ وهى الخصيصة التى اختلفت حالها وضوحا وخفاء ، فى أذهان متناولى البحث البلاغى من ذوى النزعة الأدبية ، فأحسها قوم من قرب ، وفى تحديد وجلاء ؛ وتطلع لها قوم فى إبهام وغموض ، بل لعله لم يحرَمها حرمانا تاما أولئك الذين نهجوا المنهج الكلامى الفلسفى السابق ؛ وسنعرض لهذا عند ما نتحدث عن النقطة الثانية ، مما وعدنا ببحثه ، وهى صلة ما بين المدرستين .

* * *

(١،٢) — الخولى — البلاغة والفلسفة ص ٧ .

وأحسب أنا حين نفيض فى أقوال الأدباء عن منهجهم فى درس البلاغة ، واتجاههم الفنى ، وحذرهم العملَ العقلى وعدوانَه على الفن ، نخدم بهذه الإفاضة خطة الدرس التى اختارها هؤلاء القوم ، لأنهـا كما سنسمع من قولهم ، إنما تقوم على طول الممارسة ، وكثرة الاتصال بالآثار الأدبية ؛ ولعل من أقدم ما للقوم من أثر فى هذه الفنية ، واعتمادها على غير العمل النظرى ، وإبائها على التعليل والتحديد ، ماصدر به «ابن سلام» ـ سنة ٢٣٢ هـ ـ كتابه طبقات الشعراء ، فقال :

« وللشعر صنعة وثقافة ، يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم ؛ والصناعات منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان . من ذلك اللؤلؤ والياقوت ، لا يعرف بصفة ولا وزن ، دون المعاينة ممن يبصره ؛ ومن ذلك الجَهْبذة بالدينار والدرهم ، لا يُعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حس ولا صفة ، ويعرفها الناقد عند المعاينة ، فيعرف بَهْرَجَها وزائفها ، (١) وسَتُّوقها ومُفْرَغَها ؛ ومنه البصر بغريب النخل ، والبصر بأنواع المتاع وضروبه ، واختلاف بلاده ، وتشابه لونه ومسه وذرعه ، حتى يضاف كل صنف منها إلى بلده الذى خرج منه ؛ وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجـارية ، فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشَّطب (٢) ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، طريفة اللسان ، واردة (٣) الشعر ، فتكون هذه الصفة بمائة دينار ، وبمائتى دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ، لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة » . كما يقول : « ...وقال قائل لخلف : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك . فقال له : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له؟ » .

فهذا الذى صنع «ابن سلام» حين جمع جمال القول إلى جانب غيره من ألوان الجمال ، يُذَكِّر

---

(١) البهرج الباطل والردىء ، والدرهم الذى فضته رديئة ، فارسى معرب . ودرهم ستوق ، زيف ملبس بالفضة . ودرهم مفرغ مصبوب فى قالب ليس بمضروب .

(٢) الشطب القطع — والشطبة بالكسر والفتح : الجارية الحسنة الغضة الطويلة .

(٣) الوارد من الشعر : الطويل المسترسل .

بما يرويه أصحاب البلاغة من قول الرسول ـ ص ـ أنه سئل : فيم الجمال ؟ فقال فى اللسان ، يريد البيان[١] .

«وابن سلام» فى جملة ماسمعنا من قوله ، يرد البلاغة إلى شىء تجده ولا تحدّه ، ويصدق رأيك فيه دون أن تستطيع تعليله ؛ ولعل من هذا ما ساقه « الجاحظ » بعد ذلك فى (الحيوان) ، حين عد هذه البلاغة بين ألوان الحسن من الصوت والصورة ، فقال : « والناس يقولون : ليس فى الناس شىء أقل من ثلاثة أصناف ، البيان الحسن ، والصوت الحسن ، والصورة الحسنة[٢] » .

. . . ومما يندرج تحت هذا ، وهو من مردّد قولهم ، إن أصل البلاغة الطبع[٣] .

ويشير «أبو هلال العسكرى» فى (الصناعتين)[٤] إلى هذا الأصل ، من وجود الحسن دون رده إلى شىء يضبطه ، وفقدانه مع وجود ما يصح أن يضبط به ، فيقول : « ومن تمام حسن الوصف ، أن يخرج الكلام مَخرجا يكون له فيه طلاوة وماء ؛ وربما كان الكلام مستقيم الألفاظ صحيح المعانى ولا يكون له رونق ولا رُواء . ولذلك قال «الأصمعى» : شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانىّ ، أى محكم الأصل ولا رونق له » .

«وعبد القاهر» بعد ذلك ، يلمح لمحات فنية مُشْرِقة ، إذ تسمعه يحدثك أن البلاغة تصوير متفنن ؛ فيقول : « وإنما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج ، إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ ، وفى مواقعها وأقدارها وكيفية مزجه لها ، وترتيبه إياها ، إلى مالم يتهدّ إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ؛ كذلك حال الشعر والشاعر[٥] » .

وخير لكم أن نشير إلى شىء من تفاريق حديثهم عن هذا التصوير ، وشَبَه الأدب به ، ووفاء بحق الفن فى هذه البلاغة . « فالجاحظ » يقول فى الحيوان ـ ٣ : ٤١ ـ « فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير » ولو أنه يورد هذا فى مقام تأييد

(١) ابن رشيق . العمده ، ١٦١ ط أولى (٢) الحيوان ١ : ١٤ ط الساسى .
(٣) العمده ١ : ١٦٢ (٤) ص ١٢٨ ط الآستانة (٥) ص ٦٨ ط السعادة .

مذهب اللفظ . ولكنا نلفت إلى هذه الشركة الفنية بين فن اللون وفن الكلمة ، وندع ما جاوز ذلك إلى موضعه الخاص من القول .

وينتهى الأمر « بعبد القاهر » فى ختام كتابه (الدلائل) ، إلى أن يعقد فصلا عنوانه : (إدراك البلاغة فى الذوق والإحساس الروحانى) . وفيه يسوق فقرة ، يشرح فيها بعبارته الفياضة ، أن اتفاق الناس على القول فى العلوم المضبوطة لا يهون ، فهو فى هذا الفن الذى ليست له هذه الأصول المقررة أشد صعوبة ؛ وهاكم عبارته : « وإذا كانت العلوم التى لها أصول معروفة ، وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس فى العلم بها ، واتفقوا على البناء عليها ، إذا أخطأ فيها المخطىء ثم أعجب برأيه ، لم تستطع رده عن هواه ، وصرفه عن الرأى الذى رآه ، إلا بعد الجهد الجهيد ، وإلا بعد أن يكون حصيفا عاقلا ثَبْتا ، إذا نُبِّه انتبه ، وإذا قيل إن عليك بقيَّة من النظر وقف وأصغى ، وخشى أن يكون غُرَّ ، فاحتاط باستماع ما يقال له ، وأنف من أن يلج من غير بينة ، ويستطيل بغير حجة ، وكان مَنْ هذا وصفه يعز ويقل ، فكيف بأن ترد الناس عن رأيهم فى هذا الشأن ، وأصلك الذى تردهم إليه ، وتعول فى محاجَّتهم عليه ، استشهاد القرائح ، وسبر النفوس وفَلْيها ، وما يعرض فيها من الأريحية عند ما تسمع ... » . ويذكر الاختلاف فى هذا كله ، وصعوبة الإقناع فيه ، حتى ينتهى إلى قوله : « فليس الكلام إذن بمغن عنك ، ولا القول بنافع ، ولا الحجة مسموعة حتى تجد مَنْ فيه عون لك ... » . ومن هذا المعنى قوله :

« فلست تملك إذن من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته وَرَى ، ورأىٌ إذا أريته رأى ... وكما لا تقيم الشعر فى نفس من لا ذوق له ، كذلك لا تُفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التى بها يفهم ... » وهو يشكو قُبيل ذلك أيضا من قلة هذا فى الناس ، فيقول : « والبلاء والداء العياء ، أن هذا الإحساس قليل فى الناس » . ولكنا لا نيأس يأسه ، فلعل التربية الفنية اليوم فينا أروج ، أو لعل أملنا اليوم أقوى .

ومما يكشف لك عن أثر المعاناة ومحاولة الدرس فى هذا الفن ، الذى سبيله الموهبة ، وأصله الذوق والإحساس الروحانى ، حِكمة مجرب تردد بين المدرستين ، وأدرك الفرق بين منهجين ، فعبر عنهما فى خبرة ممارِسة ، وجلى الأثر المرجو ، والجدوى المأمولة من محاولة

دراسة البلاغة وتلقيها . ذلك هو « السكاكىّ » ، رأس المدرسة الكلامية ، وصاحب أصلها الذى قامت عليه ، ودارت حوله ؛ وهو كتاب (المفتاح) ، إذ يقول فيه من فصل أخير ، عقده بعد الفراغ من علمى المعانى والبيان : « وإذ قد أفضى بنا القلم إلى هذا الحد من علمى المعانى والبيان ، وما أظنك يشتبه عليك ، وأنك منذ وقفنا لتحريك القلم فيهما ، تشاهد أنا ما سطرنا ما سطرنا إلا وجُلّ الغرض توخِّى إيقاظك مما أنت فيه من رقدة غباك ، عن ضروب افتناناتٍ فى النسج لحبير الكلام ، على منوال الفصاحة ، وإبداع وشيه بتصاوير ، عن كمال التأنق فى ذلك ، أشد إدا وإلحاما ؛ عسى إن استيقظت أن يضرب لك بسهم ، حيث ينص الإعجاز للبصيرة تليله [(١)] ، ويقص على المذاق دقيقه وجليله ؛ فتنخرط فى سلك المنقول عنهم فى حق كلام رب العزة ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدِق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو وما يعلى ؛ وما هو بكلام البشر ... فتستغنى بذلك عن قرع باب الاستدلال ، وألاّ تتجاذبك أيدى الاحتمالات فى وجه الإعجاز . فلنقصص عليك ما عليه المتحرّفون [(٢)] عن هذا المقام » .

وهنا يتحدث عن آراء قارعى باب الاستدلال بعد الاتفاق على أن القرآن معجز ، واختلافهم فى وجه الإعجاز : فمنهم من يقول كذا ، ومنهم من يقول كيت ، حتى يأتى على أربعة أقوال فى وجه هذا الإعجاز : يقول بعدها : « فهذه أقوال أربعة ، يخمسها مايجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو : أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس ؛ إلا طول خدمة هذين العلمين ، بعد فضل إلهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له ؛ ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سحبنا الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره ، وله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى » .

وكذلك يحدث الشيخ عن تردده بين المنهجين ، حين كان أولا يرى هذا الإعجاز أمرا يضبط ويُعلَّل ، ويبيَّن له وجه ، ويستدل عليه بدليل ، ثم ضم الذيل ما إن يلتمس وجها

---

(١) التليل ، كأمير : العنق . (٢) تحرف : مال وعدل ، كانحرف .

ولا يقيم دليلا ، بل يرد ذلك الإعجاز ، كما قال فى غير هذا الموضع من كتابه — ص ١٧٦ — : «اعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن ، تدرك ولا يمكن وصفها ؛ وكالملاحة : ومَدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين ، نعم للبلاغة وجوه متلثمة ، ربما تيسرت إماطة اللثام عنها ، لتجلى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا » .

وليس هنا موضع مناقشة الشيخ فيما أشار إليه من وجوه البلاغة التى تتيسر إماطة اللثام عنها ، دون وجه الإعجاز الذى لا يتهيأ فيه مثل ذلك . وبحسبنا إشارته العامة إلى الاستغناء عن قرع أبواب الاستدلال على الإعجاز ، وأن هذا الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة شأنه عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه كالملاحة ؛ وأن مَدْرَك الإعجاز عنده هو الذوق ، ولا طريق لإدراك هذا الأمر من الفصاحة والبلاغة إلا بالهبة الإلهية ، والنفس المستعدة ، إلى طول خدمة علمى المعانى والبيان ؛ وليس هذا كله بالقليل من رجل هو رأس فى المدرسة الكلامية ومرجع .

* * *

تلك لمحات من نظر أئمة فى بحث البلاغة وتوجيه حياتها ، أدركنا منها فى وضوح تام تلك الخاصّة الكبرى للمنهج الأدبى ، وهى مجافاة الأحكام النظرية ، وعدم التحاكم إلى المنطق الميزانىّ ، والاعتبار العقلى ، والشعور بأن فى الإنسان من قوى الحكم شيئا غير هذا كله ، وله من الأحكام ما لا ينضبط انضباط الحكم العقلى ، ولكنه يرفع ويخفض ، ويقبل ويرفض ويدرك الملحظ الفنى فى ملاحة قول ، حتى يفتتن به ، ويلفت الناس إلى فتنته ، وإن عز عليه مع ذلك أن يقنعهم فيه بالقياس المنتج ، والدليل المثبت . ومن أدرك هذا فى الناس ، وجد منه أنفذ مما ينتج القياس ، ويخرج البرهان ، واطمأن مما أدرك إلى أنفس مما تقدم الحجج ، وتهدى إليه الأدلة ؛ فتلك حقيقة وفكرة ، وهاتيك عاطفة وفنية ، يقر العقل بالأولى ، وتنتعش الروح بالثانية .

* * *

وإذا التمست ما وراء ذلك من خصائص لهذه المدرسة الأدبية ، فلعلك واجد أصلها

جميعا فى هذه الخصيصة الكبرى، فقد جرت تلك المدرسة على ألا تعنى بتحديد ولا تقسيم، بل تهمل ذلك أو يضطرب فى تناولها ، وإن ألمت به فعلى غير تعمق و نفاذ ، والتزام للتصحيح التام للرسوم المنطقية فيه ، إلا أن يكون شيء من ذلك أثرا لعَدْوَى المدرسة الأخرى الكلامية فى تناول هذا ، ولاعجب ، فقد شعرت ببعد الفن عن هذا الجو كله .

ولم تحفل مدرسة الأدباء باقتباس المنطقيات ، أو الفلسفيات العامة ، أو الكلاميات الخاصة ، التى زخرت بها كتب المتكلمين من أهل البلاغة ، على نحو ما رأيتها فيما أسلفنا بيانه ، ولا غرو فقد استغنت عن هذا ، بل شعرت بضرره .

ولم تتخذ هذه المدرسة الخِطة الحكمية فى تعليل الملحظ الفنى ، والاعتبار الجميل ، فى قول بليغ ؛ ولا بدع ، فقد وضح لأهلها أن إثبات أنواع المعارف الأخرى بذلك مستطاع ؛ وأما هذه المعارف الفنية ، فلا تثبت إلا لذى موهبة مسعفة ، وصاحب إحساس روحانى موهوب .

و يتبع ذلك، العناية بالناحية الأدبية ، فحيث ترك الدليل والبرهان ، قام الشاهد الأدبى كثيرا متوافرا ، من مختلف الفن القولى فى القرآن وهو آية العربية العليا ، وفى السنة حيثما كان ذلك ، وفى شعر الشعراء من مختلف الأعصر ، وفى رسائل الكتاب ، وقد كانوا فُرسان هذه الحلْبة ، وفى خطب الخطباء حيثما أزهرت تلك الخطابة ، فإنها مظهر الاستهواء الفنى الخلاب ... وكذلك كانوا يستكثرون من ذلك ، يؤازر بعضه بعضا ، و يبين بعضه بعضا ، و يقرن بعضه إلى بعض ، فى موازنةٍ تحتكم إلى الوجدان الفنى، وتعتمد على الحس الأدبى ، وتلفت القارىء والسامع إلى ما يجد من نفسه ، وما يحس فى ذاته ، إذا ماخالجته الخاطرة ، ودارت بخلده البادرة ، وكيف يحس أن هذا ما أحب أن يقول ، وهو ما ترجم مشاعره ، وصور خواطره ، فيرجع فى حكمه إلى مراقبة نفسه ، واستفسار روحه ، وتكشف باطنه ، فحيثما أصاب ما تمنى أن يظفر به ، واشتهى أن ينتهى إليه ، ولو قاله لكان هذا ما يرضيه ، فتلك حجة الإجادة ، وذلك دليل الإحسان ؛ وهذا هو الحكم فى فن القول ...

فإذا أعان ذلك شيء من الموازنة المقابلة بين الصنيعين ، الجائلة بين الفنين ، تستبين هذا بذاك ، وتستكمل الخافى بالظاهر ، فتلك رياضة فنية ، يمرُن بها الحس الأدبى على مقدرة الاستجلاء وسداد التقدير .

وكذلك تكون كتب الموازنة الأدبية ، والشرح الأدبى ، والتحليل الفنى ، وما إليها من معارض الفن القولى ، هى مادة هذا المنهج الأدبى وميدان تجاربه ، ومجَالىَ اختباراته ؛ وفيها وحدها دون غيرها ، مايستطيع المتحدث فى الفنون الأدبية المختلفة ، وصلة ما بينها ، أن يهتدى للقول فى الذى بين البلاغة والنقد الأدبى ، من صلة بعيدة أو قريبة ؛ كما يستطيع الناظر فى صلة ما بين الفنون المختلفة ، أن يجد السبيل لاستبانة ما بين الفن الأدبى والفنون الأخرى على اختلافها ، من رابطة واضحة جلية ، أو دقيقة سحرية .

ولو أنك بحثت عن البيئات المادية والمعنوية ، التى تنفست فيها رياض هذا المنهج الأدبى ، لوجدتها فى قليلٍ ما أشرت إليه قبل الآن ، من بقية صلة العربية بالحياة ، فى فن الشعراء ، وكتابة الكتاب ، وخطابة الخطباء ؛ فإن تهيأ لهذه الجوانب من الحياة نشاط ونماء ، ازدهرت به المدرسة الأدبية البلاغية ؛ وإذا ما هبت أعاصير الشتاء ، فأجاءت الحياة الأدبية إلى أوكار معتمة ضيقة ، اختنقت نبتات تلك المدرسة ، وذبلت أزهارها فى أ كمّتها . ففى بقية الازدهار الأدبى حوالى القرنين الثالث والرابع مثلا ، كانت البيئة الشاعرة تدرس حينا ، كالذى فعل «ابن المعتز» ، أوتنقد حينا كالذى فعل «أبو تمام والبحترى» ، حين اختارا حماستيهما . أو يوازن بين آثارها ، كالذى كتب فيما بين «أبى تمام والبحترى» ، ومازال حتى صار كتابا مرقوما ؛ كما أنك تجد أثارة من هذا الدرس أو النقد أو الموازنة ، تدخل ميدان المتكلمين فى إعجاز القرآن كما فعل « الباقلانى » لما بين المنهجين من اتصال ومداخلة . أما الدوحة التى ظلت تفىء إليها المدرسة الأدبية فى البلاغة حتى آخر الدهر ، فهى الكتابة ومدرسة الكتاب ، لأنها كانت وصلة الاتصال بين الحياة والعربية ، وبقية مالها من مجال ومتنفس ، فكانت الميدان العملى الأدبى الذى يبعد النازل إليه — راضيا أو كارها — عن توعرات المتفلسفين ، وتعقيدات المتكلمين ، وتحقيقات المنطقيين ، لأنه يريد ليثمر ويعطى ، ويكتب

وبرسل ، فيؤثر ويظفر ؛ وكذلك كان الكتاب منذ الدهر الأول حتى القرن التاسع أو بعيد ذلك ، هم ملاذ هذه الدراسة الأدبية المتفننة ما استطاعت ذلك ، تنال منه ما تسعفها عليه الحياة ، إما غزيرا جَوْدا فياضا ، وإما نزرا ورذاذا. إذ يكتب أولئك الكتاب حينا رسائلهم، مادة أدبية ، تحيي رسوم الصناعة الفنية ؛ أو يروضون ناشئتهم ويمدون خلفاءهم بنصائح يسدونها إليهم ، أو كتب يؤلفونها لإرشادهم ، على نحو ما سنرى ذلك ، حينما نتحدث عن الكتب والمؤلفات ، من خطتنا هذه فى درس البلاغة .

وفى الذى مضى كفاية لتصور المنهجين ، وتمثل المنهج الأدبى بخاصة ، تمثلا يهيئ للتناول المناسب له ، والعرض المساير لطبيعته .

صلة المدرستين

مضى من القول فى وصف المنهجين : الكلامى والأدبى ، وعوامل وجودهما ، ما يكفى للناحية العملية التعليمية ، التى نقصد من هذه الدراسة خدمتها ؛ وكان الرسم أن نتحدث بعد خصائص المدرستين ، عن صلة ما بينهما فى الحياة ، ثم عن صراعهما فى الميدان الأدبى الإسلامى .

وإذا ما أردنا أن ننتقل إلى الحديث عن صلة المدرستين ، فإنما نُعْنَى كذلك بما يتصل بالناحية العملية ، التى نتوخى الفائدة فيها قبل غيرها ، تاركين ماوراء ذلك من تحقيق تاريخى له قيمته النظرية ، أو أهميته الأدبية ، لمكانه من الدرس المستقل لتاريخ البلاغة ، وحياتها بين الفنون الأدبية .

وقد اتصلت المدرستان اتصالا وثيقا ، وتداخلتا تداخلا متغلغلا ، ولم يكن يتيسر الفصل بينهما ، أو الحيلولة التامة دون تداخلهما ؛ لأن المعارف الإنسانية وحدة متشابكة الوشائج ، يخدم بعضها بعضا ؛ ثم لأن الميادين التى جالت فيها المدرستان ، كانت بطبيعتها متشابكة ، يأخذ بعضها من بعض ، ويُلقى بعضها إلى بعض ، فالميدان الفلسفى الذى كان

يجاهد فيه أصحاب المدرسة الأولى الكلامية من أجل الدعوة الإسلامية ، كان فى جداله عن هذه الدعوة ، يؤسس عمله و يستمد قواه من كتاب هذه الدعوة ، وهو القرآن : فمن سماو يته كان ينافح ، ومن نصوصه كان يستمد ألوانا من الأدلة ، وأسسا للمقالات والنحل ، و يستدل على سماو يته التى محورها أنه معجز : « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وفى الحق إن هذا الإعجاز كان يعلل حينا أو أحيانا بغير التفوق الأدبى والسمو البلاغى ، ولكن حتى هذه الآراء فى التعليل غير البلاغى للإعجاز ، كانت فى الغالب إنما يصار إليها بعد الفراغ من النظر البلاغى فى القرآن ، أو الجدال فى قيمته الأدبية ، نظرا وجدالا ، ينتهى بصاحبه — خطأ أو صوابا — إلى ترك التفسير الأدبى لهذا الإعجاز ، و إيثار غيره عليه ... و إن شككت فى أن هذا الاتجاه إلى التعليل غير الأدبى فى الإعجاز ، كان يكون بعد الفراغ من الدرس النقدى الفنى ، فما أحسبك تشك فى أن صاحب التعليل غير البلاغى للإعجاز ، كالإخبار بالغيب ، أو الصرفة ، ونحو هذا ، كان ينظر أولا ولابد، فى قول غيره من أصحاب التعليل القولى ، فيؤثر قوله ورأيه على قولهم ، فنظره إلى هذا فى أى حال ، وسواء أكان قبل اعتناق الرأى أم بعده ، كان نتيجة لاتصال مسألة سماوية القرآن ودلالته على صدق الرسول ـ ص ـ بالجو الأدبى اتصالا وثيقا لا انفصام له ، مهما يكن الرأى فى هذا الإعجاز وتعليله .

والمتأدبون من تلك الأمة الإسلامية ، قد اطمأنوا ـ لأى سبب ، وعن بحث أوعن غير بحث ـ إلى أن هذا الكتاب طراز من الفن القولى فى العربية يوقف عنده ، و يرجع إليه ، فهم فى أدبهم الناثر أو الشاعر يتدارسونه ، وفى نقدهم الأدبى التعليمى أو العملى يَرْنُون إلى المثل والمقاييس الفنية التى تتخذ بهدى هذا القرآن ، وعلى أساس من صنعه الفنى ؛ فالكتاب إذن موضوع جهاد هؤلاء المتكلمين ، ومادة أدب أولئك المتأدبين ، وكذلك تلتقى المدرستان حوله ، ويتداخل عملهما فى فهمه وتقديره ، وتبين فنه ، والصوغ عليه ، والاحتجاج له ، والمنافحة عنه ، والاهتداء به .

تلك ناحية قريبة من نواحى اتصال المنهجين وتلاقيهما ، ووراء ذلك من واقع الحياة

ناحية وناحية ... فالمتأدبون ابتغاء الاستفادة العملية فى الحياة ، بتولى وظائف الكتابة ، ورجاء القربى عند الحكام ، والزلفى فى دولة دينها الإسلام ، الذى يصل الدولة بالدين ، والدين بالدنيا ، صلة لا تنفصم عروتها ؛ هؤلاء المتأدبون إنما يحاولون درس لغة قد غالبتها الظروف على مكانها فى الحياة ، فاستأثرت بألسنة العرب أنفسهم ، و بألسنة غيرهم قبلهم ، عاميات مختلفة الأصول ، متعددة العناصر ، فإذا هؤلاء المتأدبون ، يرون أنفسهم فَيْنة بعد فينة ، إنما يدرسون لغة ليست حية تماما ، فى أقل ما تقول ، إن عز عليك أن تقول إنها ميتة ؛ وإذ ذاك لا سبيل أمامهم لهذا الدرس إلا الاعتماد على القواعد والضوابط ، والرجوع إلى الكتب ، وسلوك الطريقة العلمية المدرسية فى تعلم اللغة ، حين عزت السبل الأخرى ، وبهذا تدفعهم ظروفهم إلى الأخذ بأساليب نظرية علمية تهذيبية فى طبيعتها ، فإذا بها تدنيهم ، رضوا أو كرهوا ، من المدرسة الفلسفية النظرية ، مهما يكن غرضهم من هذه الدراسة تثقيفيا عمليا ؛ وكذلك يتداخل المنهجان فى عمل الأدباء ، كما تداخلا فى عمل المتكلمين ؛ وتقوم الصلة بين هاتين المدرستين ، على ارتباطٍ تصدق إن وصفته بأنه اضطرارى ، دُفعت إليه كل مدرسة من المدرستين ، بدوافع غير تنبهية ، لعلها لم تكن تستطيع اجتنابها ، ولا التخلص منها .

ولو رحنا نصف لك سائر عوامل الاتصال بين المنهجين ، لأوفينا من ذلك على تحقيق تاريخى ، نبهنا أول الأمر أننا لا نقصد إليه هنا لذاته ، فانظر فيما أسلفنا من العوامل الدافعة إلى نشاط المدرستين ، تجد فى ذلك أسبابا للاتصال بينهما ، ومظاهر للتداخل (١) .

* * *

(١) يمكن أن يلتفت هنا إلى سيطرة الروح الدينى على التعليم ، واعتبار علوم الدين ، ولا سيما الكلام مادة ثقافية مشتركة للناشئة الإسلامية. ثم يمكن النظر إلى أن الترجمة والاقتباس الذى غذى النهضة الإسلامية قد كان مصدرا مشتركا للكلام والأدب إلى حد ما ، كما أشرنا إليه فى مسألة الخطابة والشعر . ثم وراء ذلك كله يمكن النظر إلى أن الشعوبية والعصبية معا كانتا تلقحان التفكير الأدبى فى البيئة الإسلامية ، على اختلاف الأزمنة ، وفى تلاقيهما يتلاقى المنهجان : الكلامى يؤيد الشعوبية ، والأدبى يؤيد العصبية ، وشد ما يختلط الأمر على الدارس ، فينسى هذا الاعتبار البعيد ، ويخلط ويمزج أقوال المدرستين وآراءهما ، ليخرج منهما برأى وسط مثلا .

وإذا ما اكتفيت بذلك من القول فى هذه الصلة وحقيقتها ، ورحت تبحث عن أثرها فى حياة البلاغة ، وجدت من ذلك ما هو موضع التتبع الوافى ، فى درس تاريخ البلاغة أيضا ، فندع الإفاضة فى مثله ، لنشير إلى الأثر أو الآثار العملية ، التى تمس غرضنا التعليمى المنشود ، فقد كان لهذا الاتصال والتداخل أثر فى المسائل والمذاهب المشتركة بين أصحاب الثقافتين المؤثرتين فى المنهجين ؛ وهى ناحية من النظر تلفتنا إلى اتجاهات فى دراستنا ، لا بد لنا من العناية بها ، للوقوف على أصول الفكر والآراء البلاغية ، ثم على الصورة الواضحة الدقيقة لها .

فمن هذا التداخل بين المنهجين ، عرضت الدراسة الكلامية لأشياء أدبية محضة ، فأبدت فيها آراء ، وأعلنت فيها مذاهب ، تأثر بها الدرس الأدبى تأثرا شديدا واضحا ، ويجب على دارس الأدب ومؤرخه ، أن يقدره حق قدره ، وأن يتتبع مظاهره ؛ ألا ترى أن بحث المتكلمين فى الإعجاز وما إليه ، وتعليلهم ذلك ، واحتجاجهم لآرائهم فيه ، قد جعل مفاتح الفهم لمسائل أدبية بلاغية وغيرها ، فى يد هؤلاء المتكلمين ؟ فهذه القضية التى يبدئ فيها «عبد القاهر» ويعيد ، فى دلائل الإعجاز ، والتى دفعه إلحاحه فيها ، وطول معاودتها ، إلى أن يفسد ترتيب الكتاب ، فلا تفرغ فيه من مسألة النظم وقول فيها ، إلا عُدت فرأيتها فى مكان آخر وحديث آخر ، وأحسست عناء «عبد القاهر» فيها وبها ، عناء تتنهد به عبارات الكتاب ، وينفثه أسلوبه ... هذه القضية فى النظم ــ على ما يرجح عندى ــ قضية كلامية مسالك الرأى فيها قد تكون فى كتب الكلام ومذاهب المتكلمين ، حتى ليتوقف فهمها فهما جليا أو قريبا من الجلىّ على الرجوع إلى أقوال المتكلمين ، ودوافع التأثير المسلطة عليهم فى القول بها ، أو الاتجاه إليها .

وكذلك ترون شاهدا قويا على الصلة الوثقى ، والرابطة التى لا تنفصم ، بين الثقافة الأدبية العربية ، والثقافة الدينية الإسلامية ، إلى حد لا يقوى معه غير المسلح بهذه الثقافة ، على شىء من التحقق فى إدراك هذه الثقافة الأدبية العربية أو تاريخها . ولعلكم تذكرون من الإشارة اللائحة ، والاستطراد القصير الذى حدثتكم فيه عن مذاهب اللفظ والمعنى ،

ونشأتها أول مانشأت فى البيئة الدينية ؛ وأن عوامل من العصبية حينا ، ومن الشعوبية حينا ومن التأثر بالحكم الإسلامى ، ثم من التفكير فى عبادات الإسلام ومعاملاته ، وكتابه الذى هو معجزته المتلوة المتعبَّد بتلاوتها ، قد خلقت هذا القول فى اللفظ والمعنى ، قبل أن يعرفه الميدان الأدبى ... بل لعل الميدان الأدبى كان خليقا بألا يعرف بحث اللفظ والمعنى على هذا الوجه ، وألا ينكر الحسّ الفنى ، فيحسب حينا أن الفن الأدبى فنّ بلا ألفاظ ، قد استغنى عن العناية بمادته التى هى الكلمة ، أو أن الفن الأدبى فن بلا معان ، قد استغنى عن روحه ولم يعد نجوى نفوس ، وتناقل أفكار وأغراض ؛ ولكن هذا الذى كان ؛ وقد عقد الخلاف بين اللفظ والمعنى ، وكان للأدباء فى هذا مذهبان ، لعلنا نقف يوما عندهما ، نبين ما سبب وجودهما عند هؤلاء الأدباء المتفننين ، وما أصل الفكرة فيهما ؟

وبعد ، فبحسبنا هنا أن نلفتكم لفتا خاصا إلى ما لهذا الاتصال وآثاره من عمل فيما تحاولونه من التجدد البلاغى ، وما ستضطلعون به فى ذلك من الزيادة والنقص فيما قرر البلاغيون الأولون ، ففى هذه المحاولة ــ التى ستنشطون لها إن شاء الله ــ أرجو أن تقدروا اعتبارين هامين من آثار هذا الاتصال بين منهجى المدرستين البلاغيتين ، وهذان الاعتباران هما :

١ ــ أن هذا التداخل قد ظهر أثره فى كتابات المؤلفين وتفكير المفكرين من القوم ، فليس يسهل أن تميز بلاغيا أديبا محضا ، لم يتأثر بالتفكير والتناول الكلامى ، أو قل إن هذا التمييز ليس سهلا ؛ كما أنك لا تستطيع الاطمئنان إلى أن فلانا بلاغى متكلم ، قد بعد عن الأسلوب الأدبى والتناول الفنى ، بعدا يقضى لك بالاستراحة منه ، والاستغناء عن أفكاره وآثاره ؛ كلا ، بل الأمر على غير ذلك ، فهذا «عبد القاهر» مثلا ، قد تجد فيه الأديب صاحب اللمحات الفنية ، من مثل ما سمعت من حديثه عن مقابلة الفن الأدبى بفن التصوير حينا ، أو مقابلته بالصياغة والنقش حينا ، وحديثه عن الذوق والإحساس الروحانى وما فيه من قوة تمثل المعنى ، ووضوح بعد المنهج الأدبى عنده عن الاستدلال العقلى ، والإثبات البرهانى ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع أن تأخذ عنه كل ما تجد ، وتطمئن إلى

كل ما قال ، بل إن النزعة الـكلامية قد ذهبت بنصيبها منه ، ولا تزال تقع فى آثاره على آثارها ، ممايوجب عليك الاحتياط والتحرز . وهذا «السكاكى» يعد كما سمعنا رأس المدرسة الـكلامية ، ولـكنك قد سمعت خبر رجعته عن تعليل الإعجاز ، واطمئنانه إلى أن الإعجاز شيء كالملاحة وكالوزن : يدرك و يوجد و يحس ولا يعلل . وله مع ذلك خطرات أدبية فنية تستحق النظر والتقدير ، و إن حفت بها جولات فلسفية ، منطقية كلامية ، مفسدة لجمال الفن ووجدانيته .

هذا هو الاعتبار الأول الذى يحق عليكم أن تقدروه حينما تتناولون هذه الـكتب ، فلا تتركون مشهورا بالـكلام ، تيأسون من فنيته ، ولا تستسلمون لأديب ، تأخذون قوله كله وفهمه جميعه ، بل تلتمسون نفحات الفن ، فى جفاف الفلسفة ، وجسوة المنطق ، وتتقون عادية هذا الجمود ، على عطر الفن وشذاه ، وتحكمون فى كل ذلك وجدانا سليما وحسا صافيا .

٢ — أن هذا التداخل قد جعل بعض حديث الأدباء أبتر ناقصا ، لأن مناشئه الأولى كلامية ، لم يتناولها الأدباء فى كتبهم وبحثهم ، فالنظر فيا بحثوا وكتبوا دون اتصال بهذه المناشىء وانتهاء إليها ، غير مجد ولا مثمر ، وليس من الصواب إذن أن نأخذ بظاهر هذه الحال ، ونسبق إلى الحـكم على هذه الآراء والنظرات بنفى أو إثبات ، قبل التمـاس المؤثرات فيها ، والـكشف عن الموجهات البعيدة الخفية لهـا ، و بهذا نحتاج فى تجددنا ، إلى رجعات وتحقيقات لمسائل كلامية ، ممـا دار حول القرآن و إعجازه ؛ كما قد نحتاج إلى غير قليل من تحقيقات أصولية ، مما دار حول القرآن وتحديد معناه ، والأساليب المتبعة فى ذلك ، والطرائق المقبولة ، فقد نشعر بالحاجة إلى أخذ بعض هذه القوانين ، والانتفاع بها فى الدرس الأدبى ؛ فليس البحث فى الإضمار والإبهام ، والإشكال ، والخفاء ، والإجمال ، ببعيد عن البحث الأدبى فى غموض الأدب ، وما يقال قديما وحديثا فيه ، وليس القول فى التأويل والإشارة مثلا ، مما يبعد عن حديث الأدب فى الرمز القولى ، كما أن لهم أبحاثا هى بعينها وذاتها أبحاث البلاغيين فى مسائلهم الأصيلة ، من علميهم المعانى والبيان ، ويقضى

اتصال المدرستين والثقافتين ، بالانتفاع بهذه الصلة ، وتتبعها فى مظانها المختلفة ، تدعيما لأساس تجددنا وتجديدنا ، وانتفاعا بما خلقت لنا الأجيال من تراث ليس من الحزم عدم الانتفاع بكل ما فيه من خير وصالح وجميل .

***

صراع المدرستين :

والآن نجاوز القول فى صلة ما بين المدرستين وآثارها ، لنتكلم عن صراع المدرستين .

وسننصرف من هذا البحث عما هو موضع عناية مؤرخ البلاغة أيضا ، لنعنى بما له جدوى مباشرة على عملنا نحن فى هذا المعهد .

ولا تستكثر لفظ الصراع هنا ، فى الحديث عن منهجين أو خطتين فى درس البلاغة ، فإنك لتقدر أن هذه البلاغة هى الدرس الموضوعى الوحيد فى الأدب ، إذا كان ما عداها من علوم الأدب ، إنما هو درس يمهد للجانب الفنى من القول ، أو هو درس لا يمس الصميم من هذه الناحية الفنية ، كما أنك تقدر أن هذه البلاغة إن تكن مهيئة لصنع الجيد من القول ، فهى بهذا المهيئة لإرضاء الجانب الوجدانى فى حياة الجماعة ، والوفاء بحاجتها فى ذلك ، وما أعظم أهمية هذا فى حياة الناس وأكثرهم به عناية وله بذلا ! وهى حين تفى بحاجة وجدان الجماعة ، إنما تمثل مزاجها الفنى ، وتتصل بفلسفة الأمة فى غاية الحياة ، وهدفها من الوجود ، وما أخطر وأكبر ! ثم حين تكون هذه البلاغة مهيئة لمعرفة الجيد ، وإصابة الحكم فيه ، فهى بهذا الممثلة لذوق الأمة الناقد ، حين يكون ، أصيلا معتزا بنفسه ، أو تابعا مقلدا لغيره ، كما كان الأمر فى حياة الأمة الإسلامية ، على اختلاف الأزمنة ، إذ كانت ترى الرأى فى إعجاز القرآن عن خبرة وممارسة ، بعد استعداد ووراثة ، ثم جعلت ترى الرأى فى هذا الإعجاز تلقينا وتعليما ، حين بعدت عن هذه الخبرة وهاتيك الممارسة ، وفقدت فى التذوق اللغوى الاستعداد والوراثة ؛ وفى كلتا الحالتين كان هذا الدرس ممثلا لمزاج الأمة الفنى ، وكيانها الذوقى ، ووجودها الوجدانى ، ولعلك تقدر بعد هذا كله ما سمعت فى نسبة

هاتين المدرستين إلى الأمم والفصائل البشرية ، فقد رأيت كل منهج وخِطة تضاف — فى تعبير الأقدمين أنفسهم — إلى شعب بعينه ، وأمة بذاتها ، فتسمى هاتيك بلاغة العجم ، وتلك بلاغة العرب ، وهى تسمية تستشرف ولاشك إلى ما أشرنا إليه الآن من صلة البلاغة بمزاج الأمة ، وارتباط دراستها بعوامل اجتماعية مختلفة ، من عنصرية واعتقادية وسياسية وغيرها ، وتأثر البلاغة بفلسفة الأمة فى غاية حياتها ، ومذهبها فى هدف وجودها ـ على ما سنزيده بعد بيانا ، عند الحديث عن الغاية من درس البلاغة ـ وإذا كان الأمر على ما ألممنا به الآن ، من خطر أسلوب الدرس البلاغي ، وارتباط منهج تناولها بأمور حيوية هامة ، فلا جرم أن نعبر عن الخلاف بين هذه المناهج بالصراع ، دون أن يستكثر مستكثر هذه اللفظة على ذلك المعنى .

ولو رحنا نصف هذا الصراع ، الذى تشترك فيه أولئك القوى الخطيرة المتدافعة ، ثم نشرف على ميادينه من البيئات المختلفة ، لأوفينا من ذلك كله على جليل الأمر ، لا نقوم بمثله هنا ، فى معهد يعنى بالجانب العملى المسعف فى إعداد التلاميذ ، فبحسبنا أن نشير إلى معالم عامة عن هذا الصراع فى بيئتنا هذه : مصر وطننا المحبوب ، ومغنى وجودنا النفسى والجسمى .

لقد حلت هذه العربية مصر ، فى العصر الإسلامى من حياتها ، ثم صارت على الدهر لغة الحياة فيها ، فوجدت الضرورة الماسة إلى درس أدبها ، وفاء بحاجة الحياة التى لا تدفع؛ فدرست البلاغة ، فيما درس بمصر من العلوم الأدبية ، وتأثر درسها بكل ما يؤثر فى حياة هذه الأمة ، من بيئة طبيعية أو معنوية ، وكان لهذه العوامل على اختلافها أثر فى رواج منهج درس بعينه دون آخر ، أو تزاحم المنهجين فيتمازجان ، أو ينتهى الأمر بغلبة أحدهما لصاحبه . ووصف هذا كله حتى فى بيئة واحدة مفردة يحتاج إلى فسيح من الوقت ، فبحسبنا إشارة لامحة إلى معالم هذا الصراع .

استقرت العروبة ، ووجدت فى مصر علوم العربية — كيفما كان ذلك — ثم جعل المصريون يدرسون البلاغة ، ويتخذون لذلك منهجا خاصا ، فلأسباب عنصرية ، من

صلتهم بالعروبة نسبا منذ القدم ؛ ولأسباب مادية من مسامتة بلادهم للجزيرة العربية ، وتيسر الاتصال بها وبأهلها من جوانب مختلفة : ثم لأسباب أخرى سياسية وعملية ؛ وبتأثير البيئة بمعنييها : المادى والمعنوى ، جنح المصريون إلى المنهج الأدبىّ العربى فى درس البلاغة العربية [(١)] ، مخالفين بذلك غيرهم من أهل الجانب الشرقى من الدولة الإسلامية .

وكان من آثار ذلك أن بدا فى تناولهم للبلاغة الحرص على إعداد الذوق الأدبى فيما يؤلفون ... واتجاه درسهم البلاغى إلى خدمة القرآن والكشف عن فنونه الأدبية ؛ وعنايتهم بالبديع حتى كانت لهم فى حياته آثار واضحة ، فوجهوا دراسته ، وزادوا فيه بضع عشرات من الأوجه البديعية . . . وما إلى ذلك من ظواهر أدبية توائم المنهج العربى الأدبى [(٢)] .

ثم تغيرت ظروف الحياة ، وأثرت فيها عوامل عنصرية أيضا ، من طروء ما طرأ من الدماء واستقر فى مصر مثلا ؛ ولعوامل مادية من موقع مصر الوسط فى العالم الإسلامى ، واستقرارها فى مكان القلب بين الجناحين ؛ ثم لعوامل أخرى سياسية عملية ؛ وبتأثير البيئة المعنوية ، دخل المنهج الكلامى إلى مصر ، وكتب المصريون فى البلاغة ، متأثرين به فيما يلى القرن السابع الهجرى فما بعده ، وشاركوا فى حياة تلك المدرسة الفلسفية مشاركة قوية فعالة ، بل وجهت مصر هذه الدراسة الفلسفية ، فأخرجت منها ومن المدرسة الأدبية مزيجا جديدا ، أو مدرسة مصرية خاصة [(٣)] لها مميزاتها ؛ وقد راجت نحو قرنين من الزمان بين السابع والعاشر الهجرى .

ويبدو أن الإصلاح الحديث لدرس العربية ، قد بنى جهده فى تناول البلاغة العربية وعرضها ، على أساس فلسفى كلامى عريض ، هو تلخيص « المفتاح للسكاكى » فعنه كتب

(١) راجع بعض أثر البيئة المصرية فى ذلك ، من قول الأقدمين أنفسهم ، فيما يصفه السبكى المصرى فى كتابه عروس الأفراح ، شرحا للتلخيص ج ١ ص ٥

(٢) أ. الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة — ص ١٤ — ٢٠ بحث نشر فى مجلة كلية الآداب — م ٢ ع ١

(٣) البحث السابق ص ٢٠ — ٢٤

الجزء البلاغى من (كتاب قواعد اللغة العربية) وما أشبهه ، مما ألف من كتب بعد ، على تغير طرائق درس البلاغة فى المعاهد المصرية .

هذه إشارات لامحة ، كما قلنا عن صراع المدرستين البلاغيتين فى مصر ، صراعا انتهى بتغلب المدرسة الكلامية على منافستها الأدبية ، وهى — على ما يظهر — النهاية ذاتها التى انتهى إليها هذا الصراع فى البيئات المختلفة ، من المناطق التى استقرت فيها العربية على اختلاف فى خُطَا هذا الصراع وسير الحياة به ، باختلاف المنازل والأمم ؛ يتولاه بالبيان الوافى مؤرخ البلاغة .

١ — منهج المحدثين :

تطاول القول فى مناهج درس البلاغة عندنا ، وحياة تلك المناهج ، أملا فى أن يكون هذا سبيلا لحسن التقدير ، فيما نتناوله بالتغيير والتجديد من هذه المناهج ، فيكون تناولا عن بصيرة ، وعلى هدى من حديث التاريخ ، وإرشاد التجربة ؛ هذا إلى ما للقول عن المنهج من صلة بالنواحى الأخرى التى نتولى درسها : كطريقة العرض والتعليم ، والكتب التى تحقق المصلحة المرجوة من هذا الدرس ... إلخ . ثم ما فى تلك الإطالة من تعريف كاف أو قريب من الكافى ، بالمنهج الذى نؤثره ويتبين لنا نفعه ، فنكون قد عرفناه فى أضواء من البيان التاريخى ، عن خُطا سير الحياة به ، وصلته بغيره من منهج آخر وتأثره به ، وما ترك ذلك فيه من نقص يستكمل ، أو زيادة يستغنى عنها .

أما حين نتحدث عن منهج درس البلاغة عند غيرنا ، فلا نجد تلك الحاجة الماسة ، إلى وصف المناهج المختلفة لهم ، وتغيرها على الأزمنة ، وما أثر فى ذلك من عوامل ، على نحو ما ألمنا بشىء منه فيما مضى من حديث مناهجنا ، لأن ذلك كله لا يعنينا تلك العناية ، ولا هو بحيث يضىء طريقنا إلى إصلاح خطتنا ، فيحسبنا من حديث المنهج عند غيرنا ، أن نصف أسلوب الدرس البلاغى ، الذى يؤثره الغربيون جملة ، والطريقة التى بها يتناولون هذه الأبحاث ، ويعلمون هذه المادة الأدبية ، لندرك ما يمتاز به منهجهم ، وما

انتفعوا فيه بمستحدث دراساتهم النفسية والفنية ، إلى تجار بهم فى التربية ، ورياضة النشء وتقدير قواهم المختلفة .

وإذا ما ابتغينا هذه المعالم العامة لمنهج المحدثين الغربيين دون تعرض للتاريخ ، ولا وصف للتحول ، ولا توسع فيما يتصل بذلك ، فإنا ننظر أولا فى المعانى الاجتماعية ، التى تؤثر فى مناهج دراسات العلوم اللغوية على ما أسلفنا ، ثم نصف هذا المنهج فى إجمال .

فأما المعانى الاجتماعية التى تدفع إلى إتخاذ منهج بعينه فى دراسة اللغة وعلومها ، فتلك التى أشرنا إليها من منزلة اللغة فى الحياة ، وصلتها بها ، ونعرف — فى إجمال — أن اللغات الغربية تتصل بحياة أهلها اتصالا وثيقا ، وأن لغة الحديث العادى ، هى لغة الأدب المتأنق المتفنن ، ولغة العلم الباحث ، ولغة السياسة المدبرة ، ولغة التجارة المتداولة ؛ فلغة البيت من لغة المسرح ، ولغة المصرف من لغة المدرسة ، ولغة النادى من لغة المجمع وما إلى ذلك ، هى هى فى أصولها وجوهرها ، لا تفترق إلا بما يفرق بين الأساليب المختلفة من خصائص ومميزات تعرفونها فى درس الأسلوب ، ولا تتفاوت إلا بما تتفاوت به شخصية المتكلم وثقافته وأناقته ؛ والشخص هو الأسلوب ، أو الأسلوب هو الشخص ؛ ولا تتغاير فى ذلك وما يتصل به تغايرا يمس المبنى ، أو ينال الأصول ، أو يفرق بين الجواهر ، ويصل إلى الذاتيات ، فلا هذه معربة وتلك مهملة أو ملحونة ، ولا هذه تجرى فى تصريفها على مباين لما تجرى عليه تلك ، ولا هذه تؤلف جملتها على نقيض ما تؤلف به تلك جملتها ، بل كل أولئك تتفق فيه لغة الشؤون اليومية ، مع لغة الفن الرفيع ، لا تفترقان إلا فى يسير من الأشياء ، لا تحدث بينهما تباينا .

وإذا ما كانت تلك منزلة اللغة فى الحياة ، وصلة الحياة باللغة ، فقد عرفنا أن تعلم أو تعليم لغة هذا شأنها ، إنما يعتمد على استعمال اللغة ومزاولتها ، ويقوم بممارسة التحدث بها مباشرة ، وتناول فنونها فعلا ، ويقصد المتعلم والمعلم إلى غرض عملى مباشر ، غير نظرى ولا علمى : فلا اعتماد على الكتب والشروح ، ولا حاجة إلى القواعد والضوابط ؛ ولا عناية بالشرح

والتقسيم ، والتفريع والتبيين ، بل هى المعاطاة تكسب الملكة ، وتروض القوى ، وتلك كلها مقومات ماسميناه المنهج الأدبى أو العملى فى دراسة البلاغة .

وإذا ما كانت هاتيك المعانى الاجتماعية ، التى تكرر قولنا فيها ، دافعة إلى هذا الاتجاه ، ثم آزرتها حركة ناهضة متجددة فى شؤون التربية وطرائقها ، والنفس الإنسانية ورياضتها ، على ما سمعنا من حال القوم ، فقد آذن ذلك كله بأن نجد المنهج الأدبى فى درس بلاغتهم ، واضح المعالم ، متميز القَسِمات ، سليم الأساس ، لا يخشى أن تشوبه شوائب مغيرة ، أو تناله انحرافات مؤثرة ، وكذلك نلمح من ترتيب دراستهم لهذه الأسلوبيات ، أو لعناصر الأدب ، مظاهر جلية ، منها ما يأتى :

١ — *الصلة الوثقى بين البلاغة والفنون* وقد رأيتهم — فيما صورنا من البلاغة عندهم — يضعون فن الكلمة إلى جانب غيره ، من فنون النغمة واللون وسواها ، ويقدرون القرابة النَّسبِيَة ، فى تلك الأخوة المعقودة بين الأدب والموسيقى ، اللذين ينظر إليهما على أنهما شقيقان . ويحتاج الحديث فى هذا كله إلى الإلمام بنواح للدرس : من علم الجمال وأصوله ، وحقيقة الفن وشؤونه ، بعضها تسعف عليه ثقافتهم الأدبية العامة ، وبعضها يعرضون له فى الدرس البلاغى ، فتجد لتلك الصلة بين البلاغة والفنون آثارا واضحة فى تنسيق أبحاثها ، وفى تناول مسائلها ، وتقرير الآراء والأحكام فيها .

٢ — *تنسيق العناصر الأدبية* : تنسيقا ينزل البلاغة منزلها المشيد ، بين جوانب تلك الدراسة ، ويؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة ، فلا تلمح فيها شيئا من التكلف أو التعمل ، يشعرك فى قوة أو ضعف ، أن هذا الدرس البلاغى شىء يختلف فى كثير أو قليل ، عن غيره من سائر مناحى الدراسة الأدبية الناقدة المتذوقة المتفننة ، التى تغاير الأسلوب العلمى ، ومناهج الدرس الخاصة به ؛ والإشراف على هذا التنسيق ، يخدم غرضنا المرجو فى إيثار منهج درسنا البلاغى ؛ ولذا أقف بك قليلا ، لأعرض عليك صورة من صور هذا التنسيق والتقسيم لأبواب هذه الدراسه ، لعلك تشرف منه على ما هو أجلى مما شهدت من صورة البلاغة وحدود بحثها عندهم ، وتستشرف منه

لآفاق حافة بهذه الصورة ، تهديك سبيل التناول الأدبى للدرس البلاغى ، حين تعانيه مجددا فى ثقة وقوة .

فمن ذلك فى توزيعهم الدرس ، وتناولهم مسائله ، أنهم مثلا يصدرون القول بالبحث فى طبيعة الأدب وحدوده ، إلى جانب الحديث عن الفن والفنون ؛ ويبحثون عن الغاية من الأدب ، فيصلونها بالعمل البلاغى ، وصلا وثيقا ، على نحو ما سنشير إليه بعدُ عند الكلام عن الغاية من درس البلاغة عندنا وعندهم ؛ فإذا ما تناولوا الأبحاث البلاغية ، فإنما يفعلون ذلك كله فى سبيل تحقيق الغاية الأدبية : فالوضوح والتأثير هدف الدارس الذى يسعى إليه ، فيتحدث عن طرائق الإيضاح ونقاء التعبير ، ويلم من أجل ذلك بألوان من النظر اللغوى والفنى ، تنتظم صنوفا من الحديث عن صور التعبير التجوزية ، من حيث هى وسيلة لذلك ، لا من حيث هى قواعد ومباحث تختبر فيها القوة المتعلمة ، وتربط بمختلف المعارف الحكمية ... وفى هذا البحث يلمون بأشياء مماهو عندنا من علم البيان ، وأشياء مما هو من البديع ... فهو جلوة تلك الأضواء الأدبية الفنية الباهرة ، يتكلمون عن البليغ الفاخر البارع ، ومظاهر تلك البراعة ، وهذا التفوق فى الشكل والصورة ؛ أو فى المعنى والغرض ، فيصفون براعة الفكر وبراعة الإخراج فى مختلف الفنون الأدبية ... ومن ذلك يكون البحث فى الأسلوب وألوان التأليف الأدبى المختلفة وخصائصها ، وموازين تقديرها فنا فنا ، ولونا لونا ... وبذلك يبدأ البحث البلاغى عن الكلمة المفردة وينتهى إلى الأثر الأدبى كله فى ظلال أدبية حافة ، وتناول أدبى مستمر ، وروح ذوق قوية ، لايعوق شيئا من ذلك فتام ، من صعوبة تحقيق لفظ ، أو تحديد اصطلاح ، أو ضبط منطق فلسفى لمعنى فى قوالب نظرية جدلية ، تحتاج معها إلى أن تتكلف رجع هذه الدراسة إلى الجو الأدبى ، حتى تصطنع الوسائل المحتالة لذلك .

٣ — *ربط هذا الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة* ربطا لاينتهى عند التزامهم إيراد الشاهد الفنى الأدبى ، دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط ولاينتهى عند إكثارهم من هذه الشواهد ، بل يمضى إلى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية تورد بجملتها ، لينظر فيها نظرة متذوقة ، يشار عندها إلى ما لصاحب هذه القطعة من روائع أدبية أخرى فى

مثل هذا الصنيع ، من تشبيه خاص ، أو صورة تعبيرية موفقة . وكذلك يمتد القول إلى إشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى فى اللغة المدروسة ، بأصوله فى الأدب أو الآداب التى كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة . فأنت تجد مع الشاهد الأوربى الحديث أوالمتوسط، نظيره أوأصله اليونانى ، أو تقليد هذا اليونانى فى اللاتينية ، وما إلى ذلك من بيان. يجلو الفكرة الأدبية واضحة بتماسكها ، قوية بتكاملها ، قد بدت الفروق الزمنية فى حياتها ، وتمثلت مسايرتها للوجود ، وارتباطها بالحياة ، بعد ما لفتت إلى ذلك الفكرة العامة عن طبيعة الأدب وغايته ، وأعان عليه واقع اللغة فى الحياة وتحكمها فيها .

٤ — **إقامة الدرس على أساس وجدانى ذوقى** : فليس يبدأ القول فى العمل الفنى بتعريفه وتحديده ، ولا بوصفه وعرضه ، ولا بسوق الأمثلة له ، وحمل السامع على استخراج عناصر القاعدة أو أجزاء الفكرة . بل يعتمد الدرس على أصل عام فى التدريب على الفنون وذلك الأصل هو إيقاظ قوة الملاحظة الفنية ، والتنبه الوجدانى فى الدارس ، تنبها يجعله يشهد المثل الفنية ، والصور البارعة ، التى جادت بها فطر موهوبة ، وخلقتها نفوس حساسة صافية ، يشهدها المتكلم ، ويلتفت منها إلى ما تسعفه عليه فطرته ، ويتنبه له وجدانه ، وتستشفه موهبته، فيبدأ بالتمييز والحكم لا بالتلقين والإلزام ، وقد رأيتم مثلا لذلك فيما سبق من وصف صورة البلاغة عند الغربيين — وكيف يدعون الدارس يدرك وحده طبيعة الدرس البلاغى ، بأن يعرضوا عليه قطعتين أدبيتين هما وصف لشىء واحد مثلا، وقد صيغتا من كلمات واحدة، ليقدر ما به الفرق بينهما ... الخ — انظر صفحة ٤٠ وما بعدها — كما رأيتهم يطلبون إليه التعبير عن معنى واحد بصور مختلفة ، منها صورة تكون آنق عنده وأحسن فى تقديره ، وهكذا يتأيد المنهج الفنى فى طريقة الدراسة نفسها ، بعد الذى تهيأ به ذلك من صلة بالفنون الأخرى ، وتنسيق للأبحاث بين الدراسات الأدبية ، وربط لها بالثروة الأدبية للغة المدروسة، على نحو ما أشرنا إليه آنفا ، فيأتلف من ذلك منهج أدبى ، سليم غير مشوب .

الكتاب الرابع

اللغة والحياة

أ - الفصحى والعامية

١ — المنزلة الاجتماعية للعربية اليوم

٢ — طرف من مشكلات الفصحى

٣ — معركة الفصحى والعامية

٤ — ماذا يستطيع المعلم أن يفعل

٥ — العمل القاموسي

٦ — « النحوي

٧ — « البلاغي

ب - المنهج الذي نؤثره

وقبل تناول الحديث عن المنهج الذى نؤثره ـ وهو حديث هام فى مهمتكم التعليمية ، وعمل المعهد فى معونتكم عليها ـ نعرض للجانب الذى عرضنا له كثيرا فى حديثنا عن هذا المنهج ، ألا وهو المنزلة الاجتماعية للغة ، وأثرها فى طرائق درس هذه اللغة ، وأساليب تعليمها وتعلمها ، لأن تلك المنزلة — فيما أرى — أخطر ما يجب أن نقدره ، ونطب له ، فى محاولتنا كلها لإصلاح علوم العربية ، وجعل دراستها مجدية ، محققة لحاج الأمة ، ومطالب حياتها .

ونحن نعرف بلا شك ، أن هذه اللغة التى نعانى تعليمها ورياضة النشء عليها ، ذات منزلة فى الحياة لا تسر صديقا ، ولا تكبت عدوا ، قد غالبتها على مكانها فى الدنيا ، بل فى قلوب متكلميها أنفسهم ، قوى جائرة ، ونوازع متطرفة ؛ و إذا لم تكن اللغة عند أهلها أنفسهم ، فى منزلة كريمة ، فما مكانها فى الدنيا بعد ذلك ؟ وما منزلتها فى الوجود وراء هذا ؟ وليس بدعا أن نشعر بالصلة الوثيقة ، والعلاقة القريبة جد القرب ، بين وجودنا السياسى وحياتنا اللغوية ، و بين كياننا العالمى ووجودنا اللسانى ، و بين كرامتنا الدولية ومكانتنا الأدبية ، فتلك كلها — فى نظر الاجتماعى — وشائج متواصلة ، وأواصر متداخلة ، لا يشعر بينها بانفصال ، ولا يجد تباعدا ... ونحن لا نعيش إلا بكرامتنا الاجتماعية ، ولا نستطيع أن نعيش بغيرها ؛ إلا أنا هنا لا نتحدث عن وجودنا السياسى ، وكياننا العالمى وكرامتنا الدولية ، حديث المجاهدين فى سبيل المجد والكرامة ، تدفعنا الحمية ، وتحدونا الأنفة ؛ بل نحن هنا إنما نصطنع أناة صاحب العلم ، ورزانة أصحاب البحث الدارس ، فننظر إلى الأشياء من حيث هى جوانب لوجودنا ، تتفاعل وتتواصل ، فإن وصفناها أو لحنا ظواهرها ، فإنما نفعل ذلك كله بعاطفة معتقلة ، وفحص يقظ ، وشعور قومى محتجن ، ونظر علمى مسيطر ، فنصف من ذلك الحقيقة العارية ، دون أن نلقى عليها من أضواء الفن وألوان

العاطفة شيئا ؛ ودون أن نقصد من ذلك إلى شيء من الإثارة أو الإهاجة ، يأخذه علينا الرقباء ، أو ينقمه منا الحكام ، فلغير هذا كله نعرض هنا لتلك الحقائق .

إننا قوم ، إن تلطفنا فى الحديث عن أنفسنا ، قلنا إننا ننزل منزلا متخلفا فى الحياة ، يلى غيرنا من أمرنا ما لا نحسن ، محتسبا عند الإنسانية ، ما يبذله لإصلاح شأننا والأخذ بيدنا إلى التمدين والتحضر ، وذلك مهما يخف وقعه ، ويلطف وضعه ، فلن يثير فينا إلا الشعور بأن غيرنا أكرم منا ؛ وبحسبك مثلا لسوء هذا الأثر ، أن يقول فينا اليوم قائل من أهل الفن ، والمنتسبين إلى الشعر ، الذين يرقون إلى السماء وهم فى التراب ، ويعيشون فى دنياهم الكريمة ، حين يقسو الواقع على غيرهم ، يقول هذا القائل عنا وعن أهل الغرب :

نحن — إلا فى صحافتنا — دونهم فى الخُبْر والخَبَر !

وهكذا يدخل علينا الضيم فى كل ماتتناوله اللغة من أمر الحياة ، فنحن لانهشُّ للحديث بها ، حين نشتاق إلى إجراء اللسان بغيرها ، من لغات المدنيين الحاكمين ؛ ونحن لا نتعامل بها مع أصحاب الأمر فى المال والصناعة ، والتصريف والتجارة ، والتدبير والمقايضة ، ونحب أن نجد السبيل إلى التفاهم الميسر مع هؤلاء بألسنتهم وأساليبهم ؛ ونحن — معلمى العربية — نجد أبنائنا و بناتنا ، يَبْرَمون بهذه اللغة ، ويتطلعون إلى إجادة غيرها ، ونبذل — راغمين — أموالنا وقوانا ، لنهيئ لهم سبل النفاذ إلى هذه الإجادة ، ليظفروا بدرجات الدولة ، وأسباب العيش فى هذا المجتمع ، الذى لا يَدَ لهم بالانفصال عنه ، والانشقاق عليه . وما أنكِر أن فينا حسا قوميا يناضل عن كرامة ، ويُحِل اللغة فى هذا الشأن محلها ، ويأخذ بيدها لتنزل فى الوجود منزلا أقرب من هذا المزجر النائى ؛ ولكنك حين تنظر نظر المدقق المنصف ، تشعر أن الذى يأخذ نفسه بشيء من هذا ، إنما يجاهد نفسه ، ويكبت ألمه ، وينطوى على دخيلة من ذلك موجعة ، أو فى أقل الأمر مستاءة ، ويعتد نفسه فى هذه المحاولة وذلك الالتزام ، باذلا من مصالحه ، متحملا فى سبيل واجبه ، لا مقبلا إقبال المعتدّ الواثق ، الذى لا يجد نفسه إلا فى هذا الجو ، ولا يشعر بوجوده إلا فى هذا العالم ؛ وتلك حال نفسية لا تجدى على اللغة ، ولا تمكن لها فى القلوب : تلك الجدوى ، وذلك التمكين الذى يؤثر فى

تلقينها ، ويمهد لتذوقها ، ويسعف فى تعليمها وتعلمها ؛ لأن أيسر أمرها ، وأحسن حالها ، أنها منافَسة ، تناوئها ضرة أثيرة جذابة ، قويةقادرة ، فيتقلب القلب بينهما تقلبا ليس خفيف الأثر ، ولا هو مما يهون معه خطر تلك المنازعة ، أو يسهل الاطمئنان للغد .

والأمر فى تعليم اللغة وتعلمها ، وبخاصة فى تعلم ما يكسب ذوقها ويلهم فنها ، إنما هو أمر وجدانى صرف ، ونفسى محض ، يستغنى فيه الدارس بالإقبال والممارسة الفعلية ، عن القاعدة النظرية والتلقين التعليمى ، فيخلى ونفسه ، ليقرأ ويتحدث ، ويجد ويلحظ ، فيتذوق ويكتسب ... وأنى له أن يفعل ذلك أو شيئا منه ذا جدوى ، وهو يلقى هذه اللغة بما نعرف ، ونحس ونألم . وتلك الفصحى التى نعلِّمها بين هاتيكم الغوائل المناوشة ، والمفزعات المتخطفة ، قد أصابها من وجودنا القومى ، ومنزلنا بين الأمم ، ما مس الشَّغاف ، وحز القلوب ، وزلزل المشاعر : فلم ترزأ بمباعدة الأفواه ، ومجافاة الألسن فحسب ، بل بعدت عن النفوس ولم تحظ فى الأفئدة . ومع مثل هذه الحال اليائسة ، يشق على المتعلم تمثلها ، ويصعب عليه النفوذ المستشف إلى خصائصها ، والإدراك اللامح لطبائعها وميزات قولها الفنى ، فتصعب بكل أولئك مهمتكم ، وتحتاجون فيها إلى ضروب من المعاناة والتلطف ، والمحاولة والتحايل ، ثم لا تظفرون من ذلك — على عظمه — بجدوى تكافئه .

***

هذه هى المنزلة الاجتماعية للغة ، وما يلحقها فى ذلك من منزلة أهليها ، وهو الوجه الظاهر من المشكلة ، أو هو الجانب الخارجى للمسألة . والفصحى التى تعلِّمونها ، تعانى وراء ذلك كله مشكلات أخرى داخلية ، بعد الذى لقيته وتلقاه من الهجمات الساسية الخارجية . ولعل هذا الجانب ، بل تلك الجوانب من أزمة الفصحى ، أشد تعقدا ، وأبعد أثرا فى حياتها ، مما سببته لها الظروف الاجتماعية والسياسية التى تبيناها . وإنما نعنى نحن هنا بالمشكلات الداخلية ، والأوجه الأخرى من أزْمة ما بين الفصحى والعامية ، التى يعيش فيها ويتكلم بها أبناؤكم الذين تعلمونهم هذه الفصيحة وآدابها وبلاغتها .

وأزْمة ما بين العامية والعربية داخليا ، ذات شعب متراكبة ، وعقد كثيرة العدد ،

خطرة الأثر ، بعيدة المدى ، تتصل بما تلقى الفصحى من عَنَت فى صراعها للعاصفات المزعزعة لها ، على حين تمتد تلك العقد فى أغوار التاريخ ، وتساير حياة الفصحى منذ حلت مصر فى العصر الإسلامى ، وتمضى معها لتلاحقها فى حياتها العصرية ، بل لتقطع عليها طريق المستقبل ، وتسد مهاب الريح ، وتأخذ منها بالمخنَّق .

من هذا وما إليه كانت تلك المشكلات الداخلية أعقد وأخطر من الجوانب الخارجية فى حياة اللغة الفصيحة بمصر ، وما أحسب الوفاء ببيان هاتيك المشكلات ، مما يبعد بنا عما نحن بسبيله من حديث المنهج الذى نؤثره فى درس البلاغة وتعليمها ، فقد تكرر القول ، وثبتت شهادة التاريخ ، بوثاقة الصلة بين حياة اللغة ومنهج تعليمها ، فإليكم الحديث عن :

***

طرف من مشكلات الفصحى :

نشأت هذه العامية فى مصر بعد مادخلتها الفصحى مع الإسلام والقرآن ، ولهذه النشأة تاريخها المستوفى فى غير هذا الموضع ، ولكنا نشير منه هنا إلى ما لا يمكن إهماله ، إشارات موجزة عامة ، فقد كانت تلك النشأة ــ فيما أرجح ــ مبكرة . وقد أخذت العامية من العربية وغير العربية من ميراث ما أخذت ، وأهملت من خصائص العربية ما أهملت ، فكانت فى جملة القول شيئا مخالفا الفصحى ، مغايرا لها غير قليل من المغايرة ، إن لم نحدد مقداره بالضبط هنا ، فإنا نقرر أن هاتيك المغايرة كافية لتميز هذه العامية بكيان واضح ، اتسع لمفردات من الأسماء والأدوات والحروف ، لاتعرف العربية منها شيئا ، ثم صاغ منها بدافع الحاجة أفعالا لاتعرفها العربية كذلك ، وأهمل إعراب العربية جملة وتفصيلا ، وآثر صنوفا من الحس الصوتى والذوق الأدبى، تخالف أشياء مما عرفته الفصحى فى هذا كله ، ومضى فى نظم الجملة إلى أوجه مما لا تعرفه الفصيحة أيضا ، وكل أولئك كاف لتميز هذا الكيان الخاص بالعامية ، مهما تحمل بعد ذلك من آثار العربية ، ومعالم موافقتها .

ثم طالت حياة هذه العامية منذ نشأت النشأة الباكرة فى العصر الإسلامى إلى اليوم ،

وإلى ما سيليه من أيام مقبلة يعلم الله مداها ؛ وخلال تلك القرون والآماد ، كانت هذه العامية تَزْحَم الفصحى فى ميادين الحياة العاملة والمتفننة ، لا تُبقِى لها — إن أبقت — إلا الظواهر السياسية الرسمية ، أو الشكليات الدينية ، فى حالٍ يشتد عليها فيها جورها ، حتى تمسخ فصاحتها وسلامتها ؛ أو يخف قهرها لها حينا فتدعها تتنفس ؛ أو تتقرب إليها ببعض المجاملة فى الأخذ عنها ، تبعا لسير النواميس الاجتماعية لحياتنا اللغوية .

وهاتيكم العامية على هذه الحال ، قد عرّضت وتعرّض الفصحى لآلام مادية ، وأخرى معنوية ، كلها ذو أثر سيِّىء فى حياتها وتعليمها .

فأما الآلام المادية فمنها :

أن العامية تغتصب من الفصحى أماكنها فى الحياة ، وتنافسها فى أخص تلك الأماكن وآمنها وأسلمها ، فتقصيها عن الأفواه ، وتجنبها الألسنة ما استطاعت ، وبذلك تحول دون قربها من القلوب وتعلق الأهواء ، فتزيدها ضعفا على ما أضعفتها به المنافسات الاجتماعية ، من لغاتِ غالبين ظافرين وحاكمين مسيطرين ، قديما وحديثا ؛ فقد عانت الفصحى ، من التركية والتترية والفارسية وغيرها من لغات الشرق قديما ، مثل ما تعانى اليوم من الفرنسية والإنجليزية وغيرهما من لغات الغرب حديثا ، ولو كانت هذه الفصحى حين تقف فى تلك الميادين من حرب اللغات على طول الزمن ، إنما تقف منيعة الظهر ، مستمكنة القدم ، على أنها لغة الحياة فى مظاهرها كلها ، لكانت أقوى جنانا ، وأبطش يدا فى صراع الطارىء عليها ، ولكنها تقف الموقف المزعزَع الواهن ، قد عُزِلت فيه عن كثير من جوانب الحياة ، وأفردت بمظاهر السياسة أو الدين أو بعض ذلك ، فكانت أضعف قلبا ، وأوهى جنانا ، وذلك بعض أثر العامية المادى فيها ، حين تساكنها فى المواطن ، وتزاحمها على الأهل ، وتشركها فى المنزل ، فتصل إلى ما قد يعز على اللغات الطارئة الوصول إليه ، وكذلك تنازعها حقها ، وتوهنها فى نزال خصومها .

وأما الآلام المعنوية :

فما تصيب به العامية هذه الفصحى مما هو أخطر وأخوف ؛ وذلك أن اللغة بما هى أداة التفاهم ، تكون سجلّ حياة الأمة ، وديوان عواطفها ومشاعرها ، ومتحفا صوتيا لحضارتها وماضيها ، تحفظ من أمجاد ذلك الماضى مثل الذى تحفظ الآثار التاريخية المادية أو أكثر ، وتكون باستمرار دورانها على الألسن ، وإبلاغها المعانى والآراء ، صلة وُثقى بين ماضى الجماعة السحيق ، وحاضرها الشاهد ، تربط الأوبين السابقين والخالفين اللاحقين ، برباط نفسى كتلك الروابط العقلية والتقليدية ، أو هو أوثق وأظهر حياة ، وأكثر تناولا .

وكانت تلك الفصحى منذ حلت مصر مع العصر الإسلامى ، تكون هى المتحف الصوتى ، لأدوار حياة هذا المجتمع المصرى ، فى أثناء تلك الأجيال والأزمان ، وتكون الصلة الوثقى ، بين أمس هذا المجتمع ويومه ، وتكون الرباط النفسى الوثيق الظاهر الشامل ؛ ولكن هل تحسبها — مع المزاحمة الباكرة لها من العامية — قد ظلت تصلح لذلك كله ، وتقوى عليه ؟ أحسب أن العامية قد أفسدت عليها هذا الماضى كله ، أو أفسدت منه جانبا لا يستهان به ، إذ حالت بينها وبين مزاولة الحياة ، والتغلغل فى جوانبها وأطرافها ، فلم تهيىء لها المقدرة على التدرّج الدائم ، والتجدد المستمر ، والنماء المساير لأوضاع هذه الحياة كلها شيئا فشيئا ، ومن أجل ذلك لم تعد من حيث ماضيها ، هذا السجل المرجو ، والمتحف المبتغى ، والرباط المتين ؛ وتلك إصابة لا يستهين بها مؤرخ الحياة الأدبية المصرية ، حين يلتمس معالم هذه الحياة فى تُراث الفصحى بمصر خلال البضعة عشر قرنا التى عاشتها فيها .

* * *

ثم أنت إذ تنظر إلى حاضر هذه الفصيحة لا تجد أثر العامية فيه أقل إضرارا ، ولا أخف إيلاما ... وهل تحسب أن هذا الماضى المعوّق يُسْلِم إلى حاضر ناشط ؟ كلا ، بل تجد العامية فى هذا الحاضر ، تسبق إلى الاتصال بالجديد الطارىء ، من عوامل مؤثرة ، ولغات مهاجمة ، فتستجيب لهذه ، وتأخذ من تلك ، وتفى بحاجات الناس فى كل أولئك ،

أو على الأقل فى الكثير من هاتيك الحاجات ، قبل أن تكون الفصيحة قد مدت إلى ذلك يدا ، أو استطاعت إليه سبيلا ، فتظل حيث كانت حين تخلفت فى الماضى ، متأخرة فى الحاضر ... وإنه لمقتل ليس أهون شأنا من سابقه . وما ينبغى أن ينسى مؤرخ الحياة الأدبية العصرية فى مصر هــــذه الملاحظ ، حين يتحدث عن تأخر الفصحى فى تجدد أساليبها ، ومسايرة حياة مستعمليها ، وعدم الوفاء بما جدّ ويجد ، وعدم الاتصال بمـا أُحدث واستقر ، وعدم السعة لفنونٍ أو لأساليبَ أو لمبتغياتٍ من القول .

وإذا كان للعامية فى الفصحى بمصر مثل هذه الآثار الخطرة ، والهجمات القتالة ، قد عرضتها بها لضائقات متعددة ، وأفسدت عليها ماضيها وحاضرها ، أو لا أقل من أنها أساءت إليها فيهما — إن استكثرت أنها قد أفسدتهما تمـاما — أفلا ينبغى لمدرسى العربية — وبخاصة مدرسى أدبها وفنها — فى تدريس بلاغتها ، أن يمنحوا هذه القضية عنايتهم ؟ أحسب أن ذلك من صميم واجبهم ، وبخاصة بعد الذى رأينا من صلة منهج الدراسة اللغوية ، بمنزلة اللغة الحيوية والاجتماعية .

معركة الفصحى والعامية

إذا ماحق عليكم أن تقفوا وقفة غير قصيرة عند مشكلة العامية والفصحى فى حياتنا ، بل فى حياة الجماعات التى تتكلم العربية قاطبة فى الشرق والغرب الإسلاميين ، فإنى ألفتكم إلى أن معركة العامية والفصحى معركة واسعة الرقعة ، فسيحة الجنَبات ، لا تخوضونها وحدكم ، ولستم دون غيركم الجيش المقاتل فيها ، بل أنتم وحدة من تلك الوحدات التى لا بد أن تتضافر وتتعاون ، ليكون لهـا أثر فى كسب النصر ، وإلا خسرت كل وحدة جهدها ، وخرجت بغير شىء . ولا أعرض هنا للوصف المستوفى ، والتخطيط التام لهذه المعركة ، وواجب القوى المختلفة فيها ، بل أعرض لبعض ذلك لمـاما ، تصويرا للميدان ، وتوجيها لتفكيركم فيه توجيها سديدا .

من شؤون هذه المعركة ما يشبه الظروف الجوية القاهرة ، التى لا يهون التحكم فيها

كما يقول المحاربون اليوم ؛ وتلك هى آثار المسايرة العملية فى اللغات ، للمؤثرات الاجتماعية المتعددة ، الدقيقة الخفية ، فإن اللغة — فى قولهم — تقليد اجتماعى ، شديد المرونة ، سريع التأثر ، قابل للتغير قبولا عظيما ؛ ومن هنا تتشكل وتتدرج ، وتأخذ وتتقبل ، فى استجابة مسرفة ، وتحول نشيط ، يستعصى على الضبط والتسيير . وتحكم فى ذلك كله من أمرها ، عوامل ليست فى يد أحد ، ولا فى متناول قدرة ؛ فالمؤثرات الجوية نفسها ، والمؤثرات الصحية ، والمؤثرات العلمية ، والمؤثرات الوجدانية ، والمؤثرات الاقتصادية ، والمؤثرات السياسية ، والمؤثرات الخلقية ، وما استطعت أن تذكر أو تعد من مؤثرات ، تتناهب اللغة طبعا وتوجيها وتضخيما ، وتحويلا وتصريفا ؛ ولن يقوى حاكم ، ولا متجبر ، ولا مصلح ، ولا مجمع ، ولا طائفة ، على الوقوف فى سبيل مطاوعة اللغة لذلك كله ، واتساعها لذلك كله ، ووفائها بحاجة ذلك كله . وكلما بدا فى الفصحى جمود ، أو شبه جمود فى ناحية ما ، من اصطناع مواد جديدة ، أو تقبّل صيغ جديدة ، أو تمثل أساليب جديدة ... الخ ، تقدمت تلك العامية ، فوفت بحاجة الجماعة فى ذلك كله ، لأن هذه الألسنة والأفئدة ، قوى قاهرة ، لا يحتكم فيها أحد ، ولا يقهرها أحد . ومن هنا كان فى حياة الفصحى ، أو قل بعبارة أدق ، كان فى حيوية الفصحى من النقص الذى يعوقها عن السبق الواثب إلى تحقيق هذه الحاجات ، بقدر ما فى حيوية العامية الفياضة ، من الغلبة والتفوق فى المطاوعة والمجاراة .

تلك هى ما أشبهه بالظروف الجوية للمعركة الحربية فيما نسمعه اليوم ، وهى اعتبارات وعوامل لا يد لأحد بالتصرف الحر الكامل فيها .

والبحث فيما يُستطاع من هذا الاحتكام ومقداره وأساليبه ، من الدراسة الاجتماعية التى يعكف على تدبرها الباحث أو المصلح الاجتماعى ، فى سعة من التجريب والإحصاء ، أو الاستقراء ، ومسألة التاريخ ... الخ ، مما ليس من عملكم أنتم ، وإنما عليكم أن تقدروا هذه العوامل من حيث ما تدخل به من تعويق على محاولاتكم فى نصرة الفصيحة وسيادتها .

***

ثم يلى ذلك من أمر هذه المعركة وميدانها ، تلك الكرامة القومية ، التى بها تتكرّم اللغة ، وتدنو من الأفئدة والألسنة ؛ وتلك مسألة تمس كيان الجماعة كله ، وتعمل لتحقيقها قوى الجماعة كلها . وتوزيع العمل على تلك القوى ، وتكليف كل قوة نصيبها منه ، عمل اجتماعى عام أيضا ، يعنينا منه هنا أن نلفتكم أنتم إلى حظكم الخاص منه — يا منشئ الجيل الخالف — حين تحسنون التأتّى لذلك ، وتجعلون هؤلاء الفتية يشعرون بالفرق الأدبى بين اللغتين ، ويجدون من الحنين إلى مجد المستقبل ، المبنى على فخر الأمس ، ما يجعلهم يلتفتون إلى هذا الأمس ، وآثاره فى حاضرهم ، وحين تعرضون هذه اللغة وتتخيرون منها ما يفى بحاجة اليوم الفنية ، ويقع من أنفسهم موقع ما يتعلقون به من آثار اللغات الأخرى وآدابها، وحين تدركون بشفيف وجدانى ، وحس أدبى ، مواقع رضاهم من الأنغام والأصوات والأصداء ، فتكثرون من توقيعها وترديدها على آذانهم ، إلى غير ذلك مما يوجد ويدرك ولا يضبط ولا يعلّم . ولعل لنا إليه عودة حين نتحدث قريبا عن أشياء من واقع الحياة الفنية الشاهدة ، لا بد لمعلم اللغة وآدابها من إدراك صلتها الوثق بعمله ، ثم حين نتحدث فيما بعد ، عن معلم اللغة وما تبتغيه منه ، وكيف يزيد فقهه وتمثّله اللغة وآدابها .

* * *

وإلى جانب ذلك من شؤون هذه المعركة وميدانها ، ذلك النصيب العقلى للغة الفصحى فى ميدان الحياة ، وواقع الوجود ، ولعل هذا من أقرب ما يكون من آثار المنزلة الاجتماعية والكرامة القومية التى تحدثنا عنها آنفا . ولقد جعل المتحدثون فى الشؤون اللغوية وإصلاحها ، يدركون بأَخَرَة قيمة هذا الواقع الاجتماعى فى تعليم اللغة ، وإكسابها لمتعلميها ، فسمعنا جِلّة رجال وزارة المعارف حين عرضوا لتيسير النحو ، ووضعوا لذلك تقريرا ، يقولون فى هذا الشأن ما يقولون ، ويذكرون ما يعوز الفصحى من نصيب اللغات الحية ، فى البيت والشارع والمسرح والنادى ، ويقترحون لذلك أن يُحرص على هذه الفصحى فى تعليم مواد الدراسة جميعها ، وأن توجه العناية الجادة ، لأخذ مدرسى المواد غير اللغوية ، بالإفصاح والتصحيح فى تعليمها ؛ وهو علاج يسير الأثر ، محدود الفائدة ، والناحية الاجتماعية فى حياة

اللغة أفسح من ذلك أفقا ، وأبعد أثرا ؛ والأمر فى تعليم اللغة يقوم على هذه الناحية الاجتماعية ، ويرتبط بها ارتباطا قويا .

كنا نرجو أن يمضى « رجال التيسير » إلى الغاية المستطاعة فى تفهمه وتقديره ، والعمل لتحقيق المستطاع منه ، وقد ألممت فى غير هذا الموضع[1] بما يستطاع من ذلك فى تيسير النحو نفسه ، والتعرض لـكيان اللغة ذاتها ، ونرجو أن نعرض لما يستطاع من هذه الناحية فى درس البلاغة والأدب .

***

وأول القول فى هذا الواقع الاجتماعى المشهور ، أن لنا لغتين ترتبطان وتتصلان ، مافى ذلك شك ، ولـكنهما مع ذلك تتغايران وتتمايزان وتنفصلان ، فى غير قليل من النواحى ، مافى ذلك شك أيضا . وقد عرفتم صدر هذا البحث ماذا فعلت العامية بالفصحى ، وما الذى سبقتها إليه ، وما الذى امتازت به عنها ، وعلى أساس هذا كله نتناول الحديث فى علاج ما بينهما من مشكلة فى تعليم البلاغة .

ماذا يستطيع المعلم أن يفعل ؟

على أنّا نقدر أولا ، أن تفكيرنا فيما نعمل من أجل ذلك ، إنما هو التفكير فيما يستطيعه معلم العربية من عمل ، تاركين ما عدا ذلك من جهد تقوم به الوحدات الأخرى ، من قوى جيش الحياة ، لئلا ينتظر كل صاحبه ، فيمضى الوقت ونحن نتبادل التلاوم ، ونأسف لفوات الوقت . نريد لنفكر فيما يستطيع معلم اللغة ، بما هو معلم فحسب ، أن يعمله من أجل هذه اللغة التى يعلمها ، ويؤخذ بنتائج درسها ، ونصيب أبناء الأمة منها ، فيقال له كثيرا : إنه غير موفق ، وإن هذه الأمة — بسبب ما أخطأه من التوفيق — لا تجد من لغتها ما تجد الأمم دائما ، فهى قليلة الرواج ، ثقيلة على الأسماع والنفوس ، عسرة الاستساغة ، صعبة

(١) راجع بحث « هذا النحو » ، الذى ألقيت خلاصته فى الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٤٣ ، وهو تحت الطبع الآن .

التعلم... الخ ما يُرمى به هذا المعلم ، ويحمل تَبِعته ، ويؤخذ بآثامه ، وليس هو الجانى وحده ، ولكنها الحياة كلها ، والأمة جميعا .

ويجب أن يقدر أثر ذلك كله ، ليبقى بعد ذلك مايخص المعلم نفسه ، وما يعد أثرا خاصا لعمله أو قعوده ، وصلاحيته أو عجزه ، ونشاطه أو كسله ؛ وما دمتم — معشر المعلمين — مأخوذين بجريرة غيركم ، فأنتم أحوج الناس إلى أن تتقدموا بعمل خاص مفرد ، تسقطون به عن كاهلكم الواجب الاجتماعى ، وتُعْذِرون إلى الجماعة التى أنتم أعضاء فيها ، فلعل هذا يدفع غيركم من الكتائب إلى واجبه ، ويحرضه على الوفاء به . وإن تكن دعوة إلى هذا الوفاء ، وذاك الأداء ، فلعلكم أول من يتصدى لها ، ويعرف بها ، ويحرض عليها ، لعل الله أن يصلح من شأن اللغة ، ما يعوق عملكم ، ويضيع جهدكم ، فينصفكم العاذلون ، ويظهر ماتعطون ، إذا زالت من وجهه تلك العقبات الخارجية القاسية ؛ فلنفكر : ماذا نستطيع نحن المعلمين ، بما نحن معلمون ، أن نفعل بأنفسنا ، وفى مدارسنا ، ومع بنينا التلاميذ ، ومَن حولنا من رجال التعليم ، فنلفت إلى العمل من أجل حياة الأمة اللغوية ، ونغرى سوانا بعمل نافع فى هذه السبيل ؟

* * *

يهدينا إلى التفكير فى ذلك الواجب المفرد لمعلم اللغة ، أن نستبين الغاية التى نهدف إليها ، ونذكر أننا إنما نريد أن نرد على هذه الفصحى ، كثيرا أو قليلا مما فقدت من مسايرة للحياة ، وقرب من الألسن والأفئدة ، وذيوع فى الناس ، ونزول فى منازل أحلتها عنها تلك العامية الشائعة المحببة ، المرنة المتجددة ؛ وليس هدفنا أن نرد هذه الفصحى ، إلى صورة لها قديمة ، بدت بها فى البادية ، أو راجت بها فى الحضر البغدادى ، أو الأندلسى أو الشامى ، منذ قرون بعيدة ، وآماد متمادية ؛ نعم ليس هذا هدفنا ولا غايتنا ، لأن تحققها لا يعود على هذه الفصحى بفائدة ، ولا يرد إليها شيئا مما فقدت .

وتبيُّننا لهذه الغاية ، وتفريقنا الجلى بينها و بين مايتوهم من رد الفصحى إلى صورة ما فى عصر ما ، على ما أشرنا إليه ، تبيننا هذا ، وتفريقنا ذاك ، يدلنا على أن نجاحنا إنما هو فى

أن تقرّب هذه الفصحى فى ذوقها الصوتى ، وجرسها الموسيقى ، من آذان أبناء اليوم ، وأن تخف فى وزنها وصوغها على ألسنة أبناء اليوم ، وأن تتسع وتمرُن لحاجات أبناء اليوم ، وأن تستجيب وتُسْعِف على دقائق من فروق المعانى وسائغات الصيغ التى جلبتها حياة اليوم ، فما بنا أن نرد عبارات منسية إلى الوجود ، ولا أن نلزم بصيغ مهجورة ، ولا أن نروج لأساليب متروكة ، ولا أن نلتزم اصطلاحات بأعيانها ، كانت يوما ما لغة العلم أو الفن ، بل نستعين من ذلك بما تتهيأ له الصلاحية والقرب والإيثار والخفة ، فإن لم يتهيأ له ذلك التمسنا غيره ، وأكسبنا اللغة سواه .

ثم إن تبيننا لغايتنا ، يرشدنا إلى أن هذه العامية ليست أبدا عدوة ، نَصَبت لكيد الفصحى ، والفتك بها ، وأن علينا إمعانا فى البغضاء ، وإرضاء للأهواء ، أن نبيد هذه العامية إبادة ، ونمحوها محوا ، بما أخذت من الفصحى ، وما حفظت من خصائصها ، وما أبقت ، بل ما خلدت من مفرداتها وجملها وأساليبها ، وذوقها وفنها ، لأن ذلك كله قد تدنس وتنجس حين دار فى العامية ، وشاع بوساطة العامية ، وأُلِف بفعل العامية ؟ كلا ، فذلك لا يدنينا من غايتنا ، ولا يدعنا نشرف على شىء من النجاح فى تقريب الفصحى ، وترويجها الذى نبغيه ، لأن الحياة لن تنتظرنا حتى نخلق لها لغة ، وننحت لها ألفاظا ، ونروج فيها عبارات ، وننقى ألسنتها مما عرفت وورثت ، واستعملت واستساغت ، بل ستدعنا وتمضى فى طريقها بسرعة الحياة ، التى تزداد الآن وتتوثب ، فتفى بحاجتها من التكلم والتفاهم من لغات أخرى ، تملأ الأجواء حولنا ، واصطلاحات أخرى تروج أشد الرواج عندنا ؛ وعلى هذا ليس من الخير فى شىء أن نفكر فيما يعمل من أجل الفصحى ، على أساس مقاطعة العامية ، والنفور من مساسها ، بل على العكس من ذلك ، نفكر على أساس الانتفاع ، بما بين الفصحى والعامية من نسب وسبب ، واقتراب واتفاق .

فنقدر أن هذه العامية من مولدات الفصيحة ، يجرى فى عروقها الكثير من دمائها ، وقد تلقت بالوراثة عنها غير قليل من مميزاتها ، وتكونت من كثير من موادها ، كما نقدر أن بين الفصحى والعامية اختلافا وتغايرا ، من حيث راجت الثانية ، وكسدت الأولى ،

وأيسرت تلك فى نواح أملقت فيها هذه ، وبما نفهمه من اختلاف بينهما أو اتفاق ، نعرف ما يعُوِز العربية ؛ وقد نجد الوفاء بشىء منه فى العامية ، نرده إلى أصله الفصيح ، وندع الفصحى تعترف بمكانه فيها ، فيكون رواجه كسبا لها ، لا للعامية التى انتزعته . وقد نجد الوفاء بما نقص العربية من مرانة ومطاوعة فى بعض ما جربت العامية ، واكتسبت بالخبرة من أنماط المسايرة ، وظواهر الاستجابة ، فنكسب العربية من ذلك ما نستطيع إكسابها إياه ، إن كانت أصولها تعين عليه ، أو كنا قد اعتزمنا شيئا من التجدد نكمل به هذا النقص فى فصيحتنا . وفى كل حال ، من الخير أن ندرك ما بين الفصحى والعامية من اتفاق ينتفع به ، أو من اختلاف يتقى شرّه ؛ وهكذا ننتفع بما بينهما من الاتصال ، فى التقريب والتحبيب ، والإغراء والترويج ؛ كما نهتدى به فى الاختيار والإحياء ، والتعويض والتكميل ، على ما سنفصل شيئا منه فيما يلى .

وجملة القول أننا نهتدى فى تفكيرنا بهذين الأساسين : الرغبة فى ترويج فصحى صالحة لعصرها ، لا فصحى من قواميسها وماضيها ومخلفاتها ، ثم نزاول ذلك غير معادين للعامية ، ولا ناسين ما فيها من مادة الفصحى وخصائصها .

* * *

فإذا ما عمل معلم اللغة لوصل الفصحى بالحياة ، على هذين الأساسين وما يتصل بهما ، استطاع أن يقدر أن عمله فى اللغة يتناول نواحى مختلفة ، يجد فى كل ناحية منها مجالا لهذا الوصل والإحياء ، وتلك النواحى هى :

١ — متن اللغة ومادتها .

٢ — نحوها ونظام تأليفها الكلام .

٣ — بلاغتها وذوقها فى الفن اللغوى .

ونحاول أن نسوق كلمة فى كل واحدة من هذه النواحى الثلاث ، ذاكرين دائما أنا إنما نمس عقدة ما بين الفصحى والعامية ، من أجل البلاغة وتعليمها ومنهج ذلك التعليم .

وتلك النواحى الثلاث التى ذكرناها ، تقتضينا معاشر المعلمين أعمالا خاصة بنا ، لا يحسنها

غيرنا ، و بها نقوم فى مدارسنا وفصولنا ، ومع تلاميذنا و بجهدنا الخاص ، فرديا منا أو جماعيا للطائفة ، دون استعانة بنفوذ حكومى أو سلطة قاهرة . وذلك هو ما أفردنا له القول ، ووجهتكم هنا إلى التفكير فيه وحده ، لئلا تنتظر كل جماعة منا غيرها ، فينتهى بنا العمر متواكلين لا نحقق شيئا . وجملة العمل فى تلك الجوانب الثلاثة من دراسات العربية هى :

١ — عمل قاموسى : يتصل بمتن اللغة ، وربطه بالحياة ، وإجرائه معها ، أو مسايرته لها.

٢ — عمل نحوى : فى قواعد تأليف الكلام ، ومنع اضطرابها به ، وتيسير ضبطها ، وقرب الكلام النحوى من لغة الحياة قدر الطاقة .

٣ — عمل بلاغى أو فنى ذوقى ، فى الرياضة على تذوق الفن الأدبى للغة ، وجعل هذا التفنن والتذوق مسايرا للمزاج العام فى سائر الفنون ، ونواحى الجمال ، وطرائق التعبير المختلفة عن إحساس الحسن ، والشعور بالجمال .

وإليكم الكلام عما يستطيعه المعلم بنفسه فى الجانب الأول .

* * *

١ — العمل القاموسى

أو العمل فى متن اللغة ومفرداتها ؛ وهى المادة التى يجرى فيها العملان : النحوى والبلاغى ، فمنها تأتلف الجمل المفهمة ، ومنها يصاغ القول الفنى وطرقه . وقرب مفردات اللغة من الحياة ولغة الحديث ، يهون عمل النحوى المعقد فى لغتنا ، ويُفسح المجال لتعليم قواعد النحو الواسعة بالممارسة والتلقين ، والحديث والاستماع ، فالعمل فى المفردات يخدم التجديد النحوى خدمة قريبة مثمرة ، يتهيأ معها التيسير ، والأخذ بالأساليب الحيوية المباشرة ، فى تعليم خصائص نظم الجملة العربية .

وأما فى الفن والتذوق فجلى جدا ، أن قرب مفردات اللغة من الحياة اليومية ولغة الحديث ، من أشد ما يكون ضرورة لإمكان كسب الذوق الفنى للغة ، والاتصال المثمر بآثارها الأدبية الكبرى ، والتمكن من الشعور بما أحسه أصحاب هذه الآثار ، وما رموا إليه

حين نظموها . ولا غرو فإن هذا التذوق يقوم أول ما يقوم ، على وجدان وقع اللفظة ، والشعور الفنى بجرسها ، ثم بدلالتها المعنوية ، وإثارتها النفسية ؛ ويلى هذا خصائص النظم وسر التركيب . ومن هنا يكون حديثنا فى العمل القاموسى ، الذى يستطيع مدرس الفصيحة اليوم أن يقوم به ، فى سبيل وصلها بالحياة ، إنما هو حديث يعنى النحوى ويعنى البلاغى جميعا ، ويذلل المشكلة الأساسية تذليلا له قدر وله قيمة .

ونوع العمل المرجو ومداه ، يتبين مما قدمنا من شرح لمشكلة ما بين الفصحى والعامية ، وأثر كل واحدة منهما فى صاحبتها ، وتأثرها بها ، وهو كما أشرنا يتصل بالمفردات والجمل ونظم الكلام ؛ وتغنينا هنا الإشارة إلى ما يتصل بمفردات اللغة ، إذا أدركنا أن قيام هذه العامية ، قد أثر فى مزاج متعلمى الفصحى ، من حيث الجو اللغوى ، والأنس الصوتى إلى أحرف دون أخرى ، بما هى معبرة عن أصوات بعينها ؛ فنعرف مثلا أن العامية المصرية تعاف حرف القاف ، وتتندر به ؛ ونعرف أن لهاجيا خاصة النطق تختلف عن جيم الفصحى ؛ ونعرف أنها تكره القلقلة فى نطق الساكن المقلقل فى الفصيح ؛ وأنها لا تصوت الثاء كما تطلب الفصحى من إخراج اللسان فيها ؛ وهى تبرم بالظاء كذلك ، ولعلها تقلبها ضادا دائما ؛ ونحو ذلك مما يتبينه المتتبع لهذه الفروق فى النطق ، والحس الصوتى ؛ وتلك فى الأحرف قد تكون هينة الخطر ، يسيرة الشأن ، لكنا إذ نبغى الإلف ، ونطمع فى التقريب ، ننظر لمثل هذا الفرق ، ونقدر أثره فى ذلك القرب والإلف .

ثم فى الكلمات ، نرى الفصحى بما عوقتها العامية وعزلتها ، قد افتقرت إلى أشياء متعددة ، ننظر فيها كلها ، لنرى ما نستطيعه منها ، وندع ما لابد للمعلم بعمل خاص فيه ؛ فمن تلك الأشياء :

١ — *كلمات مستحدثة لمعان مستحدثة* ، مما جدّ ويجد فى الحياة ، وبخاصة تلك الحياة التى يقوم فيها الشرق مقامه هذا المتخلف ، على ما نعرف ، وقد كثر الكلام فيه ؛ والتيار فى هذا جارف عنيف ، يحتاج إلى جهد كبير وعلاج حاسم ؛ ولكن عمل المدرس فى هذا

ليس أولا ، ولا يكاد يتفرد فيه بعمل مفرد ؛ فندع علاج ذلك والعمل له ، لغير هذا المقام من القول .

٢ — **كلمات معربة قد واتاها الاستعمال** ، حتى ابتذلت و بدت عامية ليس لها فى الفصيحة نسب ، على حين هى فى حقيقة الأمر فصيحة المادة والصيغة ، صحيحة النسب فى الفصحى . والأمثلة لهذا الصنف كثيرة ، لانرى بأسا بأن نشير إلى شىء منها ، عامىّ الاستعمال فصيح الأصل ؛ وهى أسماء وأفعال مثل : النَّتْش ، والنَّتْر ، والفَشّ ، والوَدَع ، والبَخْت والسُّبوع ، والمبالَطة ، والمناكَفة ، والجَرْمَزة ، واليدّ ، (مشددة الدال) والسَّبْع (مسكنة الباء) والكِبْد ، والكِرْش (بكسر الأول ، وتسكين الثانى) والحَرْد ، والنَّكْت ، والشَّطْف ، والسَّلْت ، والسُّكات ، والزُّوّادة ، والنَّوْرَج ، والبَطَّة ، والسَّطْل ، والرَّبابة ، والجُرْن ، والسِّكِّينة ، والعَزْق ، والسَّخّ ، والقَصَل ، والخُصْم ، والفَرْتَكة ، واللُّغْد ، والتَّزْنِىء ، والدَّخْمسة ، والزَّعْط ، والتربيع للأرض ، والمَلْك ، وكَشّ ، وفَرْشَح ، وفَشَخ ، وشَاط ، وزَرَدَه ، ووَدَّرَه ، وسَبَّع ، وانْزَبَق ، و بَلَّط ، وصَمَل ، والصَّمولى .

و يتصل بهذا الصنف من الكلمات العر بية اللفظ ، العامية الاستعمال ، ما يكون التغيير فيه يسيرا هينا ، بضبط أو تغيير حرف واحد قر يب ، وما إلى ذلك مثل : حَولىّ فى حُولىّ ؛ وطحطح فى صحضح ، والعُرة فى العِرة ، واللغوسَة فى اللغوصة ، والبِزْباز فى البَزْبوز ، والرِّزْمة (بكسر الراء وفتحها) فى الرُّزْمة ، والبُرجاس فى البِرجاس ، ورَفَس فى رَفَص ، واللَّطْس فى اللطش ، وتفلّص فى تفلفص ، والجِعِرّى فى الجِعِرّ ، والدماك فى المِدْماك ، والغرزة فى الغُرزة ، ورأرأت العين فى رارت ، و يستأهل فى يستاهل ، ونحو ذلك .

٣ — **كلمات مهملة قد أعطاها الاستعمال** ، وهى تصلح لأداء معانى كلمات استعملتها العامية من غير العر بية . ولا أر يد هنا ذلك التعسف فى استخراج كلمات مهملة ، لم تكن يوما ما مصطلحات علم ولا فن ، ولا لغة حياة ومعيشة ، مما يصنع صنعا ، أو يلتمس لأدنى مناسبة ، أو ما إلى ذلك ، فلا يكون نصيبه إلا الإهمال والتندر ، والسخر ية المبعدة للفصيحة

وحُماتها عن دنيا العمل والعلم والفن ؛ وإنما أشير بذلك إلى مصطلحات علمية فعلية ، حفظتها علوم السلف ، ودونتها كتبهم ، أو حفظتها أعمالهم وصناعاتهم وفنونهم ، أو حفظها التاريخ عن نظام حياتهم ، وما كانوا يتناولون من أدوات وأمتعة ، أو يعتادون من عاد ، أو يستعملون من عبارات فى مناسبات الحياة المختلفة ، مما سبيله الاطلاع العميق ، مع المعرفة الكافية بشىء من أصول تلك العلوم أو الفنون ، والخبرة بأوضاع الحياة ، بحيث يستطيع القارئ أن يتصور ما يقرأ من اصطلاح علمى ، أو مواضعة فنية ، أو صنعة عملية . وهو فى هذا العصر يعرف من حياة العلم ما يمكنه من أن يقدر القرب أو البعد بين هذا المصطلح القديم ، و بين مايقترح أن يُستعمل فيه من شؤون اليوم . وكذلك أمره فى الفنون وما إليها ، أو فى مواضعات الناس وعرفهم ، بحيث لا يجمع بين متباعدين ، ولا يقترح وصف الترام بصفة حمار ؛ ولا المخترَعَ الكهربى أو المغناطيسى بما هو صفة آلة خشبية ، أو لعبة صبيانية ؛ أو يضع لعرف مدنى راق ، كلمة صحراوية خشنة ، مما وصفت به أمتعة البادية أو حيوانها ؛ ولهذا الصنف نظائر وأمثلة : منها ما فى العلوم الطبيعية والرياضية من كتب الفلسفة والعلم القديمة ، ومنها ما فى الموسيقى والتصوير والمسرح مما فى حديث القدماء عن تلك الأشياء ، أو عما يتصل بها ، فى الشعر أو الخطابة أو النقد ، وما إلى ذلك ؛ ومنها ما فى كتب اللغة ومعاجمها نفسها ، وهو صحيح مطابق لما نلتمس له الكلمة اليوم ، كالمسوجَر للخطاب ، والتدريم لتزيين الأظافر ، والمِمطر لما لاينفذه الماء من الثياب ، والربيعة لحديد الرياضة مثلا ، وما إلى ذلك ، مما هو مساو أو قريب جد القرب لما يستعمل فيه ، دون جسوة فى الأذن ، ولا نبوة عن الذوق .

٤ — <u>كلمات ترف</u> ، أو ظواهر ثروة لغوية ، لا ننكر ما شئتم أن تنعتوها به ، أو تنعتوا اللغة العربية به من أجلها ؛ و إنما ننظر إليها نظرة عملية ، تنبعث عن روح اليوم ، وحاجة الحياة الجادة السريعة حولنا ، فنرى أنها تعوق الغرض المرجو من اللغة فى حساب الذين اتخذوها أداة الإفهام ، وتمنع السبيل إلى الإبانة التى هى كل مايرجى من اللغة ، وترجى اللغة من أجله ، ونعنى بهذه الكلمات الترفة — التى لا تيسر سبل الإيضاح ، و إن يسرت غير ذلك

من رغبة ـ نعنى بها صنوفا من الألفاظ اللغوية متعددة منها : أولا **الأضداد** ، وثانيا **المشتركات** لفظية ومعنوية . ولا حاجة بكم إلى تعريف بهذين الصنفين من كلم اللغة ، كما لا أحسبكم تنكرون أن مثل هذه الكلم لا تقرب غرض المتكلم من السامع ، ولا تعرب عن فكرة يراد نقلها من قائل لمخاطب . وأريد بعد ذلك أن أضع فى صف هذه الكلمات الترفة صنفا ثالثا هو **المترادفات** ، فإنكم لتعرفون أن هذه المترادفات ، فى حقيقة الإفهام الدقيق ، لا تؤدى معنى واحدا بعينه ، بل هى دوالّ على معان مختلفة ، وأحوال متغيرة ، ولو أنها لشىء واحد ، وإن تكن اللغة على مر الزمن ، قد نسيت هذه الفروق فى المفهوم ، ونظرت إلى ترادف هذه الألفاظ ، فقد أمست تلك المترادفات ، حين تدل على مظهر من مظاهر الغنى والوجد ، تدل فى حساب العمل والجدوى ، على أسباب من العنت والإرهاق ، فى حفظها وتعرفها ؛ ثم هى لا تسعف على شىء مما يلتمس الناس اللغة من أجله ، فسواء أكان للسبع أو للكلب أو للسيف أو لكذا وكذا ، مئات من الأسماء ، أو كان لكل واحد منها اسم واحد ، فالمتكلم المتفاهم المستفيد المتعامل ، يدل على كل واحد من هذه المسميات باسمه الواحد ، دون أن يعنيه من ذلك شىء ، على حين يلحق العنت بذلك الطفل المتعلم ، حين يحفظ مفردا من مفردات اللغة ، يحسبه هو ما خصت اللغة به ذلك المسمى ، كما فعلت فى أكثر مسمياتها ، فإذا به يفجأ بعشرات أو مئات من الأسماء لهذا الشىء ، يضجره جهلها ، ويتعبه تعرفها ، ويشق عليه حفظها . ثم هو بعد أن يتكلف لذلك التعرف والتذكر ما يتكلف ، لا يجده قد استغنى بذلك عن شىء ، أو ازداد معرفة بشىء ... وأعرف أنكم ستذكرون — إن لم تقولوا بألسنتكم — تلك القولات المرددة عن قيمة هذه المترادفات أدبيا ، فى القافية وما إليها ، مما سمعنا وسمعتم عن توسيعه على الأديب وصانع القول ، كما رأيتم ورأينا أنه إنما ينبغى أن ننظر أولا إلى متلقى اللغة ، ليفهم ويفهم ؛ ودارس اللغة ليعلم ويعلم ؛ وكل من يبتغى من اللغة تلك الغاية الأولى من تبادل الاتصال ، وارتباط الأذهان وتعارف النفوس ، وقضاء المآرب ، قبل أن ننظر إلى ما وراء ذلك من رفاهية أدبية ، ربما لا تزيد كثيرا بهذه القافية الموحدة والسجعة المتفقة ، ولا تنقص كثيرا ، لو شَقّتْ سبيلها إلى هذه التقفية ، وهاتيك المزاوجة ؛

فهذه المترادفات فى الحق ثروة لا سوق لها ولا وزن فى منافع التعامل ، مع كونها عقبة إلى حد ما ، فى وجه متلقى متن اللغة ، ومحصل مفرداتها ، ودارس أدبها ؛ وهى شىء مما يعوق اتصال الفصيحة بالدنيا ، والقرب من الألسنة والقلوب ، على ما نبتغى لها ونحاول .

***

تلكم الظواهر الأربع هى ما نرجو أن ينظر المعلمون فى التدبير له وحدهم ، وبعمل جماعتهم ، ونحن معتقدون ، أن هؤلاء المعلمين يستطيعون أن يقوموا للفصيحة بشىء فى هذه الجوانب ، يخفف بعض صعوبتها ، ويقربها بعض الشىء من أنفس الدارسين ، ويعدها للوفاء بحاجة متكلميها ، الذين أبقوا إلى العامية ، وظفرت العامية بألسنتهم وأفئدتهم ، حتى ما يسلم الذى تعلم الفصحى طويلا ، من أثر ذلك فى قلمه إذا كتب ، ولسانه إذا شافه ، فماذا نصنع فى هذه النواحى الأربع ؟

ونحب قبل الإجابة عن هذا السؤال ، أن نلفت النظر فى عناية ، إلى غرض هام نقدمه بين يدى هذه الإجابة ، وهو :

أصل عام نؤصله فى هذا الأمر ، وأشعر أنه ملتقى كل خير فى هذه المحاولة ، لغوية كانت أم نحوية ، أم بلاغية ، وذلك الأصل فى إجمال : هو ألا يشعر متعلم العربية الفصحى حين يبدأ تعلمها ، أنه يتعلم لغة أخرى أجنبية ، تختلف اختلافا جوهريا عن لغة الحياة ، التى يستطيع الطفل أن يعتمد عليها قبل دخوله المدرسة ، ويجد فيها وفاء حياته اللسانية ، وحياة قومه وأهله . ذلك أن الشعور بغرابة الفصحى وأجنبيتها، هو أساس العقدة النفسية فى تعلمها، ومدار الأزمة فى بعد الفصحى عن الألسنة والأفئدة ، على ما قلنا . وبرعاية هذا الأصل ، وتقدير الأثر النفسى لذلك الشعور ، نعلن الطفل — أول ما نلقاه فى درس اللغة — أنه لا يتعلم مادة من المواد الدراسية ، التى يحشد لها قواه ، ويهيئ لها نشاطه ، بل يتعلم الرقة والأناقة فى الحديث والكلام الذى يليق بتلميذ المدرسة المتعلم المهذب ، إذ هو يرى أن الناس تتفاوت لغات حديثهم بتفاوت درجات تهذيبهم ورقيهم ، فخادمته القروية حين تفد من الريف ،

تتحدث بعبارات وألفاظ يضحك المدنيون من سذاجتها ، كما ينفرون أحيانا من خشونتها وقسوتها وقلة ذوقها ؛ و إذن فهو إنما يدخل درس اللغة ، ليتعلم كيف يتحدث اللغة حديثا مهذبا، مناسبا حياته المدرسية الراقية ، التى لم يدخل المدرسة إلا سعيا لها ، وعملا على تحقيقها. و بتأصيل هذه الفكرة فى نفسه ، وتكرارها على سمعه ، تطمئن مشاعره ، إلى أنه لا يتعلم لغة جديدة ولا أجنبية ، و يتابع السير فى طريقه ، مطمئن الروح إلى أن هذه الفصحى ليست إلا الصورة الراقية المهذبة للغة الشارع والدكان ، و يقبل نفسيا على تعلم هذه الصورة المهذبة من اللغة ، كما يرى من حوله يهذبون أحاديث أبناء القرى ، فيبدلون لهم لفظا بلفظ ، ويطلبون إليهم استعمال عبارات مكان عبارات ، وهكذا يأنس إلى أن الذى يتعلمه من اللغة ، إنما يتعلمه ليستعمله ، و يستعين به فى الحياة ، ويكون إقباله المعنوى والمادى على درس اللغة أكثر وأرجى .

ثم هدف عام: وحين نتأثل هذا الأصل العام ، بين يدى كل محاولة إصلاحية لمعلم اللغة ، ونراه الأساس الذى يقوم عليه الصحيح من تلك المحاولات ، نريد لنغرى هؤلاء المعلمين للفصحى بهدف عام ، يتجهون إليه فيما يتناولون من تعليمها ، ثم ما يحاولون فى ذلك التعليم من إصلاح حالها مع العامية ، وذلك الهدف العام هو الغرض الاجتماعى ، الذى نرجو أن يتمثله معلمو العربية ، أو كما سميتهم فى إهدائى هذه المحاضرات « الذين يدبرون مزاج الأمة الفنى » ، وذلك الغرض الاجتماعي الأكبر ، هو إشعار التلاميذ فى كل دور من أدوار تعلمهم ، منذ يتكلفون النطق الصحيح ، إلى أن يجهروا بالبيان الفنى الناضج ، إشعارهم بأن هذه اللغة شىء من قوامهم الحيوى ، وكيانهم الفعلى ، ومساك لجماعتهم ، ورباط لوحدتهم ، وقوة فى شعورهم بأنفسهم ، ووجدان أمتهم لذاتها ، و إبعادهم قدر ماتنال الطاقة و يمتد التأثير ، عن أن يشعروا بأن هذه اللغة مادة يتعلمونها لينجحوا فى الامتحان ، أو يحرزوا إجازة من الإجازات ، أو يظفروا بمنصب من المناصب ، بل هى مما يقوم به وجود الثرى المستغنى ، كما يقوم بها وجود الفقير المُكدِى ، وبها تتبادل الأمة مشاعرها ، وتؤصل معنويتها ،

وتقرر وحدتها ، فإذا استغنى المستغنى عن أن يحسب ، أو يصنع ، أو ينظر ويدرس ، أو يقوم بغير ذلك من عمل تؤهله له دراسة مادة بعينها ، وفرع لذاته ، فليست اللغة من ذلك فى شىء ، وما يمكن أن يستغنى عنها فرد فى قومه ، أو أمة بين الأمم ، لأنها طابع من طوابعها، وجانب من نشاط حياتها . وبقدر ما يشعر به التلميذ من ذلك ، يكون إقباله على درس اللغة وفنها القولى ، إقبالا له جدواه على الدراسة ، وأثره فى حسن النتيجة . وذلك الهدف العام ، هو ما ينبغى أن ينتبه له المدرس فى كل لحة وبرهة ، ويعمل لترسيخه فى النفوس ، وتقريره فى القلوب بشتى الوسائل ومختلف الأساليب ، مما لا يُعلم ولا يوصف ، بل تهديه له لباقته ، ويهيئ له العمل التعليمى من سبله ما هو قادر على الانتباه له ، والانتهاز لفرصه ، دون أن يلقى عليه وصف له أو تعريف به ، أو هداية إلى طريق اغتنامه . وإذا ما بدأ المعلم دروسه اللغوية وقد أشعر تلميذه أنه لا يعلمه مادة غريبة ، ولا لغة أجنبية ، وأنه إنما يصقل منه منحة وموهبة ، فيه أصلها ، وعنده المقدرة فيها ، ثم أشعره كذلك أن هذا الذى يُعلمه من مواد اللغة ، ليس شيئا يستغنى عنه أحد، مهما يكن شأنه أوعمله أو مركزه، وأنه قِوام لوجود الفرد فى جماعته ، ووجود الجماعة بين الجموع ؛ إذا ما تأصل هذا الأساس، وتجلى ذلك الهدف ، رجوت أن يجدى عمل المدرس فى تعليم لغة الأمة ، وأن تكون محاولته فى علاج مشكلة حياتنا اليوم بين الفصحى والعامية ، محاولات موفقة مرجوة الخير ؛ وعلى قوة هذا الأصل ، وهدى هذا الهدف ، أشير إلى معالم مايستطيعه المدرس وحده أو مع قومه المعلمين ، من **عمل لغوى** : حول الظواهر الأربع ، التى قدمنا بيانها ، مما خلفته العقدة المادية بين اللغتين ، الفصحى والعامية .

فأما الظاهرة الأولى ، وهى فى أحرف اللغة ونطقها ــ انظر ص ١٢٤ وما بعدها ــ فنرجو أن يقدر المعلم ، حين يجلس التلميذ بين يديه ، وقد ألِفَ من ذلك أصواتا ، فى النطق ، ونَفَر من أصوات ، وتكونت له عادة لسانية تجعل أداءه لأصوات الفصحى مخلا برسوم مايقرره المجوّدون ــ نرجو أن يقدر المعلم ، فى سعة صدر ورحابة قلب ، ماأورثت العامية من ذلك ، فلا يئود الصبى به ، ولا يقيم منه صعوبات وعقبات ، بل يتلطف به ، مقربا له إياه بنظائر

ذلك ، من عناية اللغات حتى اليوم بمخارج حروفها ، وتحقيق أصواتها ، ويتأنى فى ذلك متريثا محتالا له ، فى وقت متسع وصبر مديد ، لا يضجر معه الصبى بما يطلب إليه ولا يَبْرَم به . ومع الوقت يحسن الصبى نطقه ، ويكتسب عادة نطق جديدة ، ولو قد قلت للعلم إن من الخير لعمله أن يُعفى الصبى من بعض حروف تثقل على لسانه ، ولم تعرفها لغته ، يعفيه إلى حين من القاف وقلقلتها مثلا ، حتى يهيئ لذلك جوه ، ويعده لإلفه ، لو قد قلت ذلك لم أبعد ، ولرجوت ألا يجد المعلم فى مثل هذا من الرياضة والترفق عنتا ، بل يكون له من دقيق الحس ونافذ الذوق ، ما يمنع أسباب التندر ، المفسدة لتقدير الصبى لتلك اللغة المنمقة الأنيقة ، التى تشعره أنه حين يتعلمها فى المدرسة ، إنما يصقل لسانه ، ويتحدث حديث المهذبين الراقين ، لا حديث من يسخر منهم ، ويَعبث بهم ، فى فكاهات تطرق سمعه ، وتقع عليها أحيانا فى الصحف عينه ؛ ذلك الترفق وما إليه مما يقال ولا يعلم ، هو ما تتطلبه الظاهرة الأولى فى الصوت والنطق .

* * *

وأما الظاهرة الثانية ، من عُقد اتصال اللغتين ، وهى حظوة بعض الكلمات وجفوة بعض آخر فى العامية ، حتى كان من مادة الفصحى ما شاع فى العامية ، إلى أن جعلت تنبو عنه لحظات الأدباء ، ظنا منهم أنه بإلف العامية له ، قد خرج من فصاحته مادة ، أو فقد سلامة بنائه — انظر ص ١٢١ و ١٢٥ — والمعلم فى هذا الصدد بحيث يرجى منه أمران :

١ — أن يفرق بين الأثر الفنى لعامية الكلمة ، والأثر اللغوى فى التفاهم الأول ، فيؤخر تقدير الأثر الفنى للعامية ، إلى دور متأخر عن النقد والتذوق ، أو الكتابة وصنعة الجيد ، وهو دور لا يصل إليه المتعلم إلا أواخر التعليم الثانوى . وأما فى بدء التعليم ، فالذى ينبغى هو أن يقدر المعلم أن أنس الصبى بكلمة دارت فى لغته اليومية ، لغته الأولى قبل المدرسة ، إنما هو وُصلة طيبة للشعور الذى نحرص عليه ، من عدم نفور الصبى من الفصحى لأنها لغة أخرى ، ومادة تعلم جديدة ؛ فلندع الصبى يحس أن معجمه اللغوى غنى بكلمات عرفها قبل المدرسة ، ولا يزال يأمل أن يجد فى محفوظه ثروة لغوية ، تقبلها اللغة الأنيقة ،

لغة المتعلمين أبناء المدارس ، فليحرص المعلم على ألاّ يفجع الصبى فى عُروبة هذه الكلمات الأثيرة عند العامية ، ما دامت فصيحة المادة والصيغة ، وليدع الصبى يستعملها ويعتد بها ، بل هو مطالب بعد ذلك بأمر ثان هو :

ب — أن يساعد المتعلم على استحضار هذه الكلمات ، ويميزها له مؤكدا صحتها وإمكان استعمالها ، وليشعره بذلك — فى قرب — أن اللغة التى يعلمه إياها فى المدرسة ليست لغة أخرى ، غير التى يفهم بها من حوله ، ويفهمونه بها .

وهذه المساعدة من المدرس إنما تكون بأن ينطلق فاحصا عن لغة البيئة التى فيها مدرسته ، يميز من كلماتها ما هو عربى الأصل ، يجمعه ويستوثق من عربيته ، وينسقه ، ويستحضره فى مناسباته ، ويطمئن الصبى على صحته ، ويغريه باستعماله ، ويقدمه على ماسواه من كلمات لا يعرفها الصبى ، ولا عهد له بها ؛ وبهذا الصنيع من تتبع المعلم لعربى الأصل من لغة بيئته ، يكاد يكون لكل بيئة معجم ، يفترق قليلا أو كثيرا عن معجم بيئة أخرى ، ولكن لو أمكن أن يوضع لصبيان المصريين معجم يحوى أول ما يحوى ما عرفت مصر من مفردات عربية أصلا ، مصرية العامية استعمالا ، وقد اتقيت فيه عيوب المعاجم ، التى طال وكثر حديث الناس عنها فى السنين الأخيرة ، لكان مثل هذا المعجم عملا صالحا من مدرسى الفصحى ، يقربون به مسافة الخلف بينها وبين لغة الحياة ، ويُنزلون الفصيحة منزلة أثيرة نوعا ما فى نفوس قومنا ، محببة إلى قلوبهم أكثر مما هى الآن ، وذلك أوكد أسباب نجاح مهمتهم التعليمية ، وجهدهم فى تعقب هذه الكلمات وجمعها، إن فى بيئاتها الخاصة ، وإن فى قاموس مشترك يعود عليهم بالنجح فى عملهم عودا قريبا ، يعوض متاعبهم فى هذا الجمع والتنسيق .

ونحن إذ نتحدث عما يستطيعه المعلم فى فصله ، ومع تلاميذه ، غير منتظر معاونة أخرى ، لا نشير عليه بأن يؤخر العناية بهذه الكلمات الفصيحة أصلا ، العامية استعمالا ، حتى يصح العزم على وضع المعجم المشترك ، بل ننصح له أن يجد وحده ، وفى بيئته غير مستقل ما يظفر به من ذلك ، ولا مهون من أثره فى تقريب الفصيحة وإلفها .

وأما الظاهرة الثالثة ، من آثار ما خلفت العامية ، فى زميلتها ، فهى إهمال كلمات قل استعمالها ، وإن فيها لغناء اليوم ببعض ما تبغى الحياة — انظر ص ١٢٥ — وعمل المعلم فى سبيل حل هذه العقدة ، ليس عاما شاملا لمراحل التعليم كلها ، على اختلاف الأسنان ، وتنوع أصناف التعليم ، بل هو فى الغالب خاص بما بعد مرحلة التعليم الابتدائى ، من تعليم فنى أو صناعى أو زراعى متوسط أو ثانوى ، حين توجد المدرسة الثانوية الصناعية أو الزراعية أو الفنية ؛ فعلى المعلم فى هذا التعليم أن يقدر واجبه الخاص فى هذه السبيل ، ولا يخلد إلى كسل يشركه مع سائر زملائه من معلمى التعليم الثانوى أو غيره ، بل عليه فى سبيل الوطن واللغة ، أن يتكلف جهدا متصلا فى سبيل تجددٍ يصله بمخلفات الحضارة العربية القديمة ، من فنون وصناعات وعلوم أيضا ، ليستخرج من مصطلحاتها ومستعملها ما دفنته الأيام حين خبت تلك الحضارة ، وليعالن زملاءه بأنه على أهبة أن يمدهم بما يحتاجون إليه من كلمات تحل من قرب محل مصطلحات واستعمالات ، تحتاج إليها الحياة الفنية أو العملية أو العلمية الآن ، دون أن ينتظر فى ذلك ما يتمه المجمع أو نحوه من هيئات تحتاج إلى أزمنة متراخية ، وبهذه المعالنة سيجد من زملائه معلمى تلك العلوم أو الأعمال ، المعونة اللازمة لتحرير هذه العبارات والمصطلحات ، والتحقق من مقابلتها لنظائرها التى تحتاج إليها هذه المواد فى دراسة العصر ؛ وإن يسيرا من الاتصال بين معلمى هذه المدارس الفنية أو العملية ، ليهيئ لهم انتفاع كل واحد منهم بما وصل إليه جهاد زميله ، والاتفاق من ذلك على الأمثل والأصلح ؛ فإن لم يكن هذا الاتصال ، فليواف كل واحد منهم ، هذا المجمع اللغوى بثمرة جهوده فى ذلك ، شعورا منه بواجبه الكريم فى إحياء هذه اللغة وإنعاشها ، وتقديرا منه لما يتطلبه هذا الواجب من عمل ، وراء ما يقوم به المعلم فى مدرسته وحصصه . وإنكم لتقدرون هذا الواجب خير تقدير ، لأن حيوية هذه اللغة ونهضتها قوة لا بد منها لإحياء هذه الأمة وإنهاضها ، وأنتم أهل الواجب الأول فى إكساب قومكم تلك الصورة اللغوية ، فأنتم حماة حياتها اللسانية ، ومدبرو مزاجها الفنى .

* * *

وأما الظاهرة الرابعة ، من ظواهر التعقد فى حياة الفصيحة، فهى تلك البقايا الأثرية الزائدة ، من ظواهر التراث اللغوى ، من الأضداد والمشتركات والمترادفات على ما مضى بيانه — انظر ص ١٢٦ — . وهذه ينبغى أن يستريح من عنائها كل من لا يتعلم العربية ليعلمها ، فأولئك الشبان الذين يريدون أن يظفروا من اللغة بأداة للحياة ، ومادة للإفهام ، لا حاجة بهم إلى شىء من هذا الثراء المجهد ، الذى قد يظفر منه الشاعرون أو الناثرون بحاجة القافية والسجعة . على أنك إذا أبيت إلا أن يعرف هؤلاء شيئا من هذه الزوائد ، فلا أقل من أن تؤخر هذا تماما ، إلى ما بعد التعليم الابتدائى ، فلا حاجة بالناشىء الصغير إلى هذا التكثر ، ولندعه إذا ما حفظ اسما لشىء ، لايفجع فيه بعد يسير ، حين يراه مستعملا فى ضده ، أو لا يظفر به مستعملا حين يجد غيره بمعناه فى مكانه ؛ والرأى أن يخلو المعجم الابتدائى ، الذى طلبنا تهيئته للصغار ، من تلك الأضداد والمترادفات والمشتركات ، حتى يستقر فى ذاكرتهم ما عرفوه على وجه ، فى مواطن استعماله ؛ وإن لم يكن من مثل هذه المشكلات مفر ، فليواجهوا بها بعد أن يصلب عودهم ، ويشتد ساعدهم .

تلكم نواح للعمل اللغوى الذى يستطيعه المدرس فردا ، أو واحدا فى قبيل من إخوانه يشعرون بواجبهم الاجتماعى لحياة أمتهم اللسانية وحاجتها التفاهمية . عمل تقوم به هذه الطائفة من معلمى لغة الأمة أفرادا أو جماعات ، إلى أن يصح العزم من سائر القوى والطوائف الأخرى ، على أعمال تعاونية تُضيق مسافة الخلف ما استطعنا بين لغة الحياة ولغة الأدب ، وتحل تلك العقد المربكة لحياة الفصحى .

ولطالما خفتم أن يلقاكم مفتشو اللغة العربية بمخالفة متسلطة تثبط من عزائمكم ، إذ تأبى عليكم مثل هذا الحق فى إيثار كلمات ، وبعث كلمات ، وتنحية كلمات ، على نحو ما وصفنا ؛ ولكنى أحسب أن إخواننا فى هذا التفتيش ، يشاركوننا ولا مراء هذا الشعور بعزلة الفصحى ، ونأيها عن الألسنة والأفئدة ، ويحبذون كل عمل راشد فى سبيل تحبيبها وترويجها ، وهم لابد متخلصون من القيود الشكلية ، والموانع الرسمية ، بعد أن يدركوا فى قرب أغراضكم النبيلة ، ومحاولاتكم الكريمة . وإن يكن من هذه الممانعة شىء أول الأمر

فلا عليكم أن تحتملوا فى سبيل مقصدكم الشريف شيئا من المخالفة أو طرفا من المقاومة ، لتقوموا من جانبكم بالتعريف والدعوة لما تبغون ؛ تعريفا يزيل اللبس ، ودعوة تكسب الأنصار . وحسبنا هذا من الحديث عن العمل اللغوى ، لنقول كلمة عن :

العمل النحوى

والمجال فيه أضيق مما عداه جميعا ، لأنه يمس أصولا وقواعد ، هيهات أن يستطيع العمل الفردى فى جوهرها وصميمها تغييرا ، والجماعة إزاءها متوقفة متهيبة ، تصر على أن تخرج اللغة عن ناموسها الاجتماعى ، وتأبى عليها أن تكون مرنة طيعة ، مواتية للحاجة ، مطيعة للتغيير ، ولا تنكر على هذه القواعد جمودها بل تصلبها ، وتفيض عليها شيئا من القدسية الزائفة ، تصل فيه بين القرآن وتلك القواعد وصلا لا أصل له ولا أساس ، ومناقشة ذلك كله والتهوين من خطورته ، مما عرضت للكثير منه فى البحث الذى سبقت الإشارة إليه قبل الآن ، وعنوانه « هذا النحو ». و بقى بعد ذلك واجب النظر فى مناهج أولئك النحاة ، وخطتهم التى سلكوها فى استخلاص هذه القواعد ، وتقرير حدودها ، وهو منهج ليس صائبا دائما .

ولكنا هنا لا نزيد على الإشارة إلى ما يحتاج إليه ذلك المنهج من بحث ، يجب أن يصمد له أصحاب العربية ودارسوها ، ونرجو أن ينتهى درسهم المخلص ، وجهادهم الصادق ، إلى عمل يقرب هذه الفصحى من المقاول والأفئدة ؛ على أنا لا نيأس من أن يكون للمدرس وحده شىء من الجهد فى هذا السبيل ، مهما يبد غير خطير ، فإن فى دوامه وصدقه خيرا لا بأس به ، فى سبيل ما نأمل من تحبيب فى هذه الفصيحة .

ولعل كل ما يرجى هنا من عمل المدرس النحوى ، إنما هو عمل سلبى لا إيجابى ، أو بعبارة أخرى هو عمل نفسى لا خارجى ، يتبين بعد التنبه إلى ما أحدث الصراع بين الفصحى والعامية من عُقَد فى حياة الأولى من الجهة النحوية .

فأولى هذه العُقَد ، أن العامية لا تكاد تعرف هذا الإعراب ، أو هى على التحديد التام

لا تعرف إعراب الحركات مطلقا ، ولا تعرف من إعراب الحروف إلا صورا ثابتة لاتتغير ، كالزامها جمع المذكر الياء ، وإلزامها بعض الأسماء الخمسة الواو ، وبعضها الألف ، فهى تقول مثلا « المسلمين » رفعا ونصبا وجرا ، وتقول « أبوك وأخوك وحماك » ؛ ومن هنا كان الإعراب الذى هو مِلاك عملنا النحوى فى الفصحى ، أمرا خاصا بها ، لا يعرفه تلاميذنا فيما تعلموا من لغة عاشوا بها أعواما قبل الجلوس إلينا ، ويظلون يعيشون بها أيام تعلمهم ، أكثر مما يعيشون بفصحانا ؛ وهذا الفارق الجوهرى بين اللغتين ، يعرضنا لخطر شعورهم بأنا نعلمهم لغة أخرى ، ومادة غريبة عنهم ، وهو ما نحب أن نتلافاه ، ولا ندع لهم مجالا للشعور به ، وفى هذا التلافى والإخفاء قدر المستطاع ، يكون عمل المدرس .

* * *

ومن آثار هذا الفرق الجوهرى الصارخ ، أن كانت مشكلة إحياء الفصحى أو تيسير نحوها مشكلة جوهرية موضوعية ، لاتسعف فيها ولن تسعفها الحلول الشكلية ولا السطحية ، وبخاصة إذا ما قدرنا تعقد مشكلة الإعراب ، وأنها فوق مخالفتها الواضحة بين لغة الحياة ولغة التعليم ، تتعقد فى ذاتها ، فلا تطرد قواعد الإعراب بل يكثر فيها الاختلاف والاضطراب ، ثم يزيد على ذلك ، الاختلافُ فى أنواع الإعراب ومواضعه ، وأنه حينا بحركة ، وآنا بحرف ومرة تكون الحركة علامة كذا ، وأخرى تكون علامة ضده ، وأن الحكم الإعرابى لايتسق فى المقام الواحد ، بل يجوز فيه كذا وكذا وكذا ، فترى المتعلم حائرا بين هذه الصور ، ثم إذا ما خرج منها بشىء معين ، جاءته أحوال الإعراب المختلفة فى الكلمة التى عرف لها وجها من الحكم ، فإذا هى مثناة غيرها مفردة أو مجموعة ، وإذا هى مذكرة غيرها مؤنثة ، وإذا هى مسندة لواحد غيرها مسندة لاثنين أو جمع ... الخ .

فهذه العُقَد المتراكبة ، لا ينفع فيها ولا يشفى منها حل شكلى سطحى ، يحدثنا عن طريقة التعليم ، وخطة الدرس ، وما إلى ذلك من علاج لا يمس الجوهر والصميم ، ولا يقلل من تلك العقد المتداخلة المتراكبة !

* * *

فإذا ما قدر المدرس هذه المشكلة فقدر بذلك عظم الفرق بين الفصحى التى يعلمها ، والأخرى التى عاش بها تلميذه ويعيش ، ثم قدر أن الحل الجوهرى ، لا يكون إلا جماعيا رسميا ، بحيث تصدق النية على تطويع اللغة تطويعا فعالا ، إما بتغيير تطوع به طبيعتها الأولى وأصولها القديمة ؛ وإما بغير ذلك من جرأة عليها وتعديل ... إذا ما قدر المدرس ذلك كله ، قدر الحال النفسية لتلميذه ، وشعر بما يجب عليه من رياضة فى ذلك ، حتى يتهيأ له الإقبال على تعلم تلك اللغة ، دون أن يجدها لغة أجنبية ، ومادة كسائر المواد التى يكتسب فيها معلومات يدخرها ، وهو الشعور الذى نرجو بتوافره ، أن نعلم هؤلاء الأبناء لغة الحياة ، فنأخذهم فى ذلك بمنهج اللغة ، حينما يكون لها فى الوجود الشاهد مكانها ، وبين مقومات الأمة منزلتها .

وتلك الرياضة النفسية تتحقق بأشياء :

أولها ، الأصل العام الذى قدمنا الحديث عنه بين يدى بحثنا فى عمل المدرس ، وهو الإقناع بأننا إنما نصقل القوة اللسانية ، والمقدرة اللغوية ، ولا نعلم لغة أجنبية . وهذا الأصل إذا ما احتيج إليه فى الدراسات اللغوية جميعا ، فهو فى الدراسة النحوية أشد لزوما ، لما عرفنا من تجسم الفرق بين اللغتين فى هذه الناحية ، ومن أجل ذلك عدنا هنا ننبه إليه ، ونعده أول ما نعد من وسائل الرياضة النفسية للتلميذ .

وثانيها ، تقريب العمل الإعرابى فى الفصحى بأشباهه القريبة ، بل البعيدة أيضا ، من العامية أو اللغات الأخرى ، التى يكون لتلميذنا بها عهد ، ليأنس إلى أن هذا الإعراب فى صوره المضطربة ، ليس شيئا من صعوبة هذه الفصحى وحدها ؛ وسنجد بعض الأمثلة فيما أسلفنا من إلزام العامية بعض الكلمات حروفا ، ومن شيوع بعض الكلمات ومعها حركة إعرابية ، كالذى تستعيره اليوم من الفصحى ، وقد نجد فى تغييرات الكلم بالتركيب فى اللغات الأوربية التى يراض عليها الطالب ، ما هو كالإعراب ، فنقرب بذلك كله هذا الإعراب فى الفصحى ، فيتسق إقناعنا الأول للناشئ ، بأنا لا نأخذه بغريب مخالف من الكلام ، بل نصقل كلامه ، ليصير من كلام المتعلمين الراقين ، لا الجهلة السوقيين .

وثالثها ، ألا نكبر من خطئه الإعرابى حينما يقع ، فنعده هو كل شىء فى درس اللغة ، ونعتبر الإخلال به هدما لأعماله الأخرى فى كسب مفرداتها ، وتأليف جملها ، وتمثيل ذوقها ، ونحو ذلك . ومما يلحق بهذا ألا نروضه على الإعراب رياضة مفردة ، على أنه عمل وحده فى اللغة يقوم به مفردا ، بل نحاول ما استطعنا أن نشعره بأنه يغير المعنى ، ويفسد غرض المتكلم ، ونرده إلى الصواب ، بهدى من المعنى الذى يبتغى نقله إلى سامعه ، لا بأصل من أصول الإعراب ، واصطلاح من اصطلاحات النحاة ، نغير به الكلمة دون نظر إلى المعنى الذى تؤديه . وكم لنا من محاولات صناعية ، أو ترديدات بين احتمالات وأوجه تحتملها الكلمة فى الجملة ، نعرض لبيانها دون اهتمام بالمعنى المراد ، ولا ربط للصناعة الإعرابية بالغرض المقصود من الكلام ، فنجسم له أهمية الإعراب ، ونغالى بصعوبته ، ونشيد بأزمته ، ونضعف الشعور بما بين لغتينا من قرابة .

ورابعها ، التدرج فى تعليم هذا الإعراب، بحيث لايفجأ التلميذ باضطراب الإعراب، فنلقاه بصوره المختلفة، نبين بعضها ببعض ، ونعلم بعضها ببعض ، بل نعلمه الإعراب بالحركات، وما لكل حال من حركة ، ونقف عند ذلك وقفة غير قصيرة ، نرجو ألا يقرأ فى خلالها ، ولا يكتب إلا ما هو إعراب أصلى بهذه الحركات ، دون نيابة لبعضها عن بعض ، وبالأولى دون نيابة لحرف عن حركة . وإنى لأقدر صعوبة ذلك ، وأنه ليس من اليسير أن يقرأ الولد فترة غير قصيرة ، عبارات ليس فيها مثنى ولا جمع ، ولا ممنوع من الصرف ، وما إلى ذلك من مظاهر اضطراب الإعراب بالحركات ، الذى كان بلا شك ظاهرة جديدة عنده ، لا عهد له بها فى لغته الأولى ، ولكنى برغم تقدير هذه الصعوبة، آمل أن يبذل المعلم فى ذلك جهده الخاص ، ولا يكتفى بكتب المطالعة الرسمية ، بل لايلجأ إليها ، وإنما يحاول أن يضع فى يدى مبتدئى تلاميذه ، صحفا خاصة يعدها ، ليقرءوا فيها نصوصا معربة بالحركات فى صورها الأصلية ، لايعثرون خلالها بغير تلك الحركات من الإعراب . وكذلك يفعل فيما يديره من حديث معهم أو بينهم ، وحين يتم لهم إلف هذا الطارئ ، من تغير أواخر الكلمات ، واختلاف المعانى بذلك ، يتلطف لما وراءه من إعراب آخر ، خطوة خطوة ، وليس من

الكثير أن أقول : إنه لا بأس على الأحداث إذا لم يتعلموا خلال عام أو أعوام ، أنواعا من ذلك الإعراب مخالفة تماما لما عرفوه من قواعد الإعراب بالحركات ، كجر ما لا ينصرف بالفتحة ، ونصب جمع الألف والتاء بالكسرة .

تلك وما إليها من محاولات ، هى ميدان عمل المدرس الشخصى فى النحو ومشكلته ، تقريبا للفصحى من اللغة الأخرى ، إلى أن يتهيأ لهذه الفصيحة جهد جرىء مخلص ، يخفف من صعوباتها الحقة ، ويطلقها فى الحياة العاملة ، لا تجفى ولا تكره ، ولا تصعب ولا تُرهب .

وكل أولئك الذى عرضنا له من القول فى هذه المشكلة التى تعانيها الفصحى فى الحياة ، ليس إلا أملا فى الانتفاع بذلك انتفاعا مباشرا فى منهج تعليم بلاغتها ، إذا آمنا أن منزلة اللغة فى الحياة هى التى تحدد هذا المنهج .

والآن نكمل القول ، فنصف ما يستطيعه المدرس من :

العمل البلاغى

ونحن إنما نبذل هذا الجهد وما إليه فى العمل البلاغى أولا ، وليس الذى قدمناه عن صورة البلاغة ، وعن دائرة بحثها ، ثم عن منهجها الذى نمهد لبيان ما نختاره منه ، ما قدمنا ذلك كله إلا فى سبيل جعل العمل البلاغى لمعلمى اللغة وصلا وثيقا للتعليم بالحياة ، وسيكون منهجنا الأثير عملا حيويا محضا ، فليس الذى نقصده هنا إلى جانب العمل المعجمى والنحوى ، إلا شيئا وراء المنهج الخاص ، والخطة الفاضلة فى درس البلاغة ، نقيم عليه هذا المنهج ، وندعم به تلك الخطة ، ونبغى من عناية المدرس به ، أن نكمل انتباهه إلى ربط دراسة المواد الأدبية على اختلافها بواقع الوجود ، ربطا محكما وثيقا ؛ فما الذى يفعله المدرس فى البلاغة ، تأثيلا لمنهجها الحيوى وخطتها العملية ؟ .

إنما جملة القول فى هذا العمل البلاغى الخاص للمدرس ، حين يريد ليمنح قومه أقصى جهده وجهد جماعة المعلمين — إلى أن يصح العزم على إصلاح لغوى ، تنهض القوى المختلفة فى الأمة بنصيب كل منها فيه — جملة القول فى هذا العمل أن يقدر المعلم ما عاد على مزاج هذه

الفصيحة وفنها القولى ، من تغيرها بالحياة ، من أثر ما بينها وبين اللغة الأخرى الشائعة ، كما يقدر المعلم مع ذلك ما عادت به الحياة مطلقا ، من التغيير والتوجيه ، لمزاج الأمة وذوقها الفنى ، الذى يواجه رياضته فى لون من ألوان الفن هو الأدب ، وفنية القول .

فى الذى مضى من إجمال عن بيان ما خلفت العامية فى الفصحى من ندوب وشِجاج ، قد ذكرنا ما يتصل بجرْس الأصوات ، ووقع الحروف من ذلك ، كما ذكرنا ما يتصل بالإلف الخاص لبعض الكلم الرائجات ، وما أضفى من أردية النسيان على بعض الكلم المهجورات ؛ ولكل أولئك وما إليه أثره فى حسن الكلم وقبحها بلاغيا . وبعض هذا الحسن سنشير إليه فيما نبين من أمر الفصاحة فى الكلمة والجملة والكلام ، فنكتفى هنا باللفت إلى تقدير آثاره إعدادا للمعلم ، حتى يتهيأ منذ الآن ، لاتخاذ مقاييس جديدة للغريب والفصيح والمبتذل وما إلى ذلك .

وإذا ما كان لمثل هذا مكانه فى الدرس البلاغى الجارى على المنهج المفصل ، والخطة المثلى ، فقد بقى وراء ذلك ماأشرنا إليه قريبا ، مما عادت به الحياة مطلقا من التغيير والتوجيه لمزاج الأمة وذوقها الفنى ، الذى تواجهون رياضته فى تعليم فن القول . وعن هذا نقول : إن هؤلاء الصبية الذين يجلسون إليكم لتوجهوا وجداناتهم ، ولتعملوا على إكسابهم ذوقا أدبيا رقيقا دقيقا ، هؤلاء الصبية قد جاءوكم متأثرين بكل ما حولهم من تيارات فنية ، بمعنى الفن القريب أو البعيد . فقريبها هو تلك الفنون التى ذهبت بهذا الاسم : من تصوير أو نحت أو عمارة أو موسيقى وما إلى ذلك ؛ وبعيدها هو تلك النواحى المختلفة للحياة ، ، مما يتمرس به الذوق ، ويمرن عليه الحس ، ويحكم فيه الوجدان ، من ألوان وأضواء ، وطُرُز وأنماط يتخيرها الناس فى حياتهم الفردية والجماعية ، ويعتمدون عليها فيما يؤثرون من نقش بيوتهم ، وألوان مساكنهم وأضوائها ، ومن مثل هذه الألوان والأصباغ فى الثياب والفرش ومختلف المتاع ، فلكل ذلك ، مما تناله حواس تلاميذكم ، تقديرُه وتأثيره الذى تمهدون لتدبيركم الفنى فى الأدب بمراعاته ، وتفهمه ، وحساب تأثيره ووقعه .

وحولكم من يتحدثون عن مدارس ومذاهب فى تلك الفنون على تنوعها ، ويثيرون

النزاع والنقاش حول قديم تلك المدارس وحديثها ؛ وها أنتم أولاء تستمعون كل حين ما يقال عن التجديد فى تلك الفنون ؛ وما يعاد عن الموسيقا الشرقية والموسيقا الغربية ، وعمل فلان فى سبيل المزج بين هذه وتلك ، أو فى سبيل الاقتباس ، أو فى غير هذه السبل . ثم ها هى ذى المعارض التى تقام لتلك الفنون من تصوير ونحت وما يتصل بها ، ويعرض فى تلك المعارض ما يمثل مدارس ومذاهب ، كما تعرض أمزجة واختيارات. والناس يأخذون فى هذا قولا وعملا : قولا يتحدثون به ، ويؤثرون ويفاضلون ، وعملا يبذلونه فى سبيل اقتناء ما يعجبهم ، والإشادة به واللفت إليه . وتلك كلها موجات فنية قوية بل عنيفة ، تتصل بما تحاولون من تعليم الفن القولى اتصالا مؤثرا ، بل سريع التأثير كسرعة سير الحياة اليوم ، وانتقال عدواها لقوة اتصال أنحائها المتنائية ، وأقطارها البعيدة ، وعنف تفاعلها ... وهذا الذى دعوناه الفن فى معناه البعيد ، ليس هين الوقع على نفوس تلاميذكم ، ولا خفيف الأثر فى أذواقهم ، حين يختارون ما يعجبهم ، أو يقبلون ما يلقى إليهم من حكم بالإعجاب أو الاستنكار ؛ نعم ، فإن أنماط الحياة وطُرُزها ، ووسائل تنسيقها ، ليست إلا تطبيقا مزاجيا وجدانيا ، يوجه أذواق بنيكم ، ويربى أمزجتهم ، وأنتم فى هذه الحياة المتجددة بسرعة طائرة ، مطالبون ولا محالة ، بأن تتصلوا بهذه المؤثرات الفنية ـ بعيدة كانت أو قريبة ـ اتصال من يدركها ويتذوقها ، ويقدرها ، ويحسن المخالفة فيها ، أو الموافقة عليها .

وتلك المعرفة هى العمل البلاغى الذى أبغيكم إياه ، ربطا لعملكم التعليمى بسير الدنيا واتجاهها ، وكأنما هذا الذى أطلبه إليكم من العمل البلاغى للمعلم ، فى سبيل وصل تدريس المواد اللغوية بدنيا متعلميها ، إنما هو عمل إعدادى لأنفسكم ، تدريبى لأذواقكم ، تجددى لوجداناتكم . نعم إنه لكذلك ، وبه تطمع البلاغة أن تجد فيكم من تعتمد عليه فى تحقيق المنهج الذى يتطلبه دراستها اليوم ، وترى فيه المحقق للغاية المرجوة من تعليمها ، على ما سنعرفه حينما نتحدث بعد عن هذه الغاية . والآن نختتم القول ببيان :

المنهج الذى نؤثره

وهو الذى من أجله وقفنا تلك الوقفة الطويلة ، المسرفة فى طولها ، عند المسألة اللغوية الاجتماعية ، لنتبين عُقَد حياة هذه اللغة التى نعلمها ، تبينا لا نستر فيه شيئا ، ولا نخفى منه شيئا ، بل نكشفه، لنحل منه ما يستطاع حله، سعيا إلى أن يكون لذلك أثر فى تحقيق المنهج البلاغى الذى نطمع أن يكون صدى لحيوية اللغة ، وقربها من النفوس والألسنة .

وقد تكشف لنا من هذه الوقفة ، أن فى الحياة أشياء كثيرة ، تتصل بعملنا البلاغى ، وإن بدت بعيدة لم نعتد الشعور بها ، بله التحديق إليها والتمعن فيها ؛ وأن الحياة الفنية بعامة فى مصر ، والحياة الأدبية فيها بخاصة ، تقتضينا حقوقا لا نستطيع الإخلال بها ، وإلا أسأنا إلى أنفسنا أول ما نسىء . ثم كان لذلك الإخلال ضرر كبير على حياة تحاول النهوض ، وتبغى التجدد ، وتطمح إلى التقدم ... والنهضة الفنية طليعة ذلك كله .

* * *

وقد تنفس قولنا فى المنهج شرحا وتاريخا ، حتى لتستطيعون بعد الذى سمعتم من ذلك ، أن تقطعوا بأننا إنما نؤثر المنهج الأدبى الفنى كاملا غير منقوص ؛ واضحا غير مشتبه ؛ منسقا غير مضطرب ؛ أدبيا لا شية فيه من علم ولا فلسفة ولا كلام ، ولا غبار عليه مما عدا الوجدانيات المحتكمة ، والذوق المسيطر ؛ فنيا بارئا من تداخل المناهج واختلاطها ، متخلصا مما خلف الصراع بينها من آثار فى الفنية لا خير فى بقائها . ومثل هذا المنهج الأثير على ما وصفنا ، يقتضينا أعمالا متعددة ، حتى نهيئ له هذا التحرر والنقاء ، بعد ما عرفنا من تداخلٍ بين المناهج واختلاط . ومن هنا ينبغى أن نقوم بأعمال كثيرة فيها جرأة وفيها إخلاص ، لننتفع بما يُنتفع به من قديمنا ، ونزيد عليه ما لا بد منه من جديدِ غيرنا — وكذلك سيكون شعارنا فى هذا التجدد ، ذلك الشعار الذى يحدده قولى : أول التجديد قتل القديم فهما . ويقويه إيماننا بأن الحياة نماء مستمر . وبين هذا الإخلاص للقديم ، والحرص على النمو والتجدد ، نكمل المنهج الذى نؤثره ، فنخلص منه بموضوعات للدرس

البلاغى تختار اختيارا فنيا ، و يزاد فيها و ينقص على هذا الأساس الأدبى ، ثم تدرس بخطة فنية ، أصولها فى التربية الوجدانية ، فيتفق الشكل مع الموضوع ، والتناول مع المسائل ، ونأمل بذلك حين يكتمل لنا ، أن نكون قد أدينا واجب النهضة الفنية لأمة شاعرة بشخصيتها ، ساعية إلى عظمتها ، واعية لكيانها ، مقدرة لكرامتها .

* * *

ومن هنا سيكون مما ندرسه فى البلاغة ، قديم نحيى فيه المدرسة الأدبية التى عرفتموها إجمالا ، ونعنى بآثار كتابها الأدباء ، وأصحاب النقد والموازنة ومن إليهم ، محترسين ماستطعنا مما خلف فيها تداخل المناهج وصراع المدارس من آثار ؛ ونتخذ فى التعليم طريقة أدنى إلى خطة هؤلاء الأدباء ، مكملين إياها بما عرف المحدثون ، من طرائق دراسة الفنون ، وتربية الأذواق ، ورياضة الوجدانات . كما سيكون مما ندرسه جديد يكمل أبحاث هذه المدرسة الأدبية ، بما يحقق مالمحناه إجمالا فى حديثنا عن صورة البلاغة ، لتكون لبلاغتنا تلك الصورة المشرقة الجميلة ، غيرمعروقة ولامشوهة ؛ ثم إلى ذلك مالمحناه فى دائرة البحث البلاغى وتخطيطها ، ليكون لنا ذلك البحث الواسع الأفق ، البعيد المدى ، المتناول للعمل الفنى التام ، من أبسط عناصره ، إلى أكمل مثله ؛ فنزيد على الدراسة القديمة كل ما يحقق هذه الغاية ، بالبحث فى العمل الأدبى على اختلاف صوره . . من شعر ونثر وفنونهما المتعددة ، كما نمد الأبحاث الأولى التى تحتمل التوسعة ، لتنال تلك الآفاق الأدبية .

وفى سبيل جعل هذه الدراسة فنية التناول ، أدبية المنهج ، سنقدم بين يدى البلاغة ما لا بد منه لذلك من مقدمات تمهد لهذه الدراسة ، وتصل بجوها ، وتعد لمزاولتها مزاولة متمكنة .

والقول فى تفصيل ما نأخذ من القديم وندع ؟ وكيف يكون ذلك ولماذا ؟ وما نزيده من الجديد ونضيفه ، وما هو ولماذا ؟ قول يحتاج إلى البيان المقنع ، والإيضاح الوافى ، وهو أساس رياضتكم على قبول ما تقبلون ، ورفض ما ترفضون ، حين تتولون ذلك استقلالا ، وعلى انفراد ، فيما تعانون من هذه الدراسة ، إلى أن تستقر رسوم هذه المدرسة الفنية ،

ويستبين منهجها فى مسائله وطرقه ، استبانة مستقرة مجلوة ، على مر الزمن ومواتاة السنين . وسنعرض لهذا البيان المدعم ، بعد أن نفرغ من القول فى غاية البلاغة قديما وحديثا ؛ فيتبين لنا مع الصورة ، ومدى البحث ، والمنهج ، ما نتوخاه من غاية ، وتطلبه الحياة من هدف يزيدنا التطلع إليه تحددا وضبطا ، ويكمل لحُنا له ، تمثل ما ندرسه واستجلاءه .

وعلى هذا نكتفى الآن بما قدمنا من وصف عام مجمل لمعالم المنهج الفنى للبلاغة ، فى موضوعاته وأبحاثه على ما ذكرناه هنا ، وفى خِطته وطريقته ، على ما أجملناه سابقا ، لنتقدم أولا إلى القول فى الغاية ، ثم نقف بعد ذلك لنضع الأسس الجلية ، والتفاصيل المستوفاة لأبحاث البلاغة ، على ما نرجوه لها فى صورتها الفنية الحيوية .

الكتاب الخامس

غاية البلاغة

أمس واليوم

١ – غايتها أمس

أ – فى الجاهلية .

ب – فى الإسلام .

٢ – غايتها اليوم

أ – الصوت وفنه فى الحياة .

ب – عمل ومتعة .

٣ – بلاغتنا

لقد جاءك من نبأ هذه البلاغة ، وتمثيلها الجانب الوجدانى من حياة الأمة ، واتصالها من هذه الناحية بهدف الأمة فى وجودها ، وفلسفتها فى معيشتها ، ذلك الهدف وتلك الفلسفة التى تسيّر تاريخها ، وتوجه أفعالها ؛ وليس هذا بالكثير ، وإن لم تألف من قبل سماعه ، فإنما الدين والفلسفة الفنية والفن العملى ، نواح ثلاث للحياة الوجدانية ، تلتقى فى أفق واحد ، وتتنفس فى جوّ واحد ، وتتصل بالحياة اتصالا وثيقا عتيدا . وهذه البلاغة فيما سمعت ، لون من ألوان الفن ، وصورة من صوره ، ومن أجل ذلك دعيت « فن القول » ، ووصفنا — فى إجمال — مكانها بين الفنون الأخرى من صوتية وبصرية ، حتى عاد القول فى ذلك تكراراً لاغياً .

وإذا ما استشرفتَ إلى ذلك الأفق الذى يلتقى فيه تفنن الجماعة مع تفلسفها وتدينها ، أدركت أن القول فى غاية البلاغة عند جماعة إنسانية ، فى عصر ما ، يرتقى إلى ذلك الأفق ، ويحلق فى هذا الجوّ ، ويتصل ذلك القول بما لتلك الجماعة من جوانب النشاط الأخرى ، حتى مايحق لك أن تعجب إذاماقلنا إن غاية البلاغة فى أمة ، تتصل بغاية تلك الأمة فى حياتها ، وتتجه نحو هدف تلك الجماعة فى وجودها .. وبحسبنا تلك الإشارات المجملة إلى هذه الأصول الكبرى ، لننظر بعدها فى اختلاف غاية الدارسين للبلاغة العربية ، على اختلاف عصورهم ، وتغير نظرتهم إلى الفن والحياة .

* * *

فى الجاهلية : إذ الحق قوة ، والحياة صراع مادىّ عريان ، حماته مغاوير بُهم ، أو مقاويل لُسْن ، تعتدهم القبيلة بعض ماتناضل به ، فتفرح بنبوغ الشاعر فيها ، وتحتفل لذلك

فى هذه الجاهلية كانت الإجادة القولية والتفوق الفنى ، يُبتغى التماسا للفلج والغلب ، وكسبا للقوة التى هى غاية الحياة ، والباعث الأعظم على أعمال هذه الجماعة وأفرادها . وبهذا كانت تلك القوة غاية البلاغة ، حينما يخف الناشئ لمدارستها بالمزاولة ، اتصالا بشاعر يروى عنه ، ويحفظ له ، ويلزمه من أجل ذلك لزوم التلميذ أستاذه فى عصور الدراسة النظامية . كانت الغاية من هذه الدراسة الممارسة للبلاغة ، هى التقوِّى بالقول الفنى ، فى غِلاب منافر مفاخر ، منافح عن مكارم القوم ، مذكر بالمجد ، مثير للحمية ، فكانت غاية درس البلاغة – كما أسلفنا – من غاية حياة الجماعة ، وهدف درس البلاغة من هدف وجودها . وكذلك كانت فلسفة الخُلُق ، وفلسفة الفن ، وروح العقيدة والتدين ؛ كل أولئك يدور على محور واحد ، وينزع عن مرمى واحد ، كما هو الشأن دائما . ثم :

فى صدر الإسلام : تدور الدعوة الإسلامية ، على تلك المعجزة القولية ، كما يعتمد الكفاح بين المعسكر الإسلامى الجديد ، وماحوله من معسكرات قديمة ، على ما كان يعتمد عليه قبل ذلك من أسلحة وخِطط : فللرسول شعراؤه ، ولخصومه شعراؤهم ، والمدح والهجاء بين القبيلتين متصل ، والفن القولى قوة فى الدعوة الدينية ، كما هو قوة فى النضال الدنيوى ، ولهذا يبتغى القدرة البلاغية والبراعة الفنية من يبتغيها ، لمثل ما كان يُبتغى له ذلك فيما قبل الإسلام من عزة وغلب ، و إن كان الصراع قد لونته أطياف معنوية ، اتجهت إلى ماوراء هذا الوجود المادىّ ، ورفعت رأسها إلى السماء ، وتنسمت أنساما روحانية ، أرق نفَسا وأكثر إنعاشا ، وأسمى طلابا ، وأرفع أملا ، وأفسح مدى .

ثم تصير للدعوة الإسلامية دولتها ، تكتنفها النزعات العربية فى العصبية ، والاعتزاز بالقومية ، فيكون للعروبة مجدها ، بعد ماصار لها دينها ومعجزتها القولية ، التى دار عليها مع ذلك محور الحياة الإسلامية ، فى قانونها وخلقها ، واعتقادها وعباداتها ، ويبدأ ذلك مبكرا منذ عصر الخلفاء الراشدين ، وفى أثر حركة الفتح ، فيقوى الشعور بأن التفوق الفنى ، والتذوق الحساس لمزاج العربية وأدبها ، مادة لابد منها للحياة فى وضعها الجديد ، وكذلك نسمع فى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم لعهد الأموية بعدهم ، أن الشعر وأيام العرب

وأخبارهم ، وفى الجملة كل مالابد منه لنقاء العروبة وكسب ذوقها ، يصبح شيئا يجدّ فى طلابه الخاصة ، ويسعون له السعى الحثيث فى الحضر والبدو ، فتارة يَبدُون ، يرتادون الصحراء ، ويَرِدون مناهل الفصحى فى سلامتها وصفائها ؛ وطورا يستقدمون أصحاب السليقة الخالصة إلى المدن ، يُنزلونهم قصور المترفين ، ليحفظوا على أهلها — مع ترف المدينة ورفاهية التحضر — سلامة اللسان ، وخلوص البداوة ، وصفاء الصحراء ، فى اللغة وفنها ؛ لأن ذلك مما به مِلاك الأمر فى سياستهم الحاكمة ، أو تدبيرهم العملى ، كما يعد كذلك قِوام الأمر الدينى ، وما لابد منه للجماعة ، من حياة اعتقادية ؛ فكانت البلاغة والإبانة فى مثل تلك العصور ، تُلتمس لغاية قومية ، إما عملية سياسية ، وإما دينية أو اعتقادية ؛ وهى فى كل حال تتصل بغاية الأمة فى حياتها إذ ذاك ، وتتجه نحو هدفها فى وجودها ، وهو حماية كِيانها القومى وعصبيتها الدينية ، ليستقيم لها أمر الحكم ، ويسلم لها ما صار إليها من زعامة سياسية ، لها صلة بمصدر الدين ولغة كتابه ، وهذا الدين هو الرباط الذى يمسكهم إلى من عداهم من أهله ومعتنقيه .

بعد فتور العصبية : فإذا ما فترت العصبية العربية فى القرن الثانى ، ثم خفت صوتها بعد ذلك ، فبقيت دولة أو دول إسلامية ، يمكن أن يقال — بلسان العصريين — إن لغتها الرسمية هى العربية ، وإن كانت لغة حياتها غير ذلك على ما عرفنا ؛ وهى دولة لا تجمعها جامعة قومية ، تعرف لها عصبية جنسية ، إلا أن يكون ذلك فى مثل فارس التى احتفظت بصبغتها العنصرية ، وتمسكت بها ؛ وإنما تعرف هذه الدولة أو الدولات رابطة دينية ، وشعورا اعتقاديا ، هو الذى يدعوها إلى دراسة العربية الفصحى وفنها ؛ فتكون لها تلك الدراسة البلاغية التعليمية ، على ما عرفنا فى الحديث عن المنهج .

وإلى جانب هذا الغرض الإسلامى من دراسة لغة القرآن ، تجدّ الحاجة بالدولة إلى من يفى بطلِباتها النظامية ، من الكتابة باللغة الرسمية لها ، أو اللغة التى تضطر إلى أن تجعلها اللغة الرسمية ، لملاحظ عملية اجتماعية ؛ ولهذين الغرضين الدينى الأول ، والدنيوى الثانى . كانت تدرس البلاغة ، تارة لهذا ، وتارة لذاك .

كما أنك فى عصر الانتقال ، عند فتور العصبية ،وقبل انحلالها تماما ،كنت قد تجد الإشارة إلى شىء من المعنى القومى الجنسى ، تدرس من أجله العربية الفصيحة وأدبها ؛ ولن تجد وراء هذه الأغراض الثلاثة ما يقفل فى الغاية من دراسة البلاغة ، بل هو أحد هذه الأغراض ، ـ وبخاصة الأخيرين ـ أو هو مزيج منهما إن كان .

فأنت مثلا واجد ذَمَاء من عصبية ، يشير إليه «أبو هلال» فى القرن الرابع ، بين مختلف الأغراض من درس البلاغة ، إذ يذكر أن العربى الصَّلِيب ، والقرشى الصريح ، يقبح ألا يعرف إعجاز كتاب الله ، إلا من الجهة التى يعرفه منها الزنجى والنبطى ، وأن يستدل عليه ، بما استدل به الجاهل الغبى (انظر الصناعتين ص ٢ ـ ط الآستانة) . وهو ـ كما يُحَس من السياق ـ معنى ثانوى جاء فى ضمن الغرض الدينى ، وهو معرفة جهة إعجاز القرآن ووجهه فى غير تقليد وتسليم ، وهو الغرض الذى قُدم فى كلامه ، وأُخر عنه الغرض العملى الأدبى ، وهو الفرق بين الجيد والردىء ، والقدرة على صنع قصيدة ، أو إنشاء رسالة (الصناعتين ص ٣) . . وكذلك ترى غاية دراسة البلاغة لهذا العهد ، مزيجا من الدين والدنيا ، إذ كانت الحياة إذ ذاك تهدف فى سبيل هذين الغرضين ، ففيها بقية من العصبية ، إلى حاجة لاستعمال الفصحى فى مرافق الدولة ؛ ويقدُم ذلك كله ، أو يقدّم عليه فى ترتيب المؤلفين ، الغرض الدينى فى فهم الإعجاز وتعليله .

وكذلك اطَّردت الفكرة فى اتصال غاية البلاغة بغاية الحياة فى نظر دارسيها .

ثم ما يزال المعنى الأدبى يضعف ويَهِن ، والشعور الدينى ينفرد ، أو لا ينظر الناظرون إلى غيره ، فتسمع من برزت فيهم الصفة الكلامية من البلاغيين ، يقدمون بين يدى كتبهم ذكر الناحية الدينية ، يزيدون فيها ويكثرون حتى يعدوا الجاهل بذلك العلم ، فى معنى الصاد عن سبيل الله ، والمبتغى إطفاء نور الله تعالى (انظر دلائل الإعجاز ص ٦ وما بعدها ـ ط السعادة) . ومع تقدم الزمن ، لاتعود تسمع شيئا ، من الغايات الأدبية العملية لهذه البلاغة ، بل هى معرفة إعجاز القرآن ، تعد ثمرة معرفة علم المعانى وعلم البيان وعلم البديع ، فى قول أولئك الذين يتحدثون فى مقدمات العلوم عن المبادئ العشرة لكل فن .

وهكذا ، منذ عرف للبلاغة درس منظم ، كانت الغاية الدينية مما يلتمس من أجله هذا الدرس ؛ وقد يلتمس معها أحيانا شيء من الغاية الدنيوية العملية ، كما كان الحال فى القرون الأولى من حياة الإسلام ؛ ثم خفت ذلك أخيرا ، وتفردت الغاية الدينية بالذكر والاهتمام ، وكان ذلك أيضا مصداق ما أشرنا إليه من ارتباط غاية البلاغة — من حيث هى درس فنى مهما يكن منهجه — بغاية الحياة فى نظر دارسيها . والتقت الغايتان لالتقاء الفن والدين ، على ما ذكرنا أول هذا الحديث ، أو لسيطرة الفكرة الدينية والشعور الدينى على نفوس الدراسين وحياتهم ، كما كان الشأن فى القرون الوسطى من حياة الدولة الإسلامية .

تلك هى غاية البلاغة أمس ، فى عصور مختلفة من حياة العربية ، حتى عهد قريب من أيامنا هذه ، ولعلك لو سألت عن غايتنا اليوم من درس هذه البلاغة ، لرأيت كذلك مصداق القضية الاجتماعيــة السابقة ؛ فنحن اليوم إنما نتعلم — غالبا — لنظفر بإجازة تمكننا من الالتحاق بعمل حكومى ، أو تهيئ لنا مجال ما كسب العيش . وهذه البلاغة اليوم مادة من مواد درس العربية ، التى يطالَب باجتياز الامتحان فيها من يبتغى حمل هذه الإجازة الممكنة من العمل ؛ وما أنكر أننا قبل اليوم قد شعرنا شعورا مبهما بالغرض الاجتماعى من تعلم العربية وأدبها ، ثم جعل هذا الشعور يتضح رويدا رويدا ، ولــكنى أشك فى أن أحدا من متعلمى العربية ومعلميها ، يتمثل غرضا اجتماعيا ، أو غاية قومية لهذه الدراسة ، وإن تمثل ذلك بعض اليقظين ، ممن بيدهم الأمر أو فيهم وعى واضح ، مع أن معرفة هذه الغاية بل تمثلها واضحة شاخصة ، مما لا بد منه فى حياتنا العامة ، وفى حياتنا التعليمية بخاصة ، لتوجه هذه الدراسة الأدبية إلى ما يحقق تلك الغاية الاجتماعية ، وتتولى إصلاحها على هدى من تلك الغاية ، وذلك هو جلّ ما نحاوله من تعرضنا للقول فى غاية البلاغة أمس واليوم . وقد مضى طرف مجمل عن هــذه الغاية عندنا ، لــكنا لا نحكم على هذه الغاية بشىء ، إلا بعد معرفة :

<u>غاية البلاغة اليوم عند غيرنا</u> : ونتحدث من هذا عن صورة مما عند الغربيين اليوم ، إذ الحياة الإنسانية قد صارت موضع دراسات مختلفة ، فى سبيل

استكمال قوى الإنسان النفسية ، ليكون أقوى ما يستطاع إنتاجا ، وأقدر ما يمكن تمثلا للحياة ، وانتفاعا بما فى الكون حوله من منح ونعم . وإلى هذا الغرض العام ، تتجه الحياة ، على اختلاف الرأى فى هدف الفرد والجماعة فيها باختلاف المذهب الاجتماعى ، والتفلسف العملى . وسنرى أن هذا الفن القولى ، يرتبط — كدأبه — بتلك الغاية الحيوية ، فى استكمال قوى النفس البشرية ، وإقدار هذا الإنسان على الانتفاع بما حوله ، والاعتماد على كوامن قواه ، ليستخرج بها نفائس مافى العالم ، ويسخرها لرفع مستوى حياته ، وحياة الجماعة التى هو منها . . وكذلك تتحد غاية الفن ، على اختلاف ألوانه ، وغاية سائر قوى المعرفة والجهاد الآدمى ، على أن ترفع من حياة البشر ، وتعدهم للاستفادة من كل ما يمكنهم الانتفاع به من كائنات مادية أو معنوية ، وتجدّ لتكميلهم فى تمثل هذه الاستفادة ، والتطلع لحياة راقية ، ترضى وتسعد مختلف الاتجاهات النفسية ، وتفى بحاجات القوى المتنوعة من معرفة عالمة ، وتذوّق متفنن ، وحياة مادية مرفهة ، حتى ليزداد جِد الناس فى سبيل هذه الحاجات ، كلما اتضح شعورهم بها ، وقوى إحساسهم بالحاجة إليها ، فيتضاعف نشاطهم فى طلابها ، ويصلون قواهم فى هذا بكل ما ينالونه من قوى الوجود وأساليب الاستطاعة . وكذلك كان ما نراه اليوم من مضاء العلم فى تفهم الكون ، وجِدّ العلماء فى تسخير نواميسه وقواه لحاجات هذا الإنسان ، من مادية عملية ، أو فنية معنوية ، وإن يكن هذا المضاء والنشاط الحديث قد يخطئه التوفيق حينا ، فتستهويه رغبات مدمرة أو شريرة ، لكنه فى جملة أمره نضال جادّ مجدّ فى سبيل تقدم إنسانية الإنسان ، وترقية حياته وحيويته .

تلك هى حال العالم المتوثب حولنا ، وقد تأثر بها كل شىء من تفكيره وتدبيره ، ودرسه وتعليمه ، وعمله وفنه ، فكانت غاية البلاغة ، مما تأثر بغاية الحياة ، واتجه إلى هدف الوجود — كما كانت دائما — ؛ وقد عرفنا أنها عندهم فن قبل كل شىء ، وبرغم كل شىء ، فغايتها هى غاية الفن ، فى الجدوى على حياة الفرد والأمة ؛ ثم هى لون من فن الصوت ، ومن هنا نتجه إلى القول فى :

الصوت وفنه فى الحياة

فهذا الإنسان قد ظفر بقوة التصويت وأجهزتها كما تهيأت لغيره من الحيوان ، إلا أن الإنسان قد استطاع بتقطيعه هذا الصوت تقطيعا منظما ، أن ينتفع بهذه القوة انتفاعا عمليا وفنيا ، لم يتهيأ لغيره من الأحياء الأخرى ؛ فأما الفائدة العملية الأولى ، فهى ذلك الذى وصل إليه بوساطة الكلمة ، التى هى جرس صوتى مقطع بنظام ، استطاع أن يستخدمها فى كل حين ، ليتم تعاونه مع الآخرين من بنى جنسه ، على استكمال حاجاتهم العملية فى الحياة ، ويوثق تلك العلائق بينه وبينهم ، حتى تم وتحقق لهم ذلك الوجود الاجتماعى ، بحسن أثر التفاهم . وأما الأثر الفنى الذى يعنينا هنا ، فهو لون من التفاهم النفسى ، والإمتاع الروحى ، كان الصوت سبيله ووسيلته ، إذ مضى هذا الإنسان المحس بفطرته ، يتصل بمشاهد الكون الباهرة ، ويتمعن فى نظامه ، ويستبين حقائقه ؛ فتتصل نفسه من ذلك ، بالجميل الفاتن ، والحقيق الصادق ، والخيِّر الطاهر ، ويجد من ذلك ما يهيج حسه ، وينعش نفسه ، ويثير وجدانه بما يشعر معه برغبة متملكة لروحه ، فى كشف ذلك كله ، لنفوس الآخرين ممن حوله ، كى ينقل إليهم ذلك السرور الذى وجده. وهم بفطرتهم كذلك ، يجدون المتعة فى معرفة هذا الحق ، والجمال ، والخير ، وينفعلون به ، ويطربون له . وليس الفن إلا الوسائل المختلفة ، لنقل هذا الشعور من نفس مشرقة تبينته ، إلى نفس أخرى تأنس إليها وتألفها ؛ وفى هذه الإبانة ، والتعبير الفنى ، لذة يتذوقها المترجم عن حسه ، وتنتقل عنه إلى من حوله من مشاركيه فى استعداده وطبعه . ثم إلى هذا ما يستفيده أولئك المصغون أو المحدقون ، فى صنوف التعبير العاطفى أو العقلى الجميل ، إذ تتكشف لهم حقائق العالم ، وترقى بذلك حياتهم المدنية وتتقدم .

هذا التعبير الفنى ، هو الذى يحفظ للذاكرة ماتراءى لنا سارًا منعشا جميلا مرضيا ، ويجدد لنا الإحساس ، بما أثارته الرؤية الأولى أو السمع الأول ، كما يعيد ذلك على مر الأجيال للخالفين بعدنا ، مع بقاء لذته وإثارته الأولى . ومن هنا ترى أن الإشراف على الجميل ، والارتقاء إلى الفاتن والمؤثر ، مع تهيّؤ الفطرة الإنسانية للانتعاش بذلك ، ومع

ابتهاج النفس بعرض هذا التأثر على الآخرين وإشراكهم فيه ، هو الذى ينبثق على الشفاه ، أنغاما من التعبير عن ذلك التأثر ، فى أصوات مختلفة الحال ، فتارة تكون عزفا موسيقيا مقطعا منغما ، لكنه مجمل مبهم ، لم تتميز فيه الدلالات ، ولم ترتبط الأصوات بمدلولات ذهنية ، وأفكار منضبطة . وهى مرحلة تبدو أقل إبانة ، وأيسر ترجمة ، من محاولة أخرى فى هذا السبيل ، تبدو أكثر معونة على تذكر الأشياء المؤثرة وإدراكها ، إذ تكون الأصوات التى صاحبت ذلك التأثر أكثر تمثيلا وتشخيصا للمعانى ، وتلك هى الترجمة التى يُعتَمد فيها ، على مصوِّرات للأصوات ، وعلامات ظاهرة لها هى الأحرف ؛ فقد كانت الأصوات نفسها فى الموسيقا علامات للمعانى ، أما فى الكلام فقد مثَّلت الأصوات تلك الأحرف وصورتها ، ثم ساعدت على حفظها ، فى صورة كلمات تنالها الأعين أيضا ، وتنقل للبعيد النائى مكانا ، أو النائى زمانا ، من الأجيال الخالفة ، وتحفظها الذاكرة إلى مدى أطول فتظل باقية الإثارة ، قادرة على هَيْج الشعور ، وهو مالم تكن تستطيعه تلك الأصوات المبهمة فى الموسيقا والتغنى ، وهذه الترجمة الأخيرة الأكثر وضوحا ، والأطول بقاء ، والأجلى بيانا ، هى فن الصوت الثانى ، أو فن الكلمة ، أو الأدب الذى تعلِّمنا إياه دراسة فن القول ، وهو صنو الموسيقا وشقيقها ، كما عرفنا .

وهنا يلمح الأدباء الغربيون — أو اللاتينيون منهم — صلة لفظية لغوية ، تكشف عن الارتباط بين فنى الصوت وتدرجهما ، من فن صوتى مبهم يوقّع ، إلى فن صوتى متميز أدبى يُتَكلم ويقرأ . يلمحون هذه الصلة من أن الحرف فى تسميتهم هو ليترا (lettera) أو ما يقارب هذا النطق فى بنات اللاتينية ، والأدب هو (letterature) ليتراتورا ، فمن الحرف أخذ اسم الأدب ، وهذا الحرف ليس إلا تعبيرا صوتيا ، أى اسم صوت ، أو مميز صورة من تقطيع الصوت تقطيعاً منظما بدقة ، يعطى الكلمة [1] ، ومنها تصنع الجمل ، فالفقر ، فالقطع الأدبية .

---

(١) فرنشيسكو كارلوبيليجرينى — الأدب للمدارس الثانوية — ولا بارينى فى كتاب الأسلوبيات ، مع تصرف وتلوين .

عمل ومتعة

وهذا الربط بين النشاط الصوتى ، فى صورتيه العملية اللغوية ، والفنية الأدبية ، يشير إلى غايتين للدرس البلاغى ، يظفر بهما صاحب الفن القولى على اختلاف مقدرته فى ذلك ، إحداهما عملية حيوية ، والثانية فنية تذوقية .

فأما الأولى ، فهى ما يحققه فن القول من مصالح فى حياتنا ، إذ هو ألزم تلك الفنون وأجداها ، وليس فينا من لايستعمله فى صورة ما ، ليحقق به غرضا حيويا ، يكون القول الحسن وُصلتَه ووسيلته ، فليس فى الناس من يستغنى عن بيان يقربه من نفس من يعامله ؛ أو طلب يرفعه إلى ذى شأن حاكم ، ليرفع عنه ظلما ، أو يحقق له أملا ، أو يقضى له عملا ؛ أو عقد يحفظ به حقا ، ويحتاط فيه لتقلبات محتملة ، ويصون به فائدة بعيدة ، أو خيراً للخالفين بعده . . وتلك وما إليها مواطن تحوج فيها الحياة ، إلى القول المتفنن ، يقال أو يكتب ؛ وبدونه تتعطل تلك المصالح أو تتعقد ؛ ومن هنا كانت دراسة البلاغة ، جد لازمة وضرورية للناس جميعا ، سواء الموهوبون منهم ، ذوو الحس الفنى والقدرة البيانية — وسنبين فيما بعد ، نصيبهم فى الحياة ، وغايتهم من هذا الدرس — وغير الموهوبين ، فهم كذلك ، لابد لهم من هذا الدرس ، ليصقلوا فطرتهم ، ويروضوا طبائعهم ، كى يعطوا مايستطيعون إعطاءه من كتابة مقبولة نوعا ما ، أو قول أنيق إلى حد ما ، يستعينون به على مالابد منه فى حياتهم . وتلك هى الغاية العملية للبلاغة ، يتحقق بها لكل دارس نصيب من الإجادة القولية ، ليرفعوا مستوى حياتهم ، ويحققوا من منافعهم ما يتوقف على الإبانة والأداء الحسن . . ذلك هو الجانب العملى من غاية البلاغة فى حياة الإنسان الفرد .

وإن لهذه الغاية العملية فى حياة الجماعة لمجالا أفسح ، وفائدة أبعد يُجْملها لك أن تقدر أن الجماعة ليست إلا كثرة يربطها شعور نفسى مشترك ، وإلا كانت كثرة لا وحدة لها ، وهذا الشعور النفسى المشترك : من أمل ورجاء وثقة بالغد ، أو ألم وضيق وشكوى من عجز ، أو بهجة وسرور بعزة أو نصر ، وما إلى ذلك مما يهز مشاعر هذه الجماعة ، ويمسك عليها كيانها ، ويدفعها لغدها . وجلاء هذا الشعور المشترك ، وحسن تبادله بين نفوس أهلها ، لا سبيل إليه أقرب ولا أوضح من قول مبين ، وبيان متفنن . وتلك حاجة حيوية أسبق

من المتعة بالخير والجمال والحق ، وآصل من هذا التذوق الكمالى ، على ما لهـذه المتعة وذاك التذوق من أثر بعيد فى الحياة العاملة ، والقوى الجادة نفسها .

ولعلك تعرف أن حياة الأمة ، فى تدبير سياستها ، وفى شورى نيابتها ، وفى تطبيق قانونها ، وتسيير قضائها ، تحتاج إلى هذه الأبانة القولية ، حاجة عملية ماسة ، ومادية قريبة ، هى أيضا من الغاية العملية الأولى لتلك البلاغة ، بعد الذى قدمناه من قيام الوجود النفسى المشترك للجماعة ، على التفاهم المبين ، والقول المؤثر ، كما سمعت .

وأما الثانية : وهى الغاية الفنية المعنوية ، فقد عَرَفت فيما أسلفنا من حديث عن الفنون ، وفيما سبق قريبا من حديث عن الصوت وفنونه ، مدى ما فى هـذا الأدب من إمتاع روحى ، ورضا نفسى ، يجده الشاعر بالجمال ، فيحس الرغبة المتملكة فى التعبير عنه ، وإشراك الآخرين فيه ، كما يجده أولئك الآخرون حين يأتيهم صوت المتفنن بيانا ناطقا عما وجدوه وعيوا به ، وأحسوه فأرادوا العبارة عنه ، لكنها امتنعت عليهم ، ولم تَطُع بها طبيعتهم ذات الحظ المحدود من الهبة الفنية . وهذه المتعة الروحية ذات جانبين ، **أحدهما** : التعبير عن الإحساس بالجمال ، حين تسعف الفطرة المواتية الشخص الموهوب شاعرا أو ناثرا **والآخر** : التذوق الناقد لفن هذا المعبر ، والشعور الصحيح الدقيق بقيمته الفنية ، تذوقا وشعورا يعين على كشف كنوز متجددة من الجمال ، فى تلك الآثار الناثرة أو الشاعرة ، فيكون درس البلاغة وصلة للتمتع العالى بلذة معنوية روحية ، وبها يستطاع الاهتداء إلى الأغراض والمرامى البعيدة التى اتجه إليها ذلك المتفنن ، وتبين الخطوات الدقيقة التى سار فيها عظماء أصحاب الفن من الشعراء والكتاب تعبيرا عن إحساسهم ؛ فنشاركهم فى هذا الحس والاستمتاع به .

فغاية البلاغة عند غيرنا على ما سمعت : إما عملية حيوية ، وإما فنية ممتعة بالتعبير عن الجميل أو بالنقد المتذوق لروائع الأداء الفنى للشعور بالحسن .. وهى فى جملتها ترجع إلى ما كان

يقول القدماء : « صناعة الجيد ، أو إدراك الجيد » . إلا أن هـذا الإدراك للجيد ليس هو النقد صناعة واحترافا ، أو رياضة وتعليما ، بل هو استمتاع روحى ، وتلذذ وجدانى ، يسعد النفس ويرفع مستوى الحياة .

وغايات البلاغة اليوم غايات لاتُلتمس لغيرها من أغراض أخرى وراءها ، دينية كانت أو سواها، بل تلتمس وفاء بحاجة الحياة التي يحياها الفرد والجماعة ، وسعيا إلى ترقية مستوى هذه الحياة ، وإفساح آفاقها المعنوية ، على ما رأيت أنه غاية الحياة الجادة اليوم فى مختلف صورها .

غاية بلاغتنا اليوم

وَبَيِّنٌ أننا نقدر اليوم ، ما تغير من شؤون الحياة ومراميها حولنا ، فتغيرت به أهداف الجماعات ، وغايات الأمم ، وأغراضها فى الوجود ؛ وأننا حين نقدر ذلك ، إنما نقدره على هدى ما أصاب الحياة من تقدم فى مناحيها المختلفة : من عقلية علمية ، وعملية تطبيقية ، ومادية آلية ، فلهذا التقدم أثره الواضح ، فى رقى الوجدان الإنسانى ، الفردى والاجتماعى . وقد عرفنا أن مظاهر الشعور الإنسانى : من فكر ، ووجدان ، وإرادة ، يتأثر بعضها ببعض ويرتقى بعضها برقى بعض ، وبذلك تدرك أن التقدم فى فروع الحياة ، خليق بأن يعود على الوجدان الإنسانى فى الفرد والجمع ، بالترقى والدقة ، مما يدع الإنسان وحده وفى قومه ، أكثر إكبارا للفن ، وإرضاء لرغباته فى هذه السبيل ، إذ يغدو أدق حسا، وأصدق تذوقا ، وأكثر رفاهية فى هذا الشأن .

ومن هنا تدرك فى قرب أن ما يقال اليوم عن المتعة الروحية بالفن القولى ، والآثار الأدبية ، ليس من التكثر فى شىء ؛ بل إن حياة الأمم الراقية وحياة أفرادها ، تشعر من الحاجة الماسة لذلك ، بما تؤخر فى سبيله أشياء أخرى كانت أكبر قيمة ، وأعظم تقديرا ، فى حساب إنسان الأمس ... ولا نشير فى هذا إلى شىء مما يقال فى جدوى الفن العملية على

الحياة ، من أعصاب وأنفس أو أعضاء وأجهزة ، فتلك ناحية عملية مادية ، غير الذى نرنو إليه من الإمتاع الروحى الفنى ، الذى يلتمسه الوجدان السامى الآن ، بمثل ما يلتمس الجائع ما يسد رمقه ، والعطشان ما يبل أوامه ، سواء أكان هذا الجو المقدر للمتعة الفنية ، قد تأثر بما يقال من جدوى هذه المتعة على الحياة و إصلاحها مادة وجسما ، أم لم يكن قدتنبه لهذه الفائدة ، واتجه إلى إرضاء الشعور الجلى ، أو الرغبة الواضحة فى الاستمتاع الروحى ، قصدا إليه لذاته . و إنا لنسىء الظن بكثير من عمل الإنسان ، لو مضينا فى تتبع بواعثه البعيدة إلى هذه الأغوار ، فلندع لهذه الرغبة الفنية روعتها ، ولنقدر ما يبغيه الأفراد والأمم إرضاء لهذه الرغبة التى هى الآن أكثر وضوحا ، وأقوى مظهرا ، وأبعد مدى ... وحياة أمتنا الخاصة ، قد تأثرت من ذلك بغير قليل .

وحين نقدر مثل هذا الملحظ ، ينبغى أن نقدر معه أن الاعتبار الدينى ، الذى كان ينتهى عنده قول الأقدمين فى غاية البلاغة ، قد تغيرت به الحال أيضا من جهات عدة ، **أولها** : أن أصحاب الإصلاح الدينى ، قد جدّوا فى رد هذا الإسلام إلى أصله الأول ، فجعلوه إصلاحا للحياة ، وترقية لمعاش الناس ، كما هو إصلاح لمعادهم ، وخرجوا من ذلك السجن الدنيوى ، الذى تحرم فيه زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، فلا بأس علينا بعد هذا ، فى أن نقدر الجمال الفنى فى اللسان ... على أنه لو لم يكن فى حيوية الدين إلا تقدير ما لفن القول من أثر فى إحياء مشاعر الأمة ، لكفى ذلك فى أن تكون الغاية من مدارسة هذا الفن ، ليست دينية اعتقادية ، على غرار ما كانت عليه فى حديث الماضين.

ومن جهات ذلك التغيير أيضا أن مسألة الإعجاز نفسها ، قد قيل فيها ما يعده أصحاب الدين ، والأغراض الدينية اليوم كافيا مغنيا ، وما أحسب أن لديهم جديدا يزيدونه عليه ، فيبتغون دراسة البلاغة تحقيقا لغاية دينية فى تصحيح اعتقاد الناس بالقرآن وسماويته ، فلو صح أن الغاية دينية ، لكانت هذه الغاية قد تحققت ، بل أوفت على التحقق منذ أمد

بعيد ، ولم يبق ما يقال فيها إلا المردد المعاد ، الذى يكفى اليسير من الدرس والجهد لتقريره ، دون حاجة إلى ما وراء ذلك من أمر العلوم الثلاثة التى يعدونها فى هذه البلاغة .

ثم من أوجه هذا التعبير ما أصبحنا نشعر به من فصل هـــذه الدراسة الأدبية ، عن المؤثرات الدينية الخاصة ، شعورا بأن للحياة حاجات وحاجات ، وراء تلك الهينات التى كانوا يتدارسون من أجلها اللغة ومواد‌ها ، والأدب وعلومه ، وهو شعور قد يتصل برغبة عامة فى تخليص الحياة من تلك الموجهات اللاهوتية ، فى أضيق معانيها ، وهاتيكم التحكمات التى ينعزل أصحابها عن الحياة ، ويريدون ـ عبثا ـ ليقودوا الحياة ويوجهوها من هذا المعزل المنقطع ، فينتهى بهم الأمر إلى أن يخسروا جهدهم فى هذا السبيل ، ويُخسروا الناس أشياء كثيرة ، ثم لا يظفرون بما حاولوه وطمعوا فيه ، من توجيه الحياة إلى وادى الموت . والذى أسلفنا من جهد المصلحين الدينيين ، فى العصور الحديثة ، كان علاجا لهذا ، ومحاولة مجدية فى تخفيف وقعه ، والإقلال من ضرره .

وعلى أساس من الرغبة الواضحة أو الباطنة ، قد فصِلت معاهدكم عن تلك اللاهوتية ، وطلب إليها أن تجد فى سبيل تحقيق الأهداف الاجتماعية ، التى تبغيها الأمة من حياتها اللسانية ، ترجوها من ظواهر نشاطها الأخرى ، وميادين جِدها المختلفة ؛ فأنتم خُلقاء اليوم بأن تجعلوا درس هذه البلاغة ، وفاء بحاجة الأمة الفنية ، التى أسلفنا الإشارة إليها فى الحديث عن غاية البلاغة عند غيرنا ، وهى الحاجة العملية والفنية ، على ما شرحنا من أمرهما ، وأشرنا إلى أنهما تلتقيان عند الذى كان يحاوله الأولون من أصحاب هذه العربية ، حين كان لها بالحياة صلة ، فذكروا أن البلاغة تدرس : للاعانة على صناعة الجيد من آثار الصناعتين : النثر الشعر ، وللتمكين من إدراك النادر من البارد فى هذه الآثار .

وهذه الحاجة الفنية والعملية ، هى التى جعلت (الأمناء) يدعونكم ، فيما أهدوا إليكم به هذا الكتاب : الذين يدبرون مزاج الأمة الفنى ، حين يروضون كل فرد من أبنائها على ما يستطيع من فن القول .

وإذا ما كنتم مدبرى هذا المزاج ، تمكينا للجماعة التى ولتكم ذلك من أمرها ، وأقامتكم حماة حياتها الوجدانية ، فإنكم لخليقون بأن تردوا هذا التدبير عاملا قويا فى إرضاء شعورها بنفسها ، والاستجابة لما يبتغيه ذلك المزاج الخاص من ألوان الحسن الفنى ، والجمال القومى الذى يوائم شخصيتها الخاصة ، ويساير طبيعتها المميزة ، فكلما اشتد الشعور بهذه الشخصية، قويت استجابتكم لهذا الشعور ، ودق تنبهكم لرغائبه ومطامحه ، فكنتم ــ كما قدمنا عن عملكم البلاغى ــ أدق حسا بهذه الخلجات ، وأهدى بصرا لهذه اللمحات ، وأصدق تبينا لها ، وأبلغ تعبيرا عنها ؛ وإن ذلك ليوفى بكم على غير قليل من الشعور بالمصرية ، حين يقوى تنبه هذه الأمة لها ــ وقد قوى ، ولا يزال يزداد فى ذلك تقويا ــ وهذا حرىّ بأن يسلمنا للقول فى :

تمصير البلاغة

حتى يكون ما تروضون عليه أبناء مصر صدى للذوق الخاص ، والاستحسان المتميز ، بل حتى يكون ما تروضون عليه أبناء مصر ، هو البيان البليغ عما يجده أبناء مصر ، فلا يجدون سبيل التعبير عنه والترجمة له . ولا بدع ، فأنتم أساة تلك الحياة المزاجية ، التى يقوم فيها المتفننون بالترجمة عما يجد قومهم ، ولا يهتدون سبيل الإفصاح عنه . والذين يروضون تلك الناشئة التى ترتقب الأمة فيها تراجمة مشاعرها ، وألسنة عواطفها ، لا بد أن يحسوا من ذلك ما دق وبعد ، واستتر واستبهم ، ويعلموا منه السر وأخفى .

والقول فى هذا التمصير وسبيله مما لا يتسع وقتنا هنا للإفاضة الوافية فيه ، فبحسبنا أن نلم إلماما يعرض جملة الفكرة وخلاصتها .

فنحن اليوم قد اصطنعنا العربية لغة لنا ، وعمل التاريخ بمختلف عناصره : من دينية وسياسية فى هذا السبيل ، حتى تم هذا الاصطناع ، فأصبحنا لا نُدْحة لنا ــ ونحن جماعة متحضرة ــ عن أن نعنى بلغتنا ، وأن تكون تلك اللغة مادة تفاهمنا ، ووسيلة تبادل عواطفنا ، وصورة كياننا الفنى ، تتسع لآمالنا ومطامحنا ومشاعرنا وخلجات نفوسنا الخاصة

لـكل ما وسيلته الأدب فى الحياة ، وما يقوم به الفن القولىّ فى الدنيا ؛ ومن أجل ذلك نراض ــ نحن أبناء الأمة المصرية ــ على القول الجيد بها تحقيقا لتلك الرغبات .

وإذا ما قلنا الأمة المصرية ، فإنما نقصد بذلك إلى أدق معانى التخصيص بهذه الحلية القومية ، حريصين على أن يفهم القارئ ذلك واضحا ، لا يسبق إلى وهمه منه ما يسبق عند ذكر الأمة العربية واللغة العربية ، فى إطلاقها المبهم الواسع . ولنحن أكثر حرصا فى الوقت نفسه على ألا يدرك السامع من هذا التخصيص أننا نضمر للعروبة شيئا ، أو ندعو لرأى بعينه فى الوحدة العربية ؛ كلا ، فستعلم أننا إنما نقصد إلى تقدير اعتبارات فنية ومَلاحظ أدبية ، تقضى علينا دقة البحث ، ويقضى علينا واقع الحياة أن ننبه لها ، وألا نساير أولئك الذين أغْضَوْا ويُغْضُون عنها فى تاريخ الأدب أو النقد الأدبى .

إنما نقصد إلى القول الصُّرَاح فى غير مواربة ، بأن العربية فى مصر ليست إلاّ عربية مصرية ، إن لم تتميز مفرداتها وصيغها عن العربية المراكشية ، أو العربية العراقية ، أو غير هاتين ، فلا بد أن يتميز ذوقها ومزاجها الفنى عن كل أولئك اللهجات ، تميزا جليا لا يصح الإغضاء عنه فى دراسة فنية قوامها الذوق ، وميزانها الحس الأدبى ، كدراسة هذه البلاغة التى نحن بصددها .

فنحن إنما نريد تقدير الذوق المصرى الفنى الخاص ، والاحتكام إلى الحس الأدبى المصرى ، والرجوع إلى ذلك دون غيره ، فيما نحدث عنه من دقائق فنية ، فى حسن اللفظ أو الجملة .

وما نزعم أن هـذا الحس قد بلغ فى تركزه حدا استقل به استقلالا تاما عن الحس الأدبى العربى العام ، أو الذوق العربى العام ، حتى نترك هذا إلى ذاك ؛.. ما ندعى هذه الدعوى المتطاولة ، بل لا نقصد إلى قريب منها ، إذ لايزال هناك ذوق أدبى عام للعربية ، ولايزال هناك حس فنى عربى عام ، وعند هذا الذوق يمكن أن يلتقى أبناء العربية كثيرا ، مهما تنأ بهم الديار ، وتفترق البيئات . فهناك قدر كبير تعتمد عليه الأحكام الفنية فى البلاغة ، ويجتمع أبناء العربية منه على وحدة لا تنفصم ، ومشاركة وثيقة لا تهِى ... لـكنا نقدر إلى

هذا كله ، أن للبيئة الطبيعية والمعنوية حكمها ، الذى لن تخرج عليه أمة ولا جماعة ، مهما تربطها بغيرها أواصر من النسب ، ووشائج من العقائد والتراث التاريخى . ثم لا يزال فعل هذه البيئة — طبيعية ومعنوية — تستقر آثاره على تقضى السنين ، ومرور الأجيال ، فتزداد تجسما وبروزا ، حتى تقيم فروقا إن لم تخلّ بالوحدة العامة ، فإن إهمالها يخل بصدق النظر ودقة التقدير .

ولست أذهب إلى أن العربية قد صارت فى المغرب والمشرق من التفارق ، إلى مثل ما صارت إليه بنات اللاتينية ، من فروق بين الفرنسية والإيطالية مثلا ؛ ولكنى أقرر غير متردد ، أن البضعة عشر قرنا التى مضت على استقرار العربية فى مصر ، متميزة عن أختها فى المغرب أو أقصى المشرق ، لابد أن تترك فرقا يستحق التدبر ، ويسترعى النظر ، وبخاصة فى المظهر الفنى ، الذى هو الصدى المردد ، والانعكاس الصادق للبيئة الخاصة وميزاتها ؛ فإذا ما كانت قواعد التصريف العربية ، وأصول تركيب الجمل العربية ، وقاموس المفردات العربية مثلا ، مما يُدّعى فيه عدم التغاير فى الأقطار المختلفة ، فما أحسب أن الذوق الأدبى ، والشخصية الفنية ظلت كذلك فى تلك الأقطار المتنائية ، دون أن تستجيب لمغيرات قوية فعّالة ، من ميراث هذه البيئات ، وخصائصها ، ودماء أهلها ، وما إلى ذلك ، مما أصبحت المقاييس العلمية الحديثة تسجل فى دقة أخفى آثاره ، وأخفت أصواته ؛ ومما لم يعد يسعنا أن نتجاهله أو نهمله ، أو نتناساه ، مسحّرين بالوحدة العامة ، فإن شيئا من هذه الوحدة ، وتلك الصلة ، لن يتأثر بالنظر الدقيق ، والمنهج السليم ، كما لا تنفصم عُرى الأخوّة بين الأخوين ، اختلفت ثقافتهما ، وتغير طريقاهما فى الحياة ، فكان لكل منهما مزاجه الخاص ، وكيانه الشخصى ، وإن جمعتهما وراثة أصيلة ، وربطهما نسب وثيق .

وإذا ما اطمأننا لهذا الأصل فإنا سنحاول تحقيق ما يلى :

١ — **تحكيم الذوق المصرى الخاص** ، حين نتحاكم إلى الذوق ؛ والقياس بالعرف المصرى الأدبى ، حين نقضى بألفة أو غرابة ، وقبول أو نفرة .

٢ — **البحث عن أنماط التعبير، وفنون التحسين**، التى أنس إليها الذوق المصرى أكثر من غيرها، فنمنحها حظا من عنايتنا أوفر .

٣ — **الأنس إلى لغة الحياة المصرية** فى تشبيهها، أو تجوزها، أو استعارتها، أو تكنيتها، وجعل ذلك سبيلا إلى استحساننا كناية أو استعارة، أو تفضيل تشبيه على آخر، أو إيثار مجاز على غيره .

٤ — **تخير نظر البلاغيين الذين ظهر فيهم أثر البيئة المصرية**، لنؤيد به رأيا، أو نعزز به اختيارا .

٥ — **تتبع آثار أدباء البيئة المصرية**، من شعراء وأصحاب نثر، نمثل بها ونستشهد، فنصل بذلك ماضينا بحاضرنا، ونعمل بجد على إبراز خصائص الذوق المصرى، وتمييز طابع الأدب المصرى الخاص، الذى يقدم إلى الأمة المصرية فى عروبتها اللسانية، أدبا ونقدا، قد تمصر واحتفظ بالمحبب إلى النفس المصرية، الأثير عند المزاج المصرى، فغذى بذلك الرغبة المصرية فى إيجاد أدب خاص له شخصيته .

نبتغى ذلك وإنا لمقدرون دقة ما نبغيه وصعوبته، غير مستكثرين الإقدام عليه برغم ذلك، طامعة فى أن نمهد الطريق لجهود متآزرة فى هذه السبيل، يشد بعضها بعضا، ويؤيد لاحقها سابقها .

فأساس فكرة التمصير، أن هناك ذوقا مصريا، وحسا مصريا أدبيا، له ميزاته؛ وهذا هو ما يشهد به ماض تاريخى عتيد، كما تؤيده ملاحظة الحياة فى دقة وانتباه، وعلى هذين الاعتبارين ـ الماضى التاريخى، والحاضر الشاهد ـ يوزع الجهد فى سبيل التمصير، فتكون لنا عناية بدراسة قديمة، مادتها الكتب والدواوين والرسائل المصرية، وألوان الحياة الفنية المختلفة، من نقش وتصوير وموسيقا وما إلى ذلك؛ كما تكون لنا دراسة محدثة، مادتها المظاهر الفنية فى ألوانها المتعددة، ولا سيما الأدبية منها، تستمد شواهدها من الماثل الدائر فى لغة الحياة.

ففي دراسة القديم تتعاون الدراسة الفنية المختلفة للبيئة المصرية ، مع الدراسة الأدبية بعامة ، ومع البلاغة بخاصة . فحين يدرس أصحاب الفنون المختلفة آثار الشخصية المصرية فى العمارة والنقش والتصوير وما يتصل بذلك ، يدرس الأدباء الميراث الأدبى لمصر العربية ، من شعر شعرائها ونثر كتابها ؛ فنرى العناية الخاصة تتجه إلى نشر هذه الدواوين ودرسها ، ولاتقف دراستنا عند من طال ترددانا لأسمائهم من الشعراء والكتاب ، بل نعنى بأمثال ابن الفارض ، وابن النبيه ، والبوصيرى ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، ومن إليهم ، ونرى الدراسات المتصلة بالأساليب المحدثة تتجه لمثل أحمد بن يوسف ، والقاضى الفاضل ، وابن مكرَّم ، والمسبِّحى ، والمِقْرِيزى ، والقِفْطى الخ . ولا شك أننا آنس إلى النِّسب المصرية ، من أمثال الشَّطَّنُوفى ، والمَحَلِّىّ ، والسَّكندرىّ ، والبُلْقينىّ ، والزُّرْقانِى ، والتَّفْهَنِىّ ، والسُّيُوطِىّ ، والأَسْنَوِىّ ، والأُدْفَوِىّ ؛ نحن إلى هذه النسب آنس ، وعلى دراسة هؤلاء أقدر ، وهى ثروة ماثلة بين أيدينا بآثارها ومظاهرها ومقومات بيئتها ، ومن حقها علينا ، بل من واجب العلم ، والفن ، والكرامة ، ألا يطغَى عليها الرازىّ ، والزَّمَخْشرىّ والسَّكاَّكىّ ، والتَّفتازانى وأمثالهم ؛ فبهذا الدرس للأدب والحياة الفكرية فى صورها المختلفة ، نتفهم الذوق المصرى ، ونصف فى دقة خصائصه ومميزاته ، وننتزع فى درسنا البلاغىّ ، ونقدنا الأدبىّ شواهدنا وأمثلتنا ومادة درسنا ، من هـذا التراث المصرىّ ، فيُجْدى ذلك على أبنائنا ، ويتصل بشعورهم ، ويُرْضى حسَّهم ، ويربى ذوقهم ، ويكونون له أكثر تقبلا ، وأحسن استماعا ، وبه أشد تأثرا .

* * *

وفى البلاغة بخاصة ، نجد كذلك ماتركه مؤلفون قدماء ، عن هذا الذوق المصرىّ ، أو تلك الشخصية المصرية ، فقد انتبهوا إلى آثار البيئة المصرية فى هذا الشأن ، وسجلوا تلوينها لدراسة البلاغة نفسها ، وأنها أوجدت مدرسة مصرية بلاغية خاصة ، برغم صعوبة هذا التمييز فيما مضى من الزمن ، إذ كانت الفكرة القومية غير ملتفت إليها ، وكانت الحدود الشعبية والمعالم الإقليمية مضيعة ، وكانت الفكرة الإسلامية الجامعة الموحِّدة ، هى السائدة المسيطرة .

ولقد كنت عُنيت بهذا المعنى منذ أعوام ، فدرست « مصر فى تاريخ البلاغة[1] » ووجدت من مثل ما أشرنا إليه آنفا ، شواهد واضحة قوية ، إذ زادت مصر فى الفنون الأدبية فنونا بعينها، وصلت إلى بضع عشرات ، وافترقت دراسة البلاغة فيها ، عنها فى البيئة التركية التترية، التى نمت الجرجانى ، والزمخشرى ، والسكاكىّ ، والسّعد ، وأشباههم ، وانتبه إلى هذا الافتراق وعلله ، مؤلف مصرى عاش فى القرن الثامن ، هو «السبكى» الذى وضع شرحا للتلخيص ، آثر من شروح السعد التفتازانى وغيره له .

* * *

هذه إشارات إلى أصول الدراسة القديمة ، التى يقتضينا إياها الواجب الفنى ، ويُلزمنا بها الإخلاص لأنفسنا ، والشعور بوجودنا.

وأما الدراسة الحديثة اللازمة لهـذا التمصير ، فتقوم بالإقبال على لغـة الحياة الشاهدة ، حين تتأنق فى أمثالها وحكمها ، وحين تتفنن فى أغانيها وأناشيدها ، لمختلف مواسم الحياة ، من فرح وحزن وفخر وغيره . . . نقبل على هذا ، نبتغى منه المجاز الواضح العلاقة ، والتشبيه الواصف المجسم، والاستعارة الآخذة بحس السامع ، والـكناية الرقيقة المتلطفة، التى تلمس الغرض الأدبى واقعا محسا ، إلى غير ذلك من المحسنات التى نرى اللغة اليومية فيها عربية الأصول ، عربية المادة ، مصرية الذوق ، مصرية الحس ، مستمدة من واقع الحياة الجارية فى بيئتنا الخاصة ، مثل الذى استمدته العربية فى الجزيرة من طبيعتها الخاصة المميزة .

* * *

وليس بدعا أن أُهيب بدارسى البلاغة ومعلميها، وناقدى الأدب ، أن يلتفتوا و يلفتوا إلى روائع التشبيه المصرى ، ومحاسن المجازات ، وطرائف الاستعارات، ولطيف الـكناية فى العامية، مما يجرى فى الحديث اليومى ، وتحفل به الفنون الأدبية، فى الأغانى البَلَدِيّة ، والأمثال العامية ، بل ليس بدعا أن أهيب بهم ليكلفوا أنفسهم وتلاميذهم تعقّب ذلك وجمعه ، والنظر فيه ،

(١) نشر هذا البحث فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالعدد الأول من المجلد الثانى عام ١٩٣٤م

ليتخذوه سبيلا يسيرا قريبا محببا ، لفهم الصور البيانية ، وإدراك قوة الأداء البلاغى ، ولا يقفوا عند التلقين المتناقل لأمثلة وشواهد ، مما لا يجد الناشىء ولا الكبير أثرا لها فى نفسه ، ولا وقعا على حسه ، أو يجد له أقبح الأثر وأقبح الوقع ، فيبرَم بالدراسة الأدبية وهى شائقة بطبيعتها ، ويلقاها كارها ، تلك الكراهية التى هى أخطر شىء على الانتفاع بالدرس ، وهى أخطر شىء على وصل اللغة المدروسة بالحياة الجارية ، ثم هى التى تفقدنا بذلك كله عاملا قوميا هاما ، يؤيد وحدتنا ، ويشد أزرنا الاجتماعى .

نعم ليس بدعا أن يكون الذوق المصرى فى اللغة الجارية ، سبيل إدراك الصور البلاغية فى العربية ، وأن تكون هذه الدارجة سبيل إدراك الصور العربية فى الفصحى ، وسبيل درس فنون العربية المختلفة ، إذ يكون الأنس بها والإلف لها ، ممهدا لإلف الفصحى والأنس بها ، مقربا مسافة الخلف بين اللغتين اللتين انتهى بهما التطور ، وحكم النواميس الاجتماعية ، إلى هذه الحالة التى أفضنا فى بيانها فى الكتاب الرابع من هذا المؤلف عن «اللغة والحياة» .

أقول قولى هذا ، وأدعو دعوتى[1] تلك ، وأنا أعرف خير المعرفة أن هناك نفرا لا يخضعون هذه الفصحى لنواميس الحياة ، ولا يريدون الانتفاع بتلك النواميس فى إصلاح ، ويفسدون ما بينها وبين هذه العامية إفسادا يدخل الضير على الفصحى ، ويمكن للعامية من مقاتلها ... أعرف أن هؤلاء النفر لا ينظرون إلى هــذه الدعوة نظر العلماء ، ولا ينتفعون بها انتفاع المجرّبين ، بل يتركون الحياة فى هذه الأرض ، ليفزعوا إلى السماء يستعدونها على الكفار المارقين ، ويلوذوا بجهنم يفتحون لهم منها أبوابا خاصة ... لكن ... القافلة تسير !

* * *

وأحسب أن فيكم من يسأل بعد الذى أشرنا إليه من تغير الحياة ، واختلاف الهدف : **ماذا عسى أن يكون موقفنا من الكتاب الكريم وإعجازه وفنه**؟ أترانا نأخــذ فى هذا الإعجاز بمذهب يردنا عن القول فيه ، أو يسلمنا إلى إنكاره ، أم نأخذ برأى يوجبه وينافح عنه ؟ وإذا ما كان الأمر كذلك ، فبأى هذه الأسلحة ننافح ؟ أبالأسلحة الأولى ، مما حملته

(١) نشرت عن هذه الفكرة فى تمصير البلاغة مقالين بجريدة السياسة الأسبوعية فى ٢ إبريل ، ١٤ مايو سنة ١٩٣٨ . وفى كتابى « إلى الأدب المصرى » وفاء بشرح نظرية الأقليمية الأدبية ، والتكملة لهذا البيان عن التمصير البلاغى ، وواجبنا الفنى ثم القومى فيه .

إلينا البلاغة القديمة ، أم بأسلحة مستحدثة من هذا الفن القولى ؟ أم ترانا نترك الرأى فى هذا الإعجاز نفيا و إثباتا لأصحاب الدين المنفردين بذلك ، ليقولوا فيه بما يشاءون من قديم إن اكتفوا به ، أوجديد إن نشطوا له ... ؟ تلك أسئلة فاضت على ألسنتكم ، وضججتم بها ، فى غير موطن مما ورد فيه ذكر القرآن فى هذه الدراسة ، وطال قولنا عنها ، ونحن بهذا خلقاء أن نكشف وجه الرأى عن مسلكنا فيها ، ونظرنا إليها ، بعد الذى ارتضيناه من غاية للبلاغة اليوم .

وأول القول فى ذلك كله ، أنا لن ننظر إلى هذا الكتاب نظرة لاهوتية ، فى لون ما من ألوانها ، ولن نخشى من ترك هذه النظرة اللاهوتية خطرا قريبا أو بعيدا ، على عقائدنا أو عقائد الناس حولنا ، فإن هذا الإعجاز الأدبىّ قد دفعه مسلمون، حين قالوا «بالصَّرْفة» ، ولم يقدح إنكار الإعجاز البلاغى فى عقائدهم ، ماداموا قدعرفوا وجها آخر له . و إذا كان الرأى الأدبى بعينه فى تقدير القرآن ، ليس مما يلزمنا عقيدة ، ولايتوقف عليه إيمان ، فقدتحررت دراسةفن القول ، من كل ضغط لاهوتى ، واسترحنا من كل شر ينجم عن مثل هذا الضغط المحتكم ، والتهديد بسطوته ، أو استعمال رجال له ، بحق أو باطل ... وبقى بعد ذلك أن ننظر إلى فنية هذا الكتاب، من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأشهر ، الذى عرف له أدباؤها ما عرفوا ، خلال الأجيال التى قطعها إلينا . سننظر إلى هذا الكتاب من حيث هو الأثر الأدبى العربى ، الذى ينظر فى تقديره صاحب هذا اللسان العربى بعروبته ، ولغته ، وذوقه ، وفنه ، لا بشىء غير هذا : من عصبية دينية ، أو عصبية جنسية ، أو ما إلى ذلك ، من هوى يفسد الرأى ، و يضل السبيل إلى الحكم الفنى الصحيح الدقيق ؛ وسنرصد ما يستطيع أصحاب هذه العروبة اللسانية اللغوية الذوقية ، أن يصدروه من حكم على هذا الكتاب اليوم ، وما استطاعوا أن يصدروه من مثل هذا الحكم النزيه ، بالأمس القريب أو البعيد ، دون أن نخشى ضررا مّا ، فى تناول هذه الأحكام ، لأن أبعد ما فى الأمر هو إنكار الإعجاز البلاغى ، بوجه أدبى ؛ وليس فى هذا بأس ، ولا هو يجعل لأحد علينا سبيلا، وما بى أن أؤكد لسامع هذا الكلام، أننا لانجلّ هذا الكتاب الكريم إجلالا أدبيا مقلدا،

و تخدم فيه رأياً أدبيًّا خاصا ، لأن ذلك مالا يرتضيه البحث النزيه ، بل ما لايحب الإسلام نفسه أن يقوم عليه حكم بالأعجاز الأدبى لكتاب رسالته ، ومعجزة نبوته ؛ لكن الذى يعنينا أن نؤكده لهذا السامع ، هو أنا حين نحرص على النزاهة إيجابيا ، نحرص عليها سلبيا ، فلا نَلْقَ هذا الكتاب الكريم ، والتُّراث الجليل ، برأى سابق فيه ، وحكم مبيَّت قد أملاه هوى ، أو أغرى به زَيْغ، أو دعا إليه مَرَض قلبيّ. كَلاَّ: فليس ينبغى لطلاب الحرية ودعاتها ، أن يجعلوا الدعوة إليها سبيل خدمة هواهم ، والجور على سواهم ، فيجرموا مرتين ، ويسيئوا إساءتين ، أولاهما فساد الطوية ، الذى يُفسد فيها الحكم الأدبى ، كما يفسد غيره من الأحكام ، بل هو فى الحكم الوجدانى ، أشدُّ خطرا ، وأعظم ضررا .

وثانيتهما السوءة الخلقية ، حين يكذبون على الناس ، بدعوى الحرية والبراءة ، وهم أرقاء غاشون ، مستعبدون للباطل مضلون .

أقرر هذا ، وأنا أقدر أن الحرية النزيهة كبيرة إلا على الصادقين ، الضابطين نفوسهم ، وما أقل أولئك ! لكنى بهدى القرآن نفسه ، أوثر أن أعرض القرآن لدرس فنى حر مخلص ، كما طلب أن يعرض نفسه لدرس دينى كذلك ، ودرس عقلى كذلك ، وحارب التقليد والتلقين ، فى كل أولئك وما يتصل به .

وبهذا الوجه من الرأى ، نجد الإجابة عن كل ما أسلفت من أسئلة ؛ فليس لنا مع هذه الدراسة رأى بعينه فى الإعجاز الأدبى نلتزمه ، أو ننافح عنه ؛ ووراء هذا أنا لا نتأثل سلاحا بعينه ، فى كفاحٍ ما عن هذا الإعجاز ؛ ولكنا لن نترك الرأى فى الإعجاز الأدبى نفيا وإثباتا ، بل سنضع من أصول الفن القولى ، ما يستطيع الزمن اليوم أن يضعه ، متحررا من كل قيد ، ثم ننظر على ضوئه فى هذا القرآن ، فينتهى بنا ذلك النظر إلى ما يمكن أن ينتهى إليه ، وتقبُّله ما دامت القدرة الإنسانية قد سُخرت لتبرئته وتنزيهه ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وأما الجانب الاعتقادى فى هذا الإعجاز ، والتزام وجه بعينه ، فلا نعرض له مطلقا ، بل

ندع تصحيح هذه العقيدة على الوجه المرضى ، لأصحاب الثقافة الدينية الكلامية الخاصة ، وبحسبنا من ذلك كله ، أن إنكار الإعجاز البلاغى للقرآن ، مما لم يلحق أحدا به بأس ، ولا يدخل به نقص على عقيدة . ولقد ننتهى نحن فى طلاقتنا الفنية ، إلى تقرير هذا الإعجاز ، فيكون ذلك خيرا ، يزيده فضلا وحسنا أنه ليس إيحاء الأولين ، ولا تلقين التدين التقليدى ، وذلك خير ما يحب القرآن أن يكون رأيا فيه ودينا .

الكتاب السادس

بلاغة اليوم

أو فنّ القول

١ ـ نتائج المقارنات وكيف نحققها:

أ ـ في الصورة، وجمالها

ب ـ الدائرة، وسعتها

ج ـ المنهج، وتصحيحه

د ـ الغاية، وحيويتها

٢ ـ أبحاث فن القول:

أ ـ وصفها .

ب ـ تنسيقها .

أردت لأقيم الرأى فى البلاغة وإصلاحها ، على أساس من الواقع المجرَّب ، المنتفع بخبرة من حولنا من الأمم ، المستفيد من التقدم الإنسانى ، والرقى الاجتماعى ؛ ومن أجل ذلك قدمت ما سلف من مقارنات لصورة البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومنهج درسها ، وغاية هذا الدرس عند الأقدمين ، على ما اشتهر عندهم ، وغلب فى تناولهم ، من صنيع مدرسة المتكلمين فيهم ؛ وعند المحدثين من أمم الغرب ، فى جملة أمرهم ولباب رأيهم ؛ والحضارة الغربية اليوم ـ فى أصولها ـ موحدة الأسس ، متشابكة المسالك ، يجدّ الجديد فى الأمة منها ، فيمسى عند صواحباتها ؛ ولذلك اطمأننت إلى أن ما أَحلْت عليه من نظرات بعض أممها ، وما أنست إليه من لمحات بعضها الآخر ، هو ما يسعنى أن أدعوه فيما مضى من تلك المقارنات : ما عند المحدثين ، أو ما عند الغربيين .

وبهذه المقارنات ، رجوت أن تكشف المقابلة عن أوجهٍ من الفروق الجلية ، تقنع الناظر بالحاجة الحقة إلى التغيير والتعديل ، فأظفر من ذلك بحرية القول ، بل إطلاق اليد ، فى تصوير تلك البلاغة ، وتنسيق أبحاثها ، وتناول مسائلها ، والكلام فيها ، على هدى التمثل الواضح للصورة المحببة الجميلة من هذه الدراسة ؛ وفى أفق طلق فسيح الجَنَبات ، منسرح المدَى ، يشرف على جنبات العمل الأدبى كلها ، وينال من ذلك أقصى ما ترنو إليه العين المتفننة ؛ وبمنهج سديد فى الحكم الوجدانى ، والتذوق الأدبى ؛ ولغاية حيوية قومية ، تجدى على الحياة ، وتسعد الأمة ، وتستجيب لنهضتها الحرة الجادة ، دون تهيب ولا تردد فى إبعاد ما يجب إبعاده ، ولو اشتدت به عناية القدماء ، وأحلوه المحل الرفيع ، أو أضفوا عليه حرمة وقدسية ؛ وفى إقدام على إضافة ما تنبغى إضافته من حديث ، ولو لم يخطر لهؤلاء القدامى ببال ، أو يطف لهم بخيال ، ما دمنا لا نقصد من ذلك كله إلا وجه الفن ، ومرضاة

الحسن القولى ، والجمال اللسانى ، والقيام فى إخلاص بحق الدرس الأدبى ، كما تبتغيه الحياة اليوم ، وعلى درجة من النضج والأصالة والعمق ، جديرة بالدرجة التى بلغها الرقى الفنى والعملى والعلمى للحضارة الإنسانية ، مهما يجحد ذلك مكابرون ، أو يخفَ وجهه على عُشْى جامدين، لايدركون نعمة الله فى قلوبهم ، ولايعرفون وجه معجزته القولية فى دينهم ، ولايبغون لأنفسهم حقا فى حياة أكثر تحررا وتساميا واستشرافا .

ولعل مما يزيد الإقدام فى هذا الميدان ، ما أشرنا إليه فى غير هذا الكتاب ، من إقرار القدماء أنفسهم ، أن البيان من علومهم التى لم تنضج ولم تحترق[1] ، فى تقسيمهم الذى أداروه على هذا المعنى فى « الطبخ » . فهو بشهادتهم محتاج إلى الإنضاج ، حاجة قد قرروها وإن لم يحاولوا تحقيقها ، وسلموا بها ، وإن لم يلتمسوا إتمامها . وتلك منهم – فيما أرى – وَصاة للخالفين ، يُرْضِى أولئك السلفَ أن تحقق . . فمن شاء أن يستجيز لجد يومه بتأييد من أمسه ، فتلك قالة الأولين وإجازتهم ؛ ومن شاء أن يعيش فى يومه وبين أهل دنياه ، فقد أسمعناه حديث أولئك المحدَثين عن فهم القولى ، وآن له أن يبتغى للغته وأدبه ، مثل هـذا التبصير بأصول الفن ، وأن يمكن لقومه وأخلافهم ، من تلك الدراسة المحققة لغاية تتصل بها أهدافهم الحيوية السامية، ويحتاج إليها وجودهم الكامل ، ومنزلتهم الكريمة .

وإذا ما كانت مقارناتنا السابقة ، قد كشفت عن نواحى هذا التغيير ، وقدمت عناصر ذلك التجديد ، فإن الأمر يحتاج تمامه بعد هذا ، إلى نظرات تاريخية نفاذة فى حياة بلاغتنا ، وليست هاتيكم النظرات مما عرضت له فى هذا الكتاب ، وإن كنت قد أرسلتها تفحص هذا التراث ، حين تناولت فن القول فى «الجامعة» ، كما عُنيت هناك بمسائل مفردة من هذا التاريخ ، أفردت بعضها برسائل خاصة، حتى لينتظم من ذلك وما إليه من محاولات فى فهم القديم ، وتطلع إلى آفاق الجديد ، ماهو الطريق المعبد «**إلى فن القول**» ، والتقدمة اللازمة بين يدى الكلام فيه على صورته الأخيرة ؛ ولعل جملة من ذلك كله ، تخرج فى كتاب مفرد قريبا إن شاءالله . وإنا هنا قد اكتفينا مضطرين ، بالإشارة إلى تلك

---

(١) الجلال السيوطى — كتاب الأشباه والنظائر — ط الهند — جزء ١ ص ٥ ، ٦ .

المقررات التاريخية ، والإحالة على ما يمكن الرجوع إليه منها فى مظانه ، كما يبدو ذلك فيما سبق من مقارنة . وسنكتفى بهذه الإشارة والإحالة فيما يلى من قول عن التجديد وحديث التاريخ فيه ، إذ أننا إنما عُنينا هنا بالجانب العملى التعليمى ، والغرض الأقرب فى توجيه تعليم هذه المادة بمدارسنا ، وإمداد معلميها بفكرة جامعة عن هذا التجدد ، ومثل عاجل منه ، أو مُثُل يصنعون على غِرارها فى دروسهم ، حتى يتم إعداد جيل جديد ، كامل الفكرة ، تام الأهبة ، فى يده المصنفات الكافية فى تاريخ البلاغة ، والموسَّعات الوافية فى «فن القول» ، وهو ما نرجو ونأمل أن تسعف عليه المقدرة ، وتمده معونة الله تعالى ، حتى يتم على خير وجوهه ، وفى أفضل صوره ، إن شاء الله .

* * *

وبعد هذا البيان ، نعرض هنا لنتائج المقارنات ، فى نواحيها المختلفة ، على ما توليناها آنفا ، فنتناولها واحدة واحدة ، نعرض بين يدى القارىء مجمل ما انتهت إليه فى مكانها ، لننظر فيما يحقق الوجه الأفضل ، والمثل الأكمل فى تلك الناحية ، بتنحية المعوّق ، وتكملة الناقص ، وتنمية المتوقف ، وزيادة المستحدث ، فإذا ما أتممنا ذلك فى تلك النواحى الأربع ، التى أدرنا عليها المقارنة ، كملت لنا الفكرة عن « بلاغة اليوم » ، ومثَّلت لنا مخلوقا فنيا ، تسرى الحياة فى أوصاله ، وتملأ العافية إهابه ، ويضىء الحسن معارفه ، ويفيض الجمال من قسماته ، فنؤثره بالاسم الصادق الدلالة على ميزاته ومميزاته ، وندعوه **«فن القول»**.

وإذا ما تمثل لنا هذا الهيكل ، واستبانت أجزاؤه وأقسامه ، وقد دللنا على مصدر الحياة له ، ومنبع القوة فيه ، وهو منهج تناوله ، وأسلوب تفهمه ؛ ثم تقدم الدارسون فى هذا المعهد ، من مدرسى هذه المادة الفنية ، فدرسنا معا قسما من أقسامه ، وفقهنا بابا من أبوابه ، هان عليهم بعد ذلك كله ، المضى المستقل ، والتقدم المنفرد ، فى إصلاح الدرس ، وإشاعة أنسام « فن القول » ، برغم ما قد يصدهم عن هذه السبيل من معوقات رسمية فى المنهج والكتاب ، نطمع فى أن يغلبها إيمانهم ، ويحطمها عزمهم ، وتسعف الأيام على إقرار خطة إصلاحية كاملة شاملة .

ونبدأ بعرض نواحى المقارنة واحدة واحدة ، لنرى نتائج تلك المقارنة ، وماذا نفعل لتحقيقها ، فنتكلم عما :

في صورة البلاغة

انتهت بنا المقارنة بين صورة البلاغة عند القدماء ، وصورتها عند المحدثين ، إلى النتائج الآتية :

في القديم

بدت صورتها على أنها : بحث عما يحترز به عن التعقيد المعنوى ، وعن الخطأ فى تأدية المعنى المراد (ص ٣٧)

تقع فى تنسيق العلوم الأدبية بعد النحو[١] ، وتعنى بالمعانى الثانية ، بعد المعنى الأول الأصلى ، وبمراتب الإفادة لتلك المعانى الثانية .

ضيقة الحدود ، قائمة على المعقول من منطق وفلسفة ، فكانت صورة ذلك كله معروقة الوجه ، بادية العظام ، شاحبة ، يسيرة الحظ من الحيوية والنضرة (ص ٤٠)

في الحديث

بدت صورتها على أنها : الدرس الذى يعلم الأحسن والأجمل من الكلام (ص ٤١)

فهى فى ترتيب المعارف والثقافات : فن من الفنون الجميلة ، أساسه القول الممتاز ، وأداته الكلمة (ص ٤٢)

وفى تدرج الدرس اللغوى تكون مرحلة من الحسن ، تجىء بعد الصحة

درس فنى ، شقيق الموسيقا ، وصنو سائر أفراد الأسرة الفنية ، من سمعية وبصرية (ص ٤٣) ؛ فبدت صورتها لذلك كله أنضر وجها ، وأبهى قسمات ، إذ هى تعبير عن الإحساس بالجمال ، تتصل من ذلك بأرقى وأنبل وأصفى ما تستطيعه الروح الإنسانية .

---

(١) وضع البلاغة بعد النحو فى تقدير الأقدمين واضح من الجدول المرسوم فى ص ٣٩ من هذا الكتاب ، وبهذا الوضع يبدو الفرق بين الدراستين واضحا ، فالنحو درس للمركبات من حيث تأديتها المعنى الأصلى ، والبلاغة درس للمركبات من حيث أفادة معان ثانية ، ومن حيث مراتب الوضوح ؛ لكن هذا التفريق الواضح بين النحو والبلاغة مما يخصه بعض الأقدمين ، وهو ما لا يتفق فى شىء مع قول عبد القاهر فى دلائل الاعجاز (ص ٣٧ طبع السعادة) ، ولا ما يقوله السبكى فى عروس الأفراح (ح ١ : ٢ من شروح التلخيص) ، وما يقوله السعد فى الشرح المختصر (ح ١ : ٥٠ شروح) ، وفرق ما بين تناول النحوى والبلاغى للمسائل التى قد تبدو مشتركة هو : أن النحوى يبحث فيما به الصحة ، ويحدث عن الأحوال الواجبة نحويا ، والبلاغى يبحث عما به الحسن ، ويعلل اختيار الأديب فى عبارته لبعض الصور الجائزة نحويا دون بعضها الآخر . والسبكى يقول فى عروس الأفراح (ح ٣ ص ١١٠ شروح) =

وبالنظر فى هذا الإجمال المنتزع من نتائج المقارنة السابقة فى الصورة ، يبدو تقابل الصورتين ، وتتراءيان لنا واضحتى التخالف والتضاد ، يزيد ما بينهما من فرق بذهاب الثانية صُعُدا فى مدارج الفن والجمال ، ومضى الأولى نزلا فى جفاف النظريات ، وجسوة الفلسفيات ، ونسيان الفنيات . وقد وصلت الثقافة الإنسانية إلى تفريق جلى بين أنواع المعارف ، وتمييز للأجواء التى تصلح لحياة كل صنف منها ، حتى أضحى من واجبنا فى هذا العصر ، أن نقدر هذا التفريق ، ونجد فى سبيل جعل هذا الدرس الأدبى فنا جميلا، لا فلسفة تأملية ، ولا علما نظريا ، فلننظر ماذا ينبغى أن نعمل لإكساب بلاغتنا تلك الصورة المحببة .

وأول العمل فى هذا السبيل ـ كما يقول القدماء ـ *تخلية* ، وثانيه *تحلية* . فالتخلية تخلص هذه البلاغة من مظاهر الجمود ، وظواهر الجفاف ، وأسباب الذبول ، فإذا ما تم لنا ذلك ، صلحت بعده للتحلية بأسباب الحسن ، ووسائل التأثير ، وعلى هذين النوعين نقسم عملنا فى تجميل صورة البلاغة ، بادئين بالقول فى أولها .

* * *

التخلية : ولعل أسبق ما يقدم بين يدى ذلك : أن نكشف ما يسود جو شعورنا ، ويلوّن حياتنا ، من جفوة ونفور من الفن والفنون ، إذ اقتضت ذلك أسباب متعددة ، منها ما هو سياسى، وما هو اقتصادى ، وما هو دينى عام ، كنظرة التدين إلى منزلة الحياة الدنيا من الحياة الآخرة ؛ وما هو دينى خاص ، كنظرة التصوف الزاهدة إلى مباهج الكون ومحاسن العالم ؛ وأضفى ذلك كله على الحياة الإسلامية ظلالا من السآمة والملالة ، وألوانا داكنة، تردُّ هذا العالم فتنة ومهلكة ، وتبث الريبة والخوف مما بث الله فيه من خيرات ومحاسن ؛ فانصرف قومنا فى العصور الوسطى من تاريخهم ، حتى قريب من عصرنا هذا ، عن الدنيا ، وحرّموا زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، التى هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وسموا السائغ المستساغ منها ، والمصلح المفيد المهذب للنفس ، المصفى للروح ؛

ـــــــــــــــــــ

= « كل ما وجب لغة وجب بلاغة .وليس كل ما وجب بلاغة وجب لغة » . والفرق لا يخطئه جمهرة الأقدمين وإن أوهمت عبارة بعضهم ـ كالسبكى ـ غير ذلك . أو خلطوا البحثين عند التناول أحيانا .

وقد وقع فى هذا الخلط بعض أبناء العصر ، لكن الحق أن الحدود بين بحث النحو وبحث البلاغة واضحة متميزة . وسنزيد هذا بيانا فى مكانه .

وسواء أنجح هذا التوجيه فعلا ، أم كان أقوالا مرددة يؤيدها ظاهر الحياة ، وتكذبها حقيقة واقعها، ودخيلة معيشتها،سواء أكان الأمر هكذا، أم هكذا، فإن الكتب الإسلامية فى مختلف المعارف ، و بغير مناسبة أو مناسبة جد بعيدة ، قد امتلأت بالكلام فى مثل هذه المعانى ، ولقيت تلك الأقوال نفرا خلطوا بين الخير من الزينة والشر منها ، و بين مالابد منه لاستقامة الحياة وتقدمها ، وما هو عبث ولغو وفسوق وعصيان ، حتى صار القول فى الفن وأضر به ، وضم الأدب إلى الموسيقا ، والدعوة إلى دراسة وجدانية الأساس ، مما يطن حوله طنينهم ، وتطول عليه ألسنتهم .

وما نريد أن نتحدث هنا فى حل شىء من تلك الفنون أو حرمته ، فليس المكان مكانه ، ولا نحن متصدون له ؛ و بحسبنا فيما نبتغى من تنقية الجو ، وتصفية الشعور ، أن نقرر أن المتعة الفنية التى أشرنا إليها ، عند القول فى غاية البلاغة (ص ١٥٤) مما لا بأس به ، ولا شرّفيه ؛ بل هى مما تستقيم به الحياة وتقوى ، وترتقى وتكرم ، و إن كان لا بد لنا من أن نحتج لشىء من هذا أو نؤيده ، فلقد يكفى فى ذلك ، أن هذا الفن القولى ، هو جمال اللسان ، الذى يقال عنه : إن الرسول عليه السلام سئل : فيم الجمال ؟ فقال : فى اللسان[١]. وما بنا أن نخرّج هذا أو نتعقبه ، فإن الإسلام هو صاحب المعجزة القولية ، التى نشرت دعوته ، وأيدت دولته ، وفى سبيل إعجازها التمسوا ذلك الدرس البلاغىّ ، فالروح الإسلامىّ أقبل لهذا الفن ، وأحنى عليه ، وأحفى به ، مما يهم واهمون ، أو يظن متشددون ... ووضع الفن القولى فى جو من هذا الجمال اللسانى ، ورده إلى طبيعته التى فطره الله عليها ، ليس مما يَبْرَم به ، أو يسخط عليه ، من لبرمه قيمة ولسخطه أثر .

و بهذه الخطوة الأولى ، فى تخلية حياتنا من جفوة للفن والفنون ، ونفرة من معناها ، وتوجس من رواجها ، نضع الأساس الأول لإكساب البلاغة أثارة من جمال الصورة ، ونفحة من بهاء الطلعة ، و إن وراء ذلك خُطًا أخرى .

ومن التخلية أيضا : أن نزيل من الأذهان ما فى استعمالهم للعلم والفن من تداخل

---

(١) ابن رشيق — العمدة حـ ١ ص ١٦١ ط السعادة بالقاهرة .

وعدم تميز ، لنقر بذلك معنى الفن وحقيقته ، فى مكانه الصحيح من صنوف المعارف الإنسانية، ونشعر بالجانب الوجدانى والمعنى الجميل فيه ، فنشعر من إطلاقه على ذلك الدرس ، برَوح واسترواح، ينقلنا إلى عالمه، ويحيينا فى دنياه ، ويحول بينه و بين أعاصير النظر العقلى، فلا تُخنق زهراته ، ولا تصوِّح ورقاته ؛ و يغرينا بالتذوق الأدبى ، الذى يرفع و يضع ، ويأخذ و يدع ، من صور التعبير ، وأساليب القول ، دقيقا غير مضطرب ، مشرقا غير معتم ، مرهفا غير كليل.

والذى نشير إليه من عدم التمييز فى استعمال العلم والفن ، هو ما نجده فى صنيع الأقدمين ، إذ يسوون ــ أو يكادون ــ فى إطلاق الفن والعلم، فيتحدثون عن مبادئ العلم أو مبادئ الفن، ويسمون عددا من دراستهم علما ، كما يسمونها حينا فنا ، ما يجدون فى ذلك ــ غالبا ــ كبير فرق ، على حين قد أدى ما أشرنا إليه قبل من الخبرة بالنفس الإنسانية وحركاتها ، إلى تنسيق المعارف ، تنسيقا يفرق بين ذلك ، فيخص « الفن » بما هو تطبيق لحقائق نظرية ، وقضايا علمية ، مما يمكّن من عمل يدوى ؛ فإذا ما وصف الفن بالجميل ، فقد أريد به ذلك النشاط الوجدانى ، الذى كثر حديثنا ــ و ياطول ما يكثر ! ــ فى دنيا هذا الدرس الأدبى ، وما إليه من الدراسات التى نريد لنصله بها ، ونقره بينها ، وهى التى تختص بالتعبير عن الشعور بالحسن ، وتُقسم إلى سمعية كالموسيقا وأختها الأدب ، أو بصرية كالعمارة والنحت ... الخ ما ألممنا به .

ونحن إذا ما أطلقنا الفن ، فإنا نَعْنِى به ذلك « الفن الجميل»، و إن لم نقيده ولم ننعته ، لأنا نستغنى عن ذلك فى حديث البلاغة ، بالعهد الحضورى ، والعهد الذهنى ــ كما يقول أسلافنا الكرام ــ فأنت منه على ذكر وفى تنبه ، وكذلك سنمضى فى عامة حديثنا ، نذكر الفن القولى والفنون دون قيد ، وما نريد بها إلا « الفن الجميل » ، ونتحدث عن الطرق الفنية ، والوسائل الفنية ، والمنهج الفنى ، وما هو من ذلك بسبيل ، مريدين دائما هذا الفن الجميل ، الذى اطمأننا مع أمل هــذه الأيام إلى إشراب بلاغتنا حبه ، وتلوينها بألوانه .

وأحسب أنه بإزالة هذا التداخل فى الاستعمال ، تهيىء الأرواح لتمثل تلك البلاغة ، وجدانية الوجود ، حسناء المعارف ، وضاءة القسمات ، و إنه لأساس محاولتنا فى تجميل صورتها

فإذا ما اطمأنت النفوس إلى الفن ، لاتجفوه ولا تزورّ عنه ، وتحدد معناه فى الأذهان ، لا يلتبس ولا يختلط ، فقد تمت لنا بذلك تخلية ، يحلو بعدها أن نحاول منح هذه البلاغة ، خير ما نستطيعه من ...

التحلية : وفى هذه السبيل ، نظل مخلصين لقديمنا مااستطعنا ، حسنى الظن به ماوجدنا إلى ذلك سبيلا ، فنلتمس خيره ، ونجلو ما فيه من محاسن ، قبل أن نلتمس لهذه البلاغة زيا غريبا ، أو سمتا دخيلا ، أو زينة من تطرية الآخرين . ولقد كنا حدثنا فى المنهج ، عن مدرسة أدبية للبلاغة ، إن غلبت على أمرها فى الحياة التعليمية ، فإنها لم تحرم مكانها ، فى عالم التصنيف ، ولم تنحّ عن دنيا العمل ، بل قام بها نفر من الكتاب وغيرهم ، وخلفوا فيها آثارا ، نحسن إلى أنفسنا و إلى ماضينا ، حين نطالب ما فيها من تفنن ، أو تذوق وتنبه وتطلع ، فنبتغى ذلك ، لنحييه فى درسنا اليوم ، ونزوّد به فننا القولى ، مطمئنين إلى أن هؤلاء الأدباء قد تمثلوا من ذوق العربية ، واستجلوا من خصائصها ، ما يجدى على ناشئتنا ، ويفيد فى تجديدنا ، بل يقربه إلى النافرين منه ، وسنجد على مر الأعصر من ذلك ما يتصل بالذوق والجمال الأدبى ، فمن رسالة بشر بن المعتمر فى القرن الثانى ، إلى مقدمة ابن خلدون فى القرن التاسع الهجرى ، نسمع أقوالا لأناس تنسموا نسيم الجمال ، وشعروا بروعة الفن ، وحدثوا عن الذوق الأدبى والتذوق ، وتكلموا عن السحر والسر ، وأشاروا إلى الفتنة والمتعة ، وهم يَشيمون بذلك على الأفق أضواء باهرة ، تتراءى لعيونهم ، وتخفق لها قلوبهم ، وإن لم يف بجلائها بيانهم ؛ وقد أوردنا شيئا من ذلك ، فيما سلف من حديثنا عن المدرسة الأدبية فى دراسة البلاغة وخصائصها (انظر ص ٨٨ — ٩٢) ، ولا يزال وراء ذلك غير قليل من الإشراقات الفنية ، قد جرت بتشوفها أقلام رجال أدباء ، ذوى حظ مختلف من الوجدان الحس ، كأبى هلال العسكرى فى صناعتيه ، وابن رشيق فى عمدته ، وابن سنان فى سر فصاحته ، والزمخشرى فى الكشاف وغيره من آثاره ، وابن الأثير فى مَثَله ؛ إلى فريق

من النقَدة الموازنين كالآمدى، وعلى بن عبدالعزيز الجرجانى ، ومن إليهم ؛ بل لم تخل كتب المدرسة الـكلامية نفسها من نفحات تومض بين الفينة والفينة ، ولمحات تتطلع بين الحين والحين، مما نجتزىء هنا بالإشارة إليه ، ونكتفى بالإغراء به ، حتى يحين وقت الاتصال بهذه الآثار ، صقلاللأذواق ، وتجميلا لصورة بلاغتنا، فيسعف إذ ذاك البحث المتتبع ، بكثير من آثار إيمان القوم بجمال اللسان ، وتقديرهم لسحر البيان ، وتكشف المقارنة له بما يوائمه من نظرات المحدَثين ، المستشفة عما فى قديمنا من خير فنى ، وفيض وجدانى ؛ و إذا ما ظفرنا من هذا القديم بكل ما فيه من حلية ورواء ، تقدمنا إلى إتمام ذلك بما يكمله من :

التحلية بالجديد : تحلية تُرْسى أصول هذا التفنن ، وتزيد صورة البلاغة وضاءة وسنا . و إنما يكون ذلك بغير واحدة ، من زيادات هذا الجديد .

فأولها : ما نَلْقَى به طالب هذه المادة فى المبادئ ، حين نعرض للتعريف أو ما هو من التعريف بسبيل ، فلا نعرض من ذلك إلا لونا من التفنن ، فتكون البلاغة فى تعريفنا هى : فنية القول ، وأنه بحيث يكون تعبيرا عن إحساس القائل بالجمال . وليست بنا حاجة فى الرسم إلى أكثر من أن : البلاغة هى فن القول ، فيكون هذا التعريف وهاتيك التسمية(١) ، لَفْتا متصلا إلى الصورة المحببة ، والمنهج المرجو ، وصَرْفا مستمرا عما نحرص على إبعاده من الصورة القديمة للبلاغة ، والطريقة غير الصالحة فى تناولها .

وما نحسب فى هذه التسمية الجديدة للبلاغة ما يُسْخِط أو يُغْضِب من لسخطه وزن ، أو لغضبه قدر ، وإن نَقِمها جامد ممن يرتدون أكفان الموتى ، فلا علينا من ذلك ما دام لهذه التسمية إيحاؤها الدائم ، ولفتها المتصل إلى الهدف الجميل المبتغى ؛ ثم هى مع ذلك تحمل

---

(١) حينما نسوق هذا فى التعريف ، نريد من كلمة « الفن » معناها المصدرى ؛ وحينما نسمى البلاغة فن القول ، نريد من كلمة « الفن » معناها الاسمى ؛ ومثل هذا الأصل العام فى تعدد المراد قد كان فى لفظ « العلم » ، وهى مما نحن فيه بسبيل ، وما بين كلمتى العلم والفن من التداعى يقرب إلى الذهن هذا الاصطلاح المقرر فى إرادة المعنى المصدرى حينا ، والمعنى الاسمى حينا .

دلالة لغوية قريبة ، على المعنى الحسن المراد من البلاغة قديما وحديثا ، لما فى مادة الفن من المعانى ، فمنها التزيين ؛ يقال: فنّ الشيء فنا زيَّنه ، ومنها التنويع، مع إشعار بمعنى الحسن ، يقال : افتن فى الحديث : أخذ فى فنون وأساليب حسنة من الكلام ، وهى مما نحن فيه من حسن القول ، وجمال الكلام ، بل دلالتها عليه أقرب من دلالة البلوغ والانتهاء الذى أخذوا منه اسم البلاغة . ثم فى هذه التسمية بفنّ القول ، تأثير نفسى ، فى إعداد الطالب وتوجيه قواه ، ومثل هذا لا يستهان به فى ميدان التعليم والتلقين ؛ إذ يصل الطالبَ بجو الجمال والفن ، الذى تمنحه الحياة من نشاطها الكثير ، ويغرى هذا الوصل بأساليب الفن وطرائقه ، ويبرئ من الخلط فى المنهج والتناول ، فتستقر بمعونة ذلك أصول التفنين ، الذى يراد تحقيقه فى هذه البلاغة على ماعرفنا . ثم إن هذه التسمية — كما بينا — مما ارتضاه المحدّثون علماً على هذه الدراسة (انظر ص ٤٢) ليست بدعا من الرأى ، ولا غريبا من التسمية .

هذا قولنا هنا فى التعريف ، من حيث أثره فى تجميل الصورة ، وتأييد أهداف التجديد فى البلاغة . وأما الموازنة بين هذا التعريف وتعريفات الأقدمين على اختلاف العصور ، أو ميزته عليها جميعا ، فموضع التعرض له المبادئ من فن القول ، وسنلم بطرف منه قريبا .

وثانى ما تحلَّى به الصورة من الجديد : مقدمة فنية تصل طالب هذه المادة بأطراف من « علم الجمال » وأصول التفنن ، فتنتظم خلاصة القول فى الفن ، وأصوله ، ومكانه فى المعرفة الإنسانية ، وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة والعلم ، وإجمالات عن الجمال ما هو ؟ وبأى شيء يكون ؟ وفى أى شيء ؟ وهل يستطاع قياسه ؟ وبم ؟ وكيف ؟ مع التعرض الخاص للجمال اللسانى فى هذا كله ، واعتبار ما عداه من فنون الجمال الأخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت إليه لفتا يقوم على أساس ، ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة الأدبية بما يقدرهم على القول الناقد ، والحكم الصادق ، فى تناول

دقيق ، و إدراك عميق ، وحكم سليم ، وشعور قوى ، حين يقدرون المعانى والصور الأدبية ، والأساليب والإخراج الكلامى ؛ ويأنسون فى ذلك وما إليه ، بما يأنس به أهل الفنون الأخرى ؛ و يفيدون فى ذلك مما وصل إليه الدرس الراقى ، والتقدم المحدث ، و يحسنون تطبيقه على الأدب ودرسه ، وتقوية هذا الدرس بعناصر القوة المستحدثة ، ومذاهب النظر الفنى ، المستفيد بطبيعته من الرقى الإنسانى علما وعملا .

و بمثل هذه المقدمة لا يكون النقد الأدبى ، والتذوق الفنى ، محاولات مبهمة ، ولا أحكاما مطلقة ، بعبارات غامضة ، كالتى ألفناها فى قول الأقدمين والمحدثين ، وصفا لرجال الفن القولى وآثارهم فيه ، مثل قولهم عن الرجال: إنهم سَحَرَة مُفْلِقون ، أومهرة بارعون. وقولهم عن الذوق: إنه سر روحانى ، وسحر وفتنة و..و.. وقولهم فى وصف الآثار : إنها رائعة ومعجزة ، وبارعة وباهرة ، أو متينة ورصينة ، دون أن يستطيعوا لذلك بيانا ، أو يجدوا شيئا من الإيضاح ، يلفت إلى وجه ذلك ، وأصله ومنشئه ومداه . أما حين يلم الدارسون بمثل أبحاث تلك المقدمة الفنية ، فإنهم يُوفون من ذلك على ما يوجهون به وجدان المتذوق ، ويقولون فى ذلك ما يكشف السِّتر عن هذا الحسن؛ ويذيع السر عن هذا الإعجاز ؛ وما نطمع أن يكون لشىء من ذلك ما للعلوم من الضبط فى القياس والوزن ، فتلك حتى اليوم محاولة بعيدة عن جو الفن وحياة الوجدان ؛ لكنا نأمل من ذلك ، ما يشعر الإنسان بنفسه ، و يلفته إلى ملاحظ فى حسه ، و يهديه إلى الطريق الأمثل فى تكشفها ورصدها ، ومراقبتها وتسجيلها ، فلا يحال منه على غموضه ، ولا يغرى بخفى مبهم ، ولا يكتفى بالبادرة ، و يقنع بالخاطرة ، بل يستطيع فى ذلك تأملا نافذا ، وتتبعا متعمقا ، و يجد له من الأمثال والأشباه فى شئون النفس والحس ، ما يكشف له فى ضوء التمعن الروحى ، حتى ليبدو بدو الحقيقة المجرّبة ، والواقعة المشهودة ؛ وكلما أوفت الخبرة بالنفس على حقائق من ذلك ودقائق ، أو فى الدارسُ الأدبى على مقررات وأصول ، أبهى إشراقا ، وأنصع ضوءا ، وأنضر ملامح .

ووضع المقدمات بين يدى العلوم من سنن الأقدمين أنفسهم ، ألا ترى البيانيين قد

استعاروا من المناطقة تلك الأبحاث فى الدلالات، فوضعوها مقدمة للبيان، حين ورد ذكر الدلالة فى تعريفهم له ؛ وغيرهم من أصحاب العلوم الأخرى قد استعاروا لها المقدمات ، كما فعل الأصوليون مثلا ؛ لكنا فى هذه المقدمة لا نستعير لأدنى مناسبة ، كما فعل البيانيون ؛ ولن نبذل جهدا فى درس تلك المقدمة أكثر مما تمنحه الموضوع نفسه ، كما فعل الأصوليون مثلا فى درس المقدمة اللغوية ، بل إن مقدمتنا من صميم العمل الفنى ، الذى نريد لنجعل البلاغة منه ، فقد اختيرت على أساس أقوى من أساس اختيار البيانيين لمقدمتهم ، ولن تُمنح من العناية إلا ما يناسبها فى غير سرف ، فيتم التناسق فى درس أساسه الذوق ودرك الحسن .

* * *

تلك هى الطرق التى سنلجأ إليها فى تحقيق نتائج المقارنة فى صورة البلاغة ، لتكسب بلاغتنا الصورة الجميلة ؛ وإنا لمقدرون وراء ذلك كله ، أن حسن الصورة يتم حين يتحقق الإصلاح المنشود فى سائر النواحى البلاغية ، من دائرة بحث ومنهج ، ورعاية غاية ، فكلما تقدم الدارس إلى تفصيلات المادة ، أطاف بمعالم من المحاسن، تزيد رونق الصورة العامة فى تقديره ؛ ونظرنا فى بقية مناحى المقارنة يعتبر عملا فى تحسين الصورة العامة .

فلنمض إلى تحقيق نتائج المقارنة فى :

دائرة البحث وسعتها

انتهت المقارنة بين دائرة البحث البلاغى عند القدماء ، ودائرته عند المحدثين ، إلى ما يأتى :

فى القديم

جعلوا من البحث مقدمة « ليست من المقاصد فى هذا الفن » ، ثم من المقاصد مايعرف به وجه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وهو علم المعانى .

وما يحترز به عن التعقيد المعنوى ، وهو البيان ، ومنها تابع تعرف به وجوه التحسين الثانوية ، وهو البديع ، وحصروا أبحاث علم المعانى ، فى أحوال طرفى الجملة ، والجملة (ص ٤٨—٤٩) ، وحصروا أبحاث البيان فى المجاز والكناية ، والتشبيه مقدمة لفهم الاستعارة ، لكن كثرة مباحثه وفوائده جعلته كالمقصد ، وإن كان مقدمة فى المعنى (ص ٤٩ — ٥٠) .

والبديع تابع يعنى بوجوه حسن إما لفظى وإما معنوى ، فكانت محسناته قسمين ص ٥٠ — ٥١

فى الحديث

تتسع دائرة البحث لكل ما تشمله طبيعة الفن القولى وعمل الأديب فيه (ص ٥٣) .

وتقسم خطوات عمل الأديب إلى : **ايجاد وترتيب وتعبير** . وتبحث كل خطوة من هذه الخطوات ، كما يجب أن يكون البحث الذى تتطلبه المعرفة الفنية ؛ فيشمل هذا البحث الإلمام بمعارف إنسانية تتصل بالحياة الوجدانية ، ويشمل الفن القولى فى بسائطه وفى مركباته ، فتبحث المعانى ، وتبحث الألفاظ : مفردات ، وجملا ، وأساليب ، وتبحث صور التعبير التى يصورها أصحاب الفن القولى ، وتبحث فنون الأدب نظما ونثرا ، فنا فنا . وهكذا لا يحد هذه الدائرة إلا طبيعة العمل الأدبى . وتدخل فيها دراسات مظاهر النشاط الفنى ، وأسباب وضوح القول وتأثيره . (ص ٥٣ — ٦٣) .

تقدم الشرح المفصل لجوانب هذه المقارنة ، فى الصفحات المبينة ، وتلكم هى نتائجها المجملة ، مقابَل بعضها ببعض ، مقابلة تبين أن بلاغتنا الكلامية قد ضاقت دائرة بحثها عن أشياء كثيرة هامة ، اتسعت لها دائرة البحث المحدَث ، فقد وقفت بلاغتنا عند بحث الجملة ، وأهملت بحث المعانى الأدبية ، ولم تنظر إلى العمل الأدبى بجملته ، ولم تُعْن بالنظر فى الفنون القولية ... الخ . فهى فى حاجة إلى سعة شاملة ، وبسطة وافرة ، لتستطيع الوفاء بمثل تلك الأبحاث ، وما يتصل بها ، مما هو ضرورى لدقة الدرس ، ومسايرته درجة التقدم الإنسانى .

ونريد لنوسع هذه الدائرة توسيعا متأنيا متثبتا حذرا ، يحقق حرصنا على النافع من القديم ، وجدنا فى كسب القيم من الجديد ، فسبيلنا إلى هذا المطلب أن نقوم أولا بالتخلية ، وترك ما يجب إهماله ، تخففا مما لاجدوى فيه ، وفَسْحًا للجديد المرجو ؛ ثم نقوم بعد ذلك بالتحلية ، وزيادة ما تجب زيادته .

فأما التخلية فمنها : إبعاد المَلاحظ والاعتبارات التى حددوا على أساسها بحثهم ، وإبطال غير الصحيح منها .

ففى المقدمة مثلا ، نرى أنهم وضعوها خارجا ، وبحثوا فيها فى فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم ، و بلاغة الكلام والمتكلم ، ودرجات البلاغة الخ ؛ لأن مثل هذه الأبحاث ، فى قولهم ، ليست من المقاصد فى هذا الفن ؛ وهو قول نخالفهم فيه مخالفة تامة ، إذ أن الكلمة المفردة ، هى العنصر الأساسى فى عمل فنِّى أداته الكلمة ، كما سبق ، فالبحث فيها وفيما يتألف منها، من صميم المقاصد فى هذا الفن . وسننظر إليها بهذا التقدير حينما نرسم بعد دائرة البحث العامة ، وخِطة الدرس .

ثم مَلْحظهم فى حصر أبحاث علم المعانى ، فى الخبرية والإنشائية ، ليس بملحظ ذى قيمة ولا جدوى ؛ فهم أنفسهم قد شعروا بَوْهيه ، حين خصوا به الشطر الكبير من مباحث علم المعانى، ثم عادوا يقولون : « ولا وجه لتخصيص هذا الكلام بالخبر . . لأن الإنشاء لابد له أيضا مما ذُكر[1] . . . على أن هذا التقسيم الثنائى للكلام : إلى خبر و إنشاء ، مما لا يتفقون عليه ، ومنهم من يجعل القسمة غير هذه ، على ما يُبيّن فى موضعه[2] . ثم هم

(١) شرح السعد وحاشية الدسوقى من شروح التلخيص ١ : ١٧٠ (٢) السبكى فى شرحه التلخيص من الشروح ١ : ١٧٢

كذلك يُوَهِّنون إدارة البحث على هذه الخبرية والإنشائية فى غير هذا الموضع ، على ما قد نعرض له فيما نتناوله من باب الفصل والوصل ؛ ومن كل أولئك يبدو أنه لا محل للاستمساك بهذا الاعتبار ، فى ضبط ما يمكن من أبحاث مطابقة اللفظ لمقتضى الحال ، وبإهمال هذا الاعتبار سننظر فى أحوال جزء الجملة ، والجملة ، والفقرة أيضا ، ونقدر عمل هذه الألفاظ فى أداء المعانى الفنية ، التى يريدها القائلون ، وننظر فيما لا بد منه من المعارف الإنشائية المعينة على حسن تقدير هذه الأحوال والآثار ، وبذلك نُخْرِج من علم المعانى أشياء ، على ما سيبدو فى بقية القول عن التخلية ؛ كما نزيد عليه أشياء ، تبيَّن بعد عند القول فى التحلية .

ثم ملحظهم فى ضبط أبحاث البيان : فى الحقيقة والمجاز ــ على ما سمعنا ــ ملحظ لاقيمة ولا أصل له ؛ وإنما الاعتبار القيم فى مثل هذا الأثر ، لتلك الصور البيانية فى المعانى ، هو إدراك ما لها من قوة الإيضاح والتأثير ، وهو ما لا يتم إلا بمعرفة المنطق اللغوى والأدبى ، والبصر بالمؤثرات فى النفس الإنسانية . وبإلغاء هذا الاعتبار سنزيد فى البيان أبحاثا أخرى ، ونضم إلى المجاز والكناية صورا أخرى للتعبير . قدعرض لها البلاغيون فى غير « البيان » ، على ما سنشير إليه قريبا ، عند النظر فى تقديرهم للبديع وأثره ومنزلته . وتقديرهم للبديع فيما نرى ــ تقدير جائر ، فقد سمعنا فيما سلف من قول الأقدمين أنفسهم : « إن الحق الذى لا ينازع فيه منصف ، أن البديع لايشترط فيه التطبيق ، ولاوضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ، قد يوجد دون الآخَرَين » (١) فنستطيع أن نقول والحال على ما وصفنا : إن المحسنات البديعية ليست أمورا تابعة للمعانى والبيان ، ولا ثانوية يسيرة الأهمية ، بل هى وجوه توجد وحدها ؛ وإنا برفض هذا الاعتبار فى التقدير ، نستطيع النظر فى هذه المحسنات نظرا متفننا منعما ، لندرك أثرها فى العبارة ، وننزلها فى درسنا المنزلة المناسبة لهذا الأثر ؛ فما كان منها قويا عددناه من صور التعبير ، وضممناه إلى أشباهه مما عُد فى البيان ، وما كان دون ذلك أهمية جعلناه فى المكان الممثل لهذه الأهمية ؛ كما أن ما يكون من تلك المحسنات تكلفا وتصنعا سيئ الأثر ، أهملناه وأبعدناه ، على ما سترى فى تنسيق الأبحاث بعد .

---

(١) عروس الأفراح بشروح التلخيص ج ٤ : ٢٨٤

ذلكم ضرب من التخلية استبعدنا به اعتبارات ومَلاحظ ، جعلوها ضوابط وحدودا لبحثهم ، وليس لها فى ذلك غَناء على ما رأينا .

ومن التخلية أيضا إلغاء تقسيمهم الثلاثى لفروع البلاغة بحثه : المعانى، والبيان، والبديع؛

وهذا التقسيم فى الحقيقة ثنائى ، فالبديع ليس إلا تابعا، كما يتضح ذلك من الصورة التركيبية لعلوم العربية عندهم (انظر ص ٣٩) وإنما نلغى هـذا التقسيم الثنائى لأسباب فى تقدمهم لهذا القديم ، ثم لأسباب فى النظرة الجديدة . فأما ما فى القديم من ذلك ، فهى أنهم يديرون هذا التقسيم على اعتبارات ضعيفة ، قد وَهَّنوا من أمرها فى قديمهم ؛ فملحظهم فى هذا التقسيم أن علم المعانى يبحث فى المركبات الموزونة وغيرها عن إفادتها لمعان فوق المعنى الأصلى ، وعلم البيان يبحث فى مراتب هذه الإفادة الثانية فى الوضوح ، فثانى البحثين يترتب على الأول ، وهم يقدمون المعانى على البيان ، لأنه بمنزلة المفرد من المركب ، إذ أن رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، وهى مرجع علم المعانى ، معتبرة فى علم البيان مع زيادة شئ آخر ، وهو إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة[1] ، وهذا هو الاعتبار الذى سمعت نقضه آنفا فيما أوردنا من عبارة السبكى ، مصدّرا بقوله : « إن من الحق الذى لا ينازع فيه منصف ، أن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ، قد يوجد دون الآخَرَين » . وما دام الأمر كذلك ، فالدائرة المرسومة للبحث على غير هذا الأساس ، لا قوة لها ولا أصل ، فلا وجه اليوم لالتزام حـدودها ، والتقيد بها .

هذا إلى أننا نلحظ اليوم من الاعتبارات ما يحوجنا إلى رفع قيود هـذا التحديد ، وذلك أنك قد سمعت قريبا (ص١٨٣) أن أبحاث المقدمة ، فيما نقدر ، إنما هى من المقاصد ، والعناصر الجوهرية ، فى فنٍّ أداته الكلمة ، فنحن نريد إدخالها فى الأبحاث الأصلية ، وذلك تغيير للتحديد .

ثم ما أسلفناه من إبطال مَلحظهم فى ضبط مباحث كل فرع من هذه الفروع ، إبطالا نعيد بعده تنسيق تلك المباحث ، مضموما إليها ما سنزيده قريبا فى التحلية ، فلابد مع هذا

(١) السعد التفتازانى : الشرح المختصر للتلخيص ص ١٥ ج ١ الآستانة .

وذلك من أن ننظر فى تنظيم تلك المباحث كلها ، على أساس وملحظ آخر ، خليق بالصورة الجميلة ، والمنهج المصحح ، كما سيأتى ؛ وكل أولئك لا يكون إلا بإلغاء هذا التقسيم الشائع قديما ، وإخلاء المجال منه ، فنتمكن بعده من الزيادة اللازمة ، والتنظيم المطلوب . وذلك أهم ما نحتاج إليه من التخلية ، تحقيقا لنتائج المقارنة بين دائرتى البحث القديمة والمحدثة .

وإذا ما ألغينا هذا التقسيم الثلاثى ، وذكرت أننا منذ قريب (ص ١٧٥) فى تحلية صورة البلاغة ، قد حرصنا على الدقة فى التفريق بين استعمال كلمتى « الفن » و « العلم » ؛ وحرصنا على استعمال كلمة « الفن » فى هذه الدراسة وفروعها ، واستبعاد كلمة « العلم » فى تسميتها وتسمية فروعها ، فقد بطل أن لدرس البلاغة أقساما ، وأن تلك الأقسام تسمى علوما ، وأن من يقول الآن « علوم البلاغة » أو « العلوم البلاغية » أو نحو ذلك ، يخطىء فى تصور طبيعة هذا الدرس ، وفى تحديده ، خطأ يشوه صورة الفن ، ويضيق دائرة بحثه ؛ وهو ما لا يرضاه صاحب ذوق أدبى ، يجد وقع ما يقول ، ويشعر بروعة الفن الأدبى الجميل ... تلك هى التخلية فى جملتها .

وأما التحلية فبأشياء ؛ منها **توسعة دائرة البحث وبسط أفقه** ، فلا يقتصر على الجملة كما كان فى القديم من عمل المدرسة الكلامية ، الذى لم تأت المدرسة الأدبية بعده بشىء ذى غناء ؛ فإننا اليوم نمد البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبية ، ثم إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر . ننظر إليها نظرتنا إلى كل متماسك ، وهيكل متواصل الأجزاء ، تقدر تناسقه وجمال أجزائه ، وحسن ائتلافه ، ونتحدث فيما لابد منه فى هذه النظرات من شئون فنية .

وإذا ما مددنا البحث فى أوله ، فدخل بحث اللفظة المفردة فى المقاصد ، كما قدمنا ؛ وبسطناه فى نهايته ، فشمل مابعد الجملة من العمل الأدبى كله ، فقد بدا لك أننا مضطرون إلى إلغاء التقسيم الثلاثى أو الثنائى ، والنظر فى نظام آخر لهذه الأبحاث ، نعرضه فيما يلى ، عند تنسيق مباحث فن القول .

ومن التحلية أيضا : إفراد مكان من هذه الدائرة الفسيحة لبحث المعانى الأدبية : فى حقيقتها ، وميزتها ، وفى إيجادها وترتيبها ، على نحو ما وصفنا بعضه فى صنيع المحدثين . (ص ٥٣ وما بعدها) وهو مالم تعن المدرسة الكلامية بشىء منه على ماأسلفنا ، إذ علم المعانى

فى قولهم : إنما هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى الخ . وعلم البيان : إنما هو علم يعرف به إيراد المعنى بطرق مختلفة — أى صور من التعبير . . . — الخ ، والبديع على تبعيته : إنما يتحدث عن محسنات معنوية ، ليست فى شىء من البحث العميق للمعانى فى الأدب .

والمدرسة الأدبية فى البلاغة لم تصب من ذلك الكافى المرضى ، فهذا ابن الأثير فى مَثله السائر يقسم الصناعة قسمين : الصناعة اللفظية، والصناعة المعنوية ، ولكنه يَعْنى بالصناعة اللفظية : السجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم مالا يلزم ، وما إلى ذلك من أمور لفظية صوتية ، ويعنىَ بالصناعة المعنوية : التشبيه والاستعارة ، والتجريد والالتفات . وما يتصل بذلك من صور فى التعبير تؤدى بها المعانى .

أما البحث فى المعانى بما هى روح العمل الأدبى ولُبابه ، بخاخا بها ، من حيث هى مدلولات ومفاهيم وأغراض ، فلا نجد فيه إلا شَذَرات متفرقة عند الأولين من أهل الدراسة الأدبية فى البلاغة ، كبشر بن المعتمر والجاحظ وأضرابهم ، من الذين نظروا فى هذا البحث قبل أن يستكمل ويتسع السعة التامة ، التى وصل إليها فى ظل المدرسة الكلامية العلمية . وفى كل حال سنحيي فى بحثنا للمعانى وغيرها مما نزيده ، رسوم المدرسة الأدبية ، وننتفع بكل ما يستطاع الانتفاع به فى ذلك التغيير ، من تراثنا القديم .

ومن التحلية أيضا : تخصيص مطلب من هذه الدائرة الواسعة ؛ لبحث الفنون الأدبية : مادمنا نريد من هذه الدراسة أن نكوّن المجال الطبيعى لدرس الأدب درسا موضوعيا ، يمد صاحب هذه الصناعة بما لابد منه من لَفْت وإبانة ، تعين على صقل الموهبة الأدبية ، وتهيئ للفطرى منها ما يلزمها من كسب ومدارسة ، لتمنح الفن القولى جماله وقوته ، وأثره فى حياة الأفراد والأمم ، على ما سنزيده بيانا، فى وصف غاية البلاغة .

فندرس فى فن القول ، تقسيم الناس قديما وحديثا لهذه الفنون نثرا ونظما ، والفكرة فى هذا التقسيم ، ونتبين خصائص هذه الفنون واحدا واحدا ، ومقوماتها التى يكمل بها جمالها الفنى فى ألفاظها وصياغتها ، ومعانيها وأغراضها ، مستعينين فى ذلك بيسير ما خلفت المدرسة الأدبية العربية فى هذا الميدان ، من نظرات وإشارات ، كالذى يهتدى له قدامة

فى كتابه نقد الشعر ، ثم نضم إلى ذلك كل ما دلت الثقافة العلمية والفنية الحديثة ، على صلته بهذه الفنون وميزاتها . ونفى بحق الأدب فى فنون لم تزدهر فى البيئة العربية ، ولم تعرف معرفتها اليوم ، كفن القصة والمقالة ، وما إلى ذلك من فنون مستحدثة .

ثم منه التحلية كذلك : تمييز مكان فى هذه الدائرة الموسعة لدرس الأساليب :

لا نقف فى ذلك عند قليل ما ألمّ به القدماء فى هذا ، ولا نكتفى بتكماته المحدثة ، بل نجعل هذا الدرس وسيلة للإشراف على آفاق أدبية ونقدية ، ومذاهب فى ذلك ، ومدارس فى الفن القولى نعرّف بها ، ونبين أهدافها وخصائصها ؛ ففى الأساليب نتحدث ، بعد المعروف الشائع عن الفكاهة ، والتهكم ، وما إليهما ، من حيث هى عوالم فنية ، ونزعات أدبية ؛ كما ندرس الرمز الفنى ، والرمزية الأدبية ، لا فى حدودها الساذجة ، التى أشير إلى أثارة منها فى الكناية ، بل من حيث هى ضروب من الفن ، تتصل بموجهات نفسية ونحوها ؛ وترمى إلى أهداف أدبية واجتماعية وما إليها من كبريات الغايات ، التى تضطلع الفنون اليوم بالوفاء بها ، فى حياة الناس أفرادا وأمما .

تلك هى أمهات التحلية التى تعمل لتدعيم الدرس البلاغى بها ، تحقيقا لنتائج المقارنة ، التى ظهرت فى مقابلة دائرتى البحث قديما وحديثا .

والآن نتحدث عن هذه النتائج وكيف نحققها .

فى المنهج وتصحيحه

وقد عرضنا للمقارنة فى صنفين من المنهج هما : منهج التفكير والتناول لمسائلها ، وبحث حقائقها ؛ ومنهج تعليمها وتلقينها ، واللفت إلى تلك المسائل والمباحث ؛ وكانت عنايتنا بالنوع الأول من المنهج أكثر ، لأنا بمعرفة أسلوب التفكير الصحيح فى حقائقها ، نعرف كيف نهتدى إلى التعبير النافع ، والتصرف الحكيم فى تلك المسائل ؛ ويكون حديثنا بعد ذلك عن منهج التعليم والتلقين قريب الفهم ، واضح الأصل ، قوى الأساس ، يسير المئونة . وكذلك ستكون عنايتنا بتحقيق نتائج المقارنة فى منهج التفكير فى أبحاث البلاغة أولى ؛ فنرى المقارنة بين المنهجين القديم والحديث قد انتهت إلى النتائج التالية :

فى القديم	فى الحديث
مستوى الحياة العقلية لم يحسن التفريق التام ، بين الحكم الفنى الوجدانى ، بالحسن أو القبح ، والحكم العقلى ، بالصواب والخطأ (ص ٦٦ ، ٨٠) .	المستوى العقلى الحديث تنبه إلى الفرق الواضح بين صنوف الحكم ، من عقلى ، وفنى ، وخلقى ، لدقة بحثه فى مسألة المعرفة ، وعنايته بمنطق المادة (ص ٨٠) .
الوضع الاجتماعى للغة يغير منهج التفكير فى أبحاثها ، وأسلوب دراستها ، فإذا ما اتصلت بالحياة اتصالا تاما ، كان التفكير فى أبحاثها عمليا وجدانيا ، وعلّمت بطريق الممارسة ، وإذا ما انفصلت عن الحياة كان التفكير فيها نظريا عقليا ، وعلّمت بطريق المدارسة (ص ٧١ وما بعدها) .	الوضع الاجتماعى للغات الحية ، واتصالها بحياة أهلها اتصالا قويا ، جعلها تعلم بطريق الممارسة قبل كل شىء ، وجعل التفكير فيها عمليا اجتماعيا صحيح المنهج ، وجعل الدرس الأدبى فيها فنيا وجدانيا حقا (ص ١٠٥ وما بعدها).
مرت بلاغتنا بهذه الأدوار المختلفة ، فعلمت حينا عن طريق الممارسة والتلقى ومخالطة أهل اللغة ، واحتكم فيها إلى الذوق والوجدان ، ثم علمت بطريق المدارسة ، واستحال الاحتكام فيها إلى غير النظر العقلى والضبط المنطقى (ص ٧٩ وما بعدها) .	ثم إلى جانب هذا نهضة إنسانية عامة يتأثر بعض جوانبها ببعض ، فيكون للرقى العقلى أثره فى الحياة الفنية ، وللرقى العملى أثره فى الحياتين العقلية والفنية ، كما يكون لهما أثرهما فى الحياة العملية .
المدرسة الكلامية هى التى سيطرت أخيرا فى حياة البلاغة، وهى المدرسة التى تتبع الطريقة الثانية — طريقة المدارسة العقلية — تخلف ذلك فى مباحث بلاغتنا آثارا ، لا تزال هى الواضحة ، كاقتباس الظواهر	منهج درس فن القول عندهم فنى محض، تبدو فيه ظواهر واضحة من : الوصل الوثيق بين الأدب وسائر الفنون ؛ وتنسيق الدراسات اللغوية والأدبية تنسيقا سليم الأساس ، يكون لفن القول فيه مكانه المتميز ؛ وربط هذا

في القديم	في الحديث
الفلسفية المنطقية فى تعاريفها ، وتقاسيمها وضوابط بحثها ، والتزام الوفاء بذلك ، التزاما أخل حتما بالظواهر الفنية الأدبية ، التى هى اللُّباب والجوهر ، فلا تذوّق ، ولا اتصال بالثروة الأدبية ، ولا تحكيم للذوق ... الخ . (ص٨٠ وما بعدها) .	الدرس بالتراث الأدبى للغة المدروسة قديما وحديثا . و إقامة الدرس كله على أسس فنية صحيحة مستفيدة من التقدم العقلى والاجتماعى العام فى ألوان الحياة كلها (ص١٠٦ومابعدها).

وقد مضى الشرح المسهَب لنواحى هذه المقارنة ، وفى أثنائه وقفنا تلك الوقفة الطويلة عند «اللغة والحياة» ، وعرضنا لمشكلتنا الحيوية اللسانية ، بشرح وإيضاح و بيان ، ورجونا من كل أولئك أن نقر الفكرة الصحيحة فى منشأ أزَمات الفصحى ، ومابينها و بين العامية ، وما فى تعليمها من صعاب وعقبات ، والرأى الرشيد فى إحيائها ؛ مقدرين دائما صلة هذا كله بمنهج التفكير فى الشئون البلاغية الفنية ، وفى أسلوب تلقين تلك البلاغة . وهاتيكم النتائج المجملة آنفا هى خلاصة هذا جميعه . و بالنظر إليها فى تقابلها وتركيزها ، تتضح لنا حاجة البحث البلاغى عندنا إلى عمل غير يسير ، لاضطراب أساسه باضطراب أساليب البحث القديمة ، وعدم التفريق بين صنوف الأحكام التى تختلف بها صنوف المعارف والحقائق . ولهذا اتخذ البحث البلاغى خِطة غير سديدة ، ولا سليمة فى التناول والحكم ، والبحث والتصنيف ؛ فبعد ماتبين لنا ذلك كله ، نستطيع فى اطمئنان أن نتقدم إلى تخليصه من تلك الآثار ، ثم إمداده بعد تخليصه ، بما يحمى حيويته ، ويؤهله لمسايرة الحياة اليوم ، والاستجابة لحاجة الشعوب الناهضة المتجددة فى الشرق ، وذلك يُحوجنا — كما سبق — إلى تخلية ، ثم تحلية ، كما ارتضينا من قول القدماء ، والبدء إنما يكون بالتخلية ، نبين فيها ما نبعده ونستغنى عنه .

فمن التخلية : ازالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد ثقافتنا على اختلافها ،

لنزيل مثل ذلك التداخل بين دراسة مواد العربية : فلا نخلط البلاغة بغيرها من تلك المواد . وهذان أمران متصلان : أحدهما عام ، والثانى خاص ؛ فآثرنا الإشارة إلى الأول إيضاحا للثانى . ونحن نشعر بهـــذا التداخل فى الثقافة الإسلامية تفكيرا وتأليفا ، فنجد التعرض المستفيض المسرف لمسائل علم فى دراسة غيره ، فالمسائل النحوية والحكمية مثلا يتعرض لها فى الفقه ، مع اختلاف المناهج فى النحو عنها فى الحكمة ، وفيهما عما فى الفقه ، لكن توسعهم فى الشروح والحواشى والتقارير ، بعد تركيزهم المتون وإجمالها ، فسح المجال لهذا التداخل ، فلم يكن توسعهم إلا بمثل هذا التعرض ــ وعند أدنى مناسبة ــ لمسائل العلوم المختلفة فى علم يخالفها فى المنهج مخالفة تامة . ولا نتوسع فى شرح هذه الظاهرة وتعليلها ، فإنما مهدنا بها للقول فيما يعنينا ، من هذا التداخل فى درس البلاغة ، إذ اختلطت فيها الدراسات المختلفة ، فمن مقدمات حكمية ، وأبحاث منطقية ، إلى دراسات خلقية ، وأخرى طبيعية أو إلهية ، على ما أشرنا إليه فى المنهج الكلامى لدراستها (انظر ص ٨٥ ومابعدها) ؛ ولهذا التداخل أثره فى اضطراب منهج المادة المقصودة بالدرس أولا ، وعدم التزام الطرائق الملائمة لطبيعتها ، إذ ينتقل الدارس بين حقائق مختلفة ، لكل واحدة أسلوب بحثها الخاص ، فيتناولها جميعا بأسلوب واحد ، ولا يميز بين طبائعها ، تختلط عنده مميزاتها ، و يعدى بعض مناهجها بعضا ، إن صح أن هناك انتباها ما إلى تخالف هذه المناهج ، فيتناول الدينى النبيى منها بأسلوب عادى عقلى ، والنظرى منها بأسلوب العملى ، والعقلى منها بأسلوب الوجدانى ، والعكس ، وتلك حاطمة المناهج ، وناشرة الاضطراب ، الذى شكونا طرفا منه فى الحديث عن مدارس البلاغة سابقا .

ونلفت هنا إلى تخلية التفكير البلاغى ، والتأليف البلاغى من هذا التداخل ، إزالة للاضطراب الناجم عنه ... كما نشير إلى ما فى البلاغة من تداخل آخر ، بينها و بين مواد العربية الأخرى ، كالنحو مثلا ، فإن هـــذا التداخل أيضا قد ترك أثره فيها ، واختلط

البحثان فى غير موضع ، برغم ماقدمناه من الالتفات إلى الفرق بينهما (انظر ص٣٩ و١٧٣). وكان من ذلك أن ضَمَرَ البحث البلاغى وعُجِفَ أحيانا ، فقصر عن المعنى الأدبى الخاص به ، وأن تضخم وتزيد أحيانا ، فجار على المعنى الأدبى كذلك ؛ وأنت واجد المثل للضمور فى مثل قول البلاغيين فى أحوال المسند إليه : إن تعريفه بالإضمار ، لأن المقام للتكلم أو الخطاب والغيبة ؛ وبالعَلَمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ؛ وباللام لكذا ؛ وبالإضافة لكذا ، مما لا تجد فيه شيئا جديدا إلا شرح المعنى النحوى الأول ، دون عناية بما وراء ذلك من معنى بلاغى خاص ، كبيان مقام التكلم ، ومقام الخطاب ، ومقام الغيبة ، الذى يحسن إيراد كل واحد منها فيه ؛ والمعنى الخاص فى التعريف بالإضمار دون غيره ، أو بالعلمية دون غيرها ؛ أو باللام دون سواها ، حتى يفقه الأديب خصائص هذه التعابير ، فيؤثر منها مايناسب عمله الأدبى ويجدى عليه ؛ فهذا مثل الاختلاط الذى نقص به بحث البلاغة .

ثم أنت واجد المثل للتضخم والتزيد ، فى صنيعهم بباب الفصل والوصل مثلا ، إذ أوردوا فيه أحوالا وتقسيمات ، كان المرجو أن تكون أدبية الملحظ ، لكنها ليست بذاك ، كعدهم من أحوال الفصل « شبه كمال الانقطاع » ، الذى يمثلون له بقول الشاعر :

وَتَظُنّ سَلْمَى أننى أَبغِى بها بدلًا ، أراها فى الضلال تَهِيمُ

فإن العطف فى «أراها» كما يبدو جليا ، يؤدى إلى فساد المعنى الأول ، ونقض ماأراده القائل ، فليس المانع منه بلاغيا ، بل هو نحوى صرف ، يدور فيه الأمر على الصحة واستقامة المعنى ، لا على اعتبار تال لما به أداء المعنى الأول ، كما هو الشأن فى بحث البلاغة ؛ فليس يجوز هنا أن يعطف القائل أو لا يعطف ، فيظل الكلام مؤديا لغرضه ، فى حالين من قوة وضعف ، فيؤثر العطف أو تركه ، لأن به القوة والوضوح . ولعلنا نعود إلى هذا قريبا حين نتخذ باب الفصل والوصل مثلا لتطور درسنا من البلاغة إلى فن القول ؛ فنورد ما فيه من مثل هذا التداخل .

وإلى هنا بدا لكم أن التداخل المضطرب بين الدراسات المختلفة فى البلاغة قد أفسد

منهجها ، كما أن التداخل بينها و بين مواد العربية نفسها قد أضر بها ، فحق علينا تصحيحا للمنهج ، و إصلاحا للبحث ، أن نخلى الدرس من التداخل بين المواد .

ومن التخلية أيضا : إزالة الاضطراب الناجم عن عدم تمثل الأقدمين — ولاسيما المتكلمين — للمنهج البلاغى الملائم؛ ومن قبل أشرنا إلى أصل هذا الغرض ، فيما تناولناه من حديث عن خصائص المنهج الكلامى ، وصراعه مع المنهج الأدبى ، فى الكتاب الثالث من هذا المؤلف . وقد تداخلت المناهج النقلية والعقلية ، والفلسفية والشرعية فى تناولهم للبلاغة وترك هذا الاضطراب أثره ، فى درس البلاغيين للشئون الفنية ، و بيانهم لها ، ولفتهم إلى قيمها ومزاياها ، فكان لفتا غير كاشف ، و بيانا غير مبين ، ولا جَدْوَى منه على مَوْهِبة دارس ، إن لم يكن فيه إفساد لها و إخماد . وهاكِ من ذلك مايتجلّى به اضطراب المناهج ، وتداخلها المفسد فى تناولهم :

ختم القوم علم البيان ، بفصل وازنوا فيه بين صور التعبير التى تولوها بالشرح فى هذا العلم وأداروه عليها ، فقالوا : «أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم ، فهو كدعوى الشىء ببينة » . فكان وجه فضل تعبير على تعبير ، أنه انتقال من الملزوم إلى اللازم ، و بيانهم لهذا الحسن أنه كدعوى الشىء ببينة ؛ وأنت واجد فى هاتين الخطوتين منهجين مختلفين ، لقضية لها منهج ثالث غيرهما ؛ فالمنهجان المختلفان هما : المنهج العقلى المنطقى ، فى اللزوم والملزوم واللازم ، وأن وجود أحدهما يقتضى وجود الثانى ، لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم ؛ ثم المنهج الشرعى أو النقلى ، فى البينة على الدعوى ؛ والشهادة والرواية كما تعرف ، حجج نقلية ، على حين أن المسألة المتناولة، وهى حسن التعبير وامتيازه ، مسألة أدبية ، فمنهجها وجدانى فنى ، لا يغنى فيه واحد من المنهجين السابقين ، فقضية هذا اللزوم العقلى، الذى لا انفكاك فيه بين الملزوم واللازم ، ليست هى قضية اللزوم الأدبى — إن كان هناك ما يسمى لزوما — لأن مافى المعانى الأدبية إنما هو اتصال عملى ، وارتباط واقعى ، وملحظ نفسى عام ، ليس ذهنيا ولا نظريا ، فلو كشفته بأضواء

عقلية منطقية لما تكشف بها شيء منه ، لأنه فوقها وأدق منها ، أو لأنه غيرها فى فطرته وإدراك الإنسان له ! (١)

وأما حكاية الدعوى والبينة وما إليها من رواية ونحوها ، فتلك كما تعرف إنما تحدث نوعا من المعرفة أو الظن ، ليس فى شيء من هذا الحسن فى التعبير ، أو الوضوح فى المعنى ، والتميز فى الصيغة ؛ ولا أخوض بك هنا فيما يفيده الدليل النقلى من شهادة ورواية ، ولكن حسبى وحسبك أن نقدر أن ما يجده القاضى من شهادة الشاهد ، وما يجده السامع من رواية الراوى ، وأثرهما فى نفسه ، هو فى الحق والحس شيء ليس أبدا من صنف ما يجده المتأثر بالفن القولى من أثر نفسى ، وأين هذا الحق والباطل من ذلك الحسن أو القبح ! ؟ شتان بين مشرق ومغرب .

وإن يكن فينا من لا يزال يختلط عليه مثل هذا ، ولا إخاله ، فلعله يهديه من قول القدماء أنفسهم ، ما شعر به المتكلمون فى عصور مختلفة ، وشعر به المؤمنون أنفسهم ، من أن البراهين العقلية على العقائد لا تفيد يقينا ، ولا تكسب اعتقادا ، فصرحوا بأن استدلال القرآن ، خير وأجدى من استدلال اليونان ؛ ففى هذا معقد ما نشير إليه من فرق بين أثر النظر العقلى ، ووقع اللحظ الفنى ، وهو أصل لبيان أن الحقائق المختلفة إنما تُتناول بأساليب مختلفة ، ومناهج مناسبة . ومن أجل هذا دعونا إلى تخلية الميدان البلاغى من آثار الاضطراب ، الذى بثه فيه اضطراب المناهج ، وتناول الفنيات بما لا ينالها .

ثم من التخلية أيضا : إبعاد الأبحاث التى أقحمها فى البلاغة اضطراب المنهج ، واختلاط المناهج ، ولا جدوى لها بل فيها مضرة ، فعاد الاشتغال بها محرما فنيا ، والاشتغال بغيرها واجبا أدبيا . وما نحاول هنا أن نحصى هذه الأبحاث المستقلة التى تنتظمها فصول أو فقر

(١) اختلاط المنهج العقلى النظرى والأسلوب المنطقى بغيره من المناهج فى درس البلاغة ، هو أشد أنواع هذا الاختلاط ضررا ، وأكثرها شيوعا ، لأنه قوام عمل البيئات الكلامية ، وما إليها من بيئات مماثلة لها على ما بيناه فى الكتاب الثالث من هذا المؤلف ، بيانا فيه نوع من الإسهاب ، فلا نشير إليه هنا ، وقد اخترنا هنا هذا المثل فى موازنتهم بين الصور البيانية ، لأنه جملة أمر البيان ، ومعقد القول فيه ، وإيضاح وجه الحسن والقوة ، الذى هو أخص عمل البلاغى ، فتبدو فيه بشاعة القصور ، وضرر الاختلاط .

خاصة فى كتب البلاغة ، ولا الأبحاث الجزئية التى تتخللها ، ولكننا نشير إليها على سبيل التمثيل؛ وسيبدو فى تنسيقنا المباحث فن القول فى نهاية هذا الكتاب ، اطراحنا لها و إهمالنا إياها.

فمن تلك الأبحاث المقحمة مثل البحث «فى الصدق والكذب» الذى يُنَبه إليه فى فصل خاص ، بين يدى علم المعانى ؛ وهو بحث يكشف تاريخُ البلاغة الدقيق، عن ظروف إقحامه فى البحث البلاغى ، على ما بينته فى دراسة منهج تفكير الجاحظ ؛ ولكنه فى جملة الأمر ، لم يُعد له اليوم مكان بين فصول دراسة فنية أدبية .

ومنها بحث واو الحال : والرابط فى جملة الحال ، الذى يفرد له تذنيب بعد الفصل والوصل ، فإنه نحوى فى جوهره ولبابه ، ولا مكان له فى الدرس الفنى ، ولا سيا حين ننظر فى باب الفصل والوصل نظرة جديدة ، نحاول إقامته على أساس غير أساسه الأول ؛ ولعله يأتيك بعدُ من هذا ما ترضى به نفسك .

ومن هذه الأبحاث : مقدمتهم فى الدلالات ، التى يقحمونها بين يدى علم البيان ، وهى مقدمة منطقية ، لا ينفع علمها فى إدراك صور البيان التعبيرية ، ولا يضر جهلها، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير المنهج .

ومن هذه الأبحاث : وقفتهم عند أنواع الجامع فى باب الفصل، والوصل، و بيانهم للعقلى والوهمى والخيالى ، وشرحهم القوى الإنسانية ، وتعرضهم لغير ذلك من معارف ليست فى شىء من هذه البلاغة ... تلك وما إليها من أبحاث نرجو إبعادها ، ونأمل أن يكون لذوق الدارس وروحه الفنية ، ثم لخبرته الثقافية، حكمها الدقيق، وحقها فى الاستغناء والاستبعاد ، على ما سنشير إلى أصله ، فيما يلى من تنسيق المباحث .

تلكم هى كبريات خطوات التخلية فى تحرير المنهج ، تفسح المجال لما يتلوها من :

التحليـــة

وأجل هذه التحلية وأحسنها أثرا : **تمثل المنهج الفنى تمثلا واضحا ، والتزام فى هذا الدرس التزاما صادقا** ، يعتمد على الذوق المسعف ، والروح الحرة ، والرغبة الصادقة

فى تجديد هذه الدراسة ، فبهذا يمكن التصرف فى أرسخ ماقرر القدماء ، ممـا لا يؤيده ملحظ فنىّ ، ويهدى الذوق الواجد إلى غيره ، وتقدم عليه روح التحرر المتسامية ، وتحققه إرادة لذلك جادة. وأسوق إليك مُثُلا ممايوجه إليه المنهج الفنى ، ويرتاح مطمئنا إلى مافات الأولين تنوره، وشغلهم عنه غيره ، ولم تعن عليه حال الحياة إذ ذاك ، ومستواها فى التقدم ؛ وعلى سياق هذه المثل تُقْدم على النظر فيا تناولوه ، فتتصرف فيما لا يواتِى ، وتتوسع فيما يستجيب ؛ كما تزيد ما نقص ، وهاك هذه المسائل ، التى يبدو بها فرق ما بين النظرتين ، وأثر المنهجين .

١ — تعريف البلاغة : والتعريف عندهم تصوير ، يحيط بجملة الحقيقة ، فى ذاتياتها إن استطاع ، أو فى أعراضها حين تعز الذاتيات . وهذه البلاغة التى عرفوها ، قبل استقرار الدرس المنظم وبعده ، لها فى أنفسنا تصور عام ، نحب أن نلفت إليه ، ثم نتحدث عن تعاريفهم ، لنرى ماذا تبلغ من التصوير الكاشف لما نجد من فكرة مجملة ، ثم نعرض الإبانة الفنية لهذه الصورة ، فنرى مبلغ كشفها عنها ، ويتضح بذلك فرق مابين تناول المنهجين لتلك المسألة ، التى هى صدر ما يقدم فى الدرس .

أما هذه الصورة التى يجدها الناس ويشيرون إليها ، ويتحدثون عنها ، حين يذكرون ذلك الكلام البليغ فى مواطن مختلفة ، وبعبارات متفاوتة بتفاوت شخصياتهم ، فهى : معنى يفضل به الكلام ، ويبتغيه الناس أفرادا وجماعات ، فلايكون فى كلام كل أحد ، ولايكون لأحد فى كل حين ، ولايكون فى كل موضوع يتناوله الإنسان ، بل هو معنى يتهيأ لبعض الناس فى أحيان من أوقاتهم ، ويتناولون به موضوعات مما يقولون أو يكتبون ، لا كل مايقولون ، ولا كل مايكتبون . هذه هى الخطوط الكبرى لتلك الصورة ، التى تحاول التعريفات جِلاءها ، فتسقط دون ذلك ، أو تقع على شىء منه ، وقلما تصيبه . فلننظر فى تعريفاتهم قبل استقرار الدرس المنظم للبلاغة ، فسنرى أنهم حينا يذكرون عمل المتكلم فى هذه السبيل ؛ وآنا يذكرون الكلام الذى فيه هذه الصفة الخاصة ، وله تلك الصورة ؛ وتارة يذكرون المعنى الذى به فضل الكلام ؛ وهاك تعريفاتهم على هذا التنسيق :

فمن تعريفهم بعمل المتكلم فى هذا الشأن قولهم، البلاغة : إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام

السامع ؛ أوقولهم : أن يَبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده ، مع إيجاز بلا إخلال ، أو إطالة فى غير إملال .

وهذه كما ترى مما يكون فى الحديث اليومى ، والكلام المعتاد ، فإنه ليُبلغ الحاجة بحسن إفهام السامع ، ويبلغ كنه المراد ؛ فإن يكن ما زاد هو الإيجاز أو الإطالة ، فليس ذلك كل عمل الإنسان فى الكلام المبتغَى . ثم إنك تجد هذا البلوغ والإبلاغ فى حاجات كثيرة ، متنوعة : من عقلية إلى عملية أو علمية ، وليس من الحق أن الكلام البليغ الذى يعرفه الناس بصورته المجملة ، يكون فى كل موضوع ، وكل غرض ، بل إنهم يحسون أن له موضوعات خاصة ، فليس فى مثل هذا التعريف غناء .

ومن هذا النوع أيضا قولهم : البلاغة إهداء المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ . وهو قول تجد منه ريح الفن ، وتلمح فيه شعاع الحسن ، لكنه لا يوفى على شىء من الإبانة يوضح الصورة ، إذ يذكر صورة اللفظ وأحسنها ، ولا يرشد إلى شىء به يكون الحسن ، أو فيه يكون الحسن . فلا ترى فى هذا التعريف شيئا من الإبانة قد لاح أو تراءى ، وإن دل على موضوع هذا الكلام ، وما يجرى فيه بذكر القلب والإهداء إليه .

ومن تعريفهم بذكر الكلام نفسه والمعنى الذى فيه ، قولهم : البلاغة كلمة تكشف عن البغية . وكثر ما نجد فى حديث اليوم ، وكلام كل حين ، كَلِماً تكشف عن البُغَى . ثم أى البغيات يكشف عنها هذا الكلام ، وقد عرفنا أنه لا يتناول كل بغية ، بل شيئا من ذلك دون شىء ؛ والتعريف كما رأيت لا تلوح منه إبانة كاشفة ، بل لعل ما يجد الناس بأنفسهم من هذه الصورة فى خطوطها الكبرى أوضح !

ومن تعريفهم بصفة فى الكلام قولهم، البلاغة : حسن العبارة مع صحة الدّلالة[1] .وفى هذا ما قد يبعد عن الحديث المعتاد ، لكنه لا يوفى على شىء به الحسن ، ولو مجملا ، ولا يختص بصنف من القول ، وموضوع للكلام ، وقد أنسنا أن لهذا الكلام البليغ مجالا خاصا . ثم هذا القول بالصحة فى الدلالة كالقول بحسن العبارة مصمت، لا يكشف شيئا ، ولا يشير إلى شىء .

فإذا تركنا تعريفاتها قبل استقرار الدرس ، وأخذنا بالتعريف الذى استقر عليه الدرس

(١) هذه التعريفات مما ورد فى شرح السبكى للتلخيص ضمن شروح التلخيص .

المنظَّم أخيرا ، فهى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . وهو مايعوزه البيان للحال والمقتضَى والمطابقة ، فإذا هم يكدون فى بيان هذا كله ، وشرح أن هناك دواعى تدعو المتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما ، وهذه الخصوصيات هى الاعتبارات المناسبة ، التى يرتفع شأن الكلام فى الحسن الذاتى والقبول بمطابقتها ، وينحط بعدم مطابقتها؛ ثم هذه الاعتبارات المناسبة إنما هى أمور اعتبرها المتكلم مناسبة بحسب السليقة ، أو بحسب تتبع تراكيب البلغاء . وكذلك لم يعط التعريف شيئا إلا بشرح كادٍّ مكدود ؛ ثم إذا خصوصية مّا ، واعتبار بحسب السليقة ، أو بحسب تتبع التراكيب ؛ أما ما ترشد إليه السليقة فى جنسه وجملته ، وأما مايتتبع فى التراكيب ، وأما نوع الكلام المطابق: أهو فى كل شىء أم هو فى موضوعات دون أخرى ، فلم يظفر الشرح بشىء من ذلك ؛ والصورة العامة التى يتصورها الناس لهذا الكلام وموضوعه ، والمعنى الذى به فضل ، قد بدت أبين إشارة من هذا التعريف ، الذى لانظفر منه ولو بأصل عام للمعنى الذى به الحسن ، وإنما هى مطابقة ومقايسة على أصل أبهمَ فى جملته وتفصيله ، مما يشير إليه الناس فيفهمون شيئا .

وإذا كانت تلك التعريفات الأولى التى لم يلفها ظلام الاصطلاحات ، قد قصرت عن زيادة البيان أو ضبطه ، وكان التعريف الذى نتأ فيه شوك الصعوبات النظرية قد عقّد الأمر ، بما أضفاه عليه من أسداف نظرية ، فهل يستطيع المنهج الفنى أن ينتهى إلى شىء أبين من ذلك ؟ إنه يعرف البلاغة أو الصفة التى فى الكلام بأنها « فنية القول » كما أسلفنا ، والقول الفنى: هو الكلام المعبر عن إحساس الإنسان بالحسن؛ فكأنه بتلك القولة القصيرة، يذكر جنس الحسن فى الكلام ، وهو كمال تعبيره ، ثم يبين مجال هذا التعبير ، فيخصه بأنه التعبير عن الإحساس بالحسن، فيعين موضوعات هذا القول ، ويشير بذلك إلى ما به كمال التعبير ، فإنما التعبير الكامل ، أو الفنى عن الحسن ، هو الذى ينقل إليك الإحساس بهذا الحسن ، فتشعر مع قائله بما وجد من حسن موفور أو منقوص ، ولاينقل التعبير هذا الإحساس إلا إذا كان فى أصله عند القائل إحساساً ، وكان فى وقعه عند السامع مشاركة واضحة فى هذا الإحساس ، وتلك معان جهدوا فى النص عليها ، ولكن لم تحملها تعريفاتهم . وكذلك بدا أن هذا التعريف أوالتبيين ، قد أشار إلى جنس المعنى الذى يمتاز به الكلام ، وأشار إلى مايجرى فيه

هذا الكلام الممتاز ، ورده إلى أصله الذى يزيد الالتفات إليه تمثل الصفة التى بها الحسن ، ويشرك المتكلم والقائل معا فى الإحساس ، ويرجع الأمر فى جملته إلى اللون الفنى ، الذى يحيلك من نفسك على نفسك ، لكن فى غير إبهام ولا جهالة ، بل يردك إلى ما تجد وقد لفتك إليه لفتا يكشف لك الخفى ، ويبين لك المستور ، فإذا سرك بين يديك وفى نفسك ، وإذا أنت مطمئن لما تجد ، فاهم عن روحك فى غير عناء ولا مئونة ، وتلك واحدة من محاسن المنهج الفنى ، لقينا بها فى مطلع القول وأول الدرس ، وكم له بعد ذلك من أمثالها مانشير إلى بعضه .

٢ — المتكلم والمتفنن : — علم المعانى عندهم هو علم الخصوصيات المناسبة ، المعتبرة فوق مابه أداء المعنى المراد ؛ وقد حصروا أبحاثه على أساس من الخبرية والإنشائية ، كما سمعت وناقشناهم فيه (ص ١٨٣) وقدموا بحث الخبر لعظم شأنه ، فيما يقولون ، وكثرة مباحثه ؛ وقال قائلهم : إن حقيقة الإسناد فى الإنشاء كالفرع للإسناد فى الخبر ، بل الإسناد فى الإنشاء لا يتحقق إلا بتوسع[1] ، وعلى هذه الأهمية للخبر مضوا يدرسون ، فإذاهم يقررون : أن لا شك أن قصد المخبر بخبره هو إفادة المخاطب الحكم ، أو إفادته كون المخبر عالما بالحكم ، ويسمى الأول فائدة الخبر ، والثانى لازمها ... الخ

وتسمع هذا وقد سمعت قبله قولهم : إن البلاغة وارتفاع شأن الكلام فى الحسن ، إنما هى فى الاعتبارات التى تعتبر مع الكلام ، الذى يؤدى به أصل المعنى المراد ؛ فتسألهم : إذا كان هناك معنى مراد ، ثم اعتبارات زائدة عليه ، فأين هذا كله فيما ذكرتم أنه كل قصد المتكلم من خبره ؟ ! وهل الكلام غير البليغ ولا الحسن لا يحقق هذا القصد ، وهو إفادة الحكم ... الخ ؟ ! وإذا كانت إفادة الحكم أو إفادة العلم ، هى كل قصد المخبر بخبره ولا شك ، فأين عمل البليغ وأثره ؟ وكيف مضيتم تقيسون كلام البليغ بتحقيق هذا المقصد ، وتبينون له ما ينبغى الاقتصار عليه والاكتفاء به ، مما تقرره هذه الحاجة ؟ !

تلك وما إليها وقفات يقتضيها منهج القوم فى تناول الموضوع ، وردهم الأمر كله إلى اعتبارات عقلية ، وضوابط ذهنية ، لا تقدر شيئا من عمل المتفنن ، ولا ترنو إلى غاية له ، حتى العمل والغاية اللذين ورد ذكرهما فى حديثهم هم عن البلاغة !!

(١) السبكى : شروح التلخيص ١ : ١٩١

ولو قد جنبت المسألة كل بحث ودرس ، ورددتها إلى قريب الملاحظة لما يشعر به الناس و يجدونه فى يسر ووضوح ، من التفريق بين كلامهم اليومى العادى ، حين يتقلبون فى شئون معايشهم ، و يستعملون نشاطهم اللسانى فى حاجاتهم ، وكلامهم المتأنق ، حين يجد بهم الجِدّ فى بعض تلك الشئون ، ويستعينون فيه بالقول الفنى — لو رددت المسألة إلى تقدير مثل هذا الفرق بين حالتى القول ، لأدركت مع كل ذى يقظة ، أن الناس فى الحالين لا يقصدون مقصدا واحدا ، بل إنهم حين يتحدثون كل يوم ، وفى كل شأن ، يخبرون ليفيدوا ؛ وأما حين يتحدثون فى أحيان خاصة حديثا مروّيا ، فإنما يتحدثون ليؤثروا فى النفوس ويحركوها ، وذلك القصد الأخير من خبر المخبر ، هو ولا شك ما ينبغى أن يتحدث عنه أصحاب البلاغة ، وأن يدبروا له ، وأن يقيسوا به مقادير الكلام وأقدارها ؛ ولكن كتب البلاغة الكلامية لا تعنى به فيا سمعت من قول أصحابها . أما فى المنهج الأدبى فالأمر منتهٍ إلى مثل هذا الذى يجد الناس ، عن طريق الوجدان الدقيق ، والنظر الفنى ؛ إذ أن هذا الفن ليس إلا تعبيرا عن الإحساس بالحسن ... الخ ، والمقصد فيه شيء غير إفادة الحكم ، أو إفادة معرفته ، وهو مامضى قولنا فيه من عمل ومُتعة (انظر ص ٩٩) . وبهذا وحده يحدد قول المتفنن ، وصوغ المتأدب ، وتعرف الاعتبارات المناسبة ، والخصوصيات الزائدة على أصل المعنى المراد .

ومن هنا ترى عدوان المنهج غير المصحح ، على أصول قوية ، وأسس أصلية ، للعمل الأدبى ، حين يسوى بين المتكلم والمتفنن ، ولا يدرك ما فى عمل الثانى من معنى خاص ، هو الذى نصب له الدارسون ، ودبر القائلون منذ أعصر وأعصر . .

وفى هذا رأيت كيف يوقيك المنهج الأدبى العدوان على الأصول ، والإضاعة للأسس ، و يرجعك ، حين تدع وجدانك طليقا ، إلى وجه الأمر ، وصواب القول ، عن حقيقة الفن وخصائصه ، و يحسبك فى كل هذا أن تواتيك فطرتك ، وتسعفك قوة حسك الجمال فى مختلف ألوانه ، دون تزيد بشيء من غامض البحث ، وعويص الدرس .

٣ — **المتكلم والمخاطب** : فى الموضوع السابق من حديث القوم ، عن الإسناد الخبرى ، جعلوا قصد المخبر هو إفادة المخاطب ... الخ . ثم رأوا أنه ما دام القصد هو إفادة المخاطب ، فينبغى أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة ، وقد أوردنا عبارتهم فى هذا آنفا ، ثم يلى ذلك بيانهم لحال المخاطب ، فراحوا يقولون : إن كان المخاطب خالى الذهن من الحكم فكذا ، وإن كان مترددا فيه طالبا له فكذا . . . الخ

وتنظر فى جملة ذلك ، فترى من قولهم فى بيانه : أن خطيب اليمن قد اعترض على الخطيب القزوينى ، حين قال فى التلخيص : لاشك أن قصد المخبر بخبره إفادة الحكم ... الخ فأورد على قوله هذا قول أم مريم : « رب إنى وضعتها أنثى » ، وهى لن تقصد به إعلام الله بالفائدة ، ولا بلازمها ، لأنه تعالى عالم بهما[1] . . . وقد دفعوا هذا الإيراد ، بأن المراد بالمخبر من يكون بصدد الإخبار والإعلام ، لا من يلقى الجملة الخبرية ، ويتلفظ بها فى الجملة ؛ إذ لا يتعين أن يكون قصده ماذكر من الإفادة ، لأن الجملة الخبرية قد تلقى لمجرد التحسر والتحزن ، كما فى قول أم مريم السابق ، وفى مثل قول الشاعر :

قومى هُمُ قتلوا أُمَيم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى

وقول الآخر :

هواى مع الركب اليمانين مُصْعِدٌ ... جَنيبٌ وجُثمانى بمكةَ مُوثَقُ

وكثير ما ذكروه من أمثلة التحسر والتحزن ؛ بل صرحوا بأكثر من ذلك فيما يقصد من الجملة الخبرية ، إذ قال السعد : « . . . فالجملة الخبرية كثيرا ما تُورَد لأغراض أخرى ، غير إفادة الحكم » .

وما نناقش هــذا الرد ، بل يكفينا منه ما قرأت ، من أن الجملة الخبرية تكون مقصودة لغرض خاص بالمتكلم نفسه ، لا بالمخاطب ، كالتحسر والتحزن الذى أطالوا فيه ، أو كالأغراض الأخرى التى أشاروا إليها فى إجمال ؛ يكفينا هذا ، لنقرر أنه يهز قولهم فى اعتبار

---

(١) حاشية الدسوقى : شروح التلخيص ١ : ١٩٣

حال المخاطب ، وقياس الكلام بها ، وتقديره بقدرها ؛ ولو قد ضممت إليه ما لهم من ومضات لامحة لحال المتكلم ، لشعرت بما فى هذا الاقتصار على أحوال المخاطب من قصور ؛ ذلك أنك مثلا تراهم يقولون فى تعريف المسند إليه بالعلمية : إنه يكون للاستلذاذ ، والتبرك ، والتفاؤل ، والتطيُّر ، وهى وما إليها — كما تقدر — أحوال للمتكلم لا للمخاطب ، ولها أثرها فى صوغ التعبير وصنعه ، لكنهم حين تحدثوا عن الأحوال وتقديرها ، لم يشيروا إلا إلى حال المخاطب . وهذا أثر من آثار المنهج غير المستقيم ، حين يأخذ بظواهر النظر ، ولا يتتبع الاعتبارات الأدبية .

ولو قد رجعت إلى أصحاب النقد من الأدباء الأقدمين أنفسهم ، لرأيتهم يقدرون كل التقدير حال المتكلم نفسه ، وأثرها فى أدبه ، حين يقولون فى تقويم الشعراء : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كَلِب ، وجرير إذا غضب[1] ، وليست هذه وما ماثلها إلا أحوال المتكلمين أنفسهم، تكوّن شعرهم وتجوده ، وعليها يجرى قولهم ، وبها يتأثر حقا ؛ وما هذا الذى أشار إليه البلاغيون الكلاميون من أحوال المتكلم ، الا جرى فى هذا المضمار ، وشعور بهذا الأصل ، لكنه شعور خافت ، وتنبه ناقص ، لم يوف على الأصل الأصيل ، فى جعل الفن صورة لصاحبه ، لا صياغة على أحوال مخاطبه ، كما اتجه إليه ذلك المنهج غير السديد .

أما حين تصطنع المنهج الأدبى ، فإنك لن تنسى أن هذا الفن القولى ليس إلا استجابة لحاج نفسية ، يريد المتفنن أن يحققها ، وأحوال عاطفية ، يجاوبها ويغنيها ، ويشرك من حوله فيها ، ويحفظ للخالفين بعده وسيلة المتعة بها ، على ماسلف من بيان فى غاية البلاغة ، أو فن القول عند المحدثين (انظر ص ١٥٢) .

ونعرض بعدُ لمسألة هى من حديث المتكلم والمخاطب بسبب قوى ، تزيد الأمر وضوحا وجلاء ، تلك هى مسألة :

---

(١) ابن رشيق ، العمدة ١ : ٦٠ ط هندية .

الأحوال والأضرب : فقد تابعنا صنيع القوم فى بداءة درسهم ، فرأينا فى موضع واحد ، هذا المجال الواسع للقول عن المناهج ، وفرق ما بينها فى التناول ، وما ينتهى إليه اختلافها من نتائج ، تمس الأدب مساً قوياً ، عنيفاً .. رأينا من أثر التواء منهجهم، أنهم قد أنسوا قصد المتفنن ، وعُنُوا بقصد المتكلم ، وفرق ما بين المتفنن والمتحدث ، هو فرق مابين حديث كل يوم ، والحديث الأدبى الأنيق .. ثم رأينا من آثار هذا الالتواء ضَبْطَهم القول ، وقياس مقاديره بأحوال المخاطب وحده ، مع إشارتهم فى غير موضع لأحوال للمتكلم ، كانت خليقة بأن تدخل عندهم فى التقدير ، وهى عندنا الخليقة بأن تنفرد وحدها بالتقدير .. ثم نريد لنرى أثراً آخر من آثار هذا الالتواء فى المنهج ، هو : ما ضبطوا به أحوال المخاطب ، بعد اقتصارهم عليها ، لنرى هل فى هذا الأصل الذى ناطوا به التقدير ، شىء من فنية وصلاحية أدبية ؛ وندرك ما فى إهمال أحوال المتكلم ، من مجانبة للصواب ، و إخلال بجوهر العمل الفنى ، وأساسه الأول .

وفى ضبط هذه الأحوال نقرأ قولهم : إن كان المخاطب خالى الذهن من الحكم والتردد فيه ، استغنى المتكلم عن مؤكِّدات الحكم ؛ و إن كان مترددا فيه طالبا له ، حسن تقويته بمؤكِّد ؛ و إن كان مُنكِرا وجب توكيده بحسب الإنكار . . . وهذه هى الأضرب الثلاثة، التى سموها أضرب الخبر، ووصفوها بالابتدائية ،والطلبية ،والإنكارية... تراهم يضبطونها ضبطا عقليا حكميا ، إثباتيا إنكاريا ؛ وذلك إذا نظروا إلى ظواهر الحال ؛ أما حين ينظرون إلى خوافيه ، أو خلاف مقتضى ظاهر الحال ، كما يقولون ، فإنهم يظلون أيضا يحكمون فى هذه البواطن بتلك الضوابط العقلية المنطقية : من إنكار ، وتسليم ، وتردد ذهنى ، وقبول عقلى ؛ فيجعلون غير السائل الطالب للحكم ، كالسائل المستشرف له ؛ و يجعلون غير المنكر كالمنكر ؛ ويجعلون المنكر كغير المنكر ، و يُجْرون النفى على مثل ما أجْروا عليه الإثبات ، من أحوال ذهنية عقلية ، واعتبارات ومعان منطقية ، لحال المخاطب وحده ، وكل هذه ليست إلا آثار المنهج الفلسفى الكلامى ، فى تناول الأمور البلاغية .

فلنقل معهم مؤقتا : إن المسألة ذهنية وعقلية ، فهل انتهت الاعتبارات العقلية عند

الإنكار ، والتردد ، وخلو الذهن ؟! ألم يذكروا هم أنفسهم قبل ذلك الموضع بقليل ، اعتبارات عقلية أخرى ، حين يقولون مثلا : ومقام خطاب الذكىّ ، يباين مقام خطاب الغبىّ ، فإن الذكى يناسبه من الاعتبارات اللطيفة ، والمعانى الدقيقة ، مالايناسب الغبىّ ؛ فما لهم لم يستوفوا الاعتبارات العقلية ، ويبينوا ما يناسبها ؟!

ولكن هل الفن القولى فى حياة الناس هو خطاب عقولهم ، ورياضة أذهانهم ، وآفاقه هى هذه الآفاق العقلية ، التى وقف الأقدمون عندها ؟! لعلك توقن أنه لغير هذا كله يلتمس القول الفنى ، فهو استهواء واسترضاء ، وتأثير واجتذاب ، واستنفار وإهاجة ، و و . . مما هو من الحالات النفسية غير العقلية ، بل من الحالات التى ينوّم فيها العقل ليوقظ غيره ؛ ولا يعنى فيه بتحويل الناس من الإنكار إلى التسليم ، ومن الجهل إلى اكتساب المعارف ، واستفادة الأحكام ! فما وقف القوم عنده من العقليات — ولم يستوفوه — ليس من صميم العمل الأدبى فى شىء ، ولا هو الذى تضبط به أحوال المخاطب ، ويقاس الكلام على قدرها ، ويحدّد بحاجتها ! .

والمنهج الأدبى فى الدرس ، يقوم على تقدير هذا والعناية به ، ويقيم الوزن كل الوزن لماتيك الأحوال الوجدانية غير الإثباتية ، ولا البرهانية ، ولا الإنكارية ، ولا الترددية ؛ بل الشأن عنده : للطمع ، والخوف ، والأمل ، والألم ، والرجاء ، والرغبة ، والرهبة ، والحب ، والكره ، والتلذذ والاستمتاع ، والتفاؤل والتشاؤم ... وما إلى ذلك مما لانفى به هنا سَرْدا ؛ بل نصفُه فى جملته بأنه كل مايتصل بهذا الإحساس بالحسن ، الذى يَنْهض الفن للتعبير عنه ؛ فيُعْنَى من شئون الحياة الإنسانية بما لا يحتكم فيه إلى العقل ، ولا يُعتمد فيه على الاستنباط والاستقراء ، ولا يُنْتهى فيه إلى الإنكار والإثبات ! ! وتلك حركات لم يهملها البلاغيون الأقدمون أنفسهم ، فيما ألموا به أحيانا من اعتبارات مناسبة ، تتطلب خصوصيات زائدة فى التعبير ؛ وأما النقاد الأدباء القدامى ، فقد سمعتَهم يتحدثون عن أثر مثل هذه الأحوال فى الفن ، وجدوها على الشعر ، مما أسلفنا بعض قولهم فيه ، ورأيْت كيف يُعبِّرُون فى جلاء عما أحسوه منه ، وإن لم يوفوا من ذلك على الرأى الكامل ، والمنهج الصالح ؛ وهو ما يريد

اليوم ذلك المنهج الأدبيّ البلاغي أن يلتزمه ، بعد استيفائه واستكماله ، وترقيته بما عرفت الإنسانية من جديد متصل به .

وإذا ما كانت حال المخاطب التي تقدر ، إنما هي تلك الحال الوجدانية ، فلننظر بعد ذلك فيما أسلفنا من اعتبار حال المتكلم في العمل الأدبي قبل اعتبار حال المخاطب ، فأنت عليم أننا من قبلُ قد اطمأننا إلى أن حال المتكلم المعبِّر هي الحال التي يتأثر بها العمل الأدبي، وعنها يَصْدر ، وبِقَدْرها يصنع ، فإن كان هناك اعتبار لحال المخاطب ، فإنما يكون بقدر مالهذه الحال من وقع على المتكلم ، وتجاوب مع نفسه ، وتأثره بها ، فكأن اعتبار حال المخاطب ليس في حقيقة الأمر إلا اعتبارا لحال المتكلم ؛ وإن كنت ممن يؤثرون أن يجدوا أصل هذا القول فيما ذكره الأقدمون ، فإنك واجده في كلام لهم عن هذا الإسناد الخبريّ ، الذي أوردوا فيه ماجرت مناقشتنا معهم حوله .. ألست تقرأ لهم في صدر الباب ، عند حديثهم عن الفائدة ولازمها : أنه « قد يُنزَّل العالم بهما منزلة الجاهل » ، فإذا شرحوا هذا من لفظ المتن قالوا « وقد ينزِّل المتكلم المخاطبَ العالم بهما منزلة الجاهل[1] » فيجهرون بأن المتكلم هو المتحكِّم في حال المخاطب ، وأنت كذلك قارئ من قولهم بعد ذلك في أضرب الخبر عن جعل المخاطب غير السائل كالسائل ، وجعل المخاطب غير المنكر كالمنكر ، وجعل المخاطب المنكر كغير المنكر الخ « . . أن الخبر إذا أورد في مقام لايناسب بحسب الظاهر ، دل على أن المتكلم نزّل هذا المقام الغير المناسب ، منزلة المقام المناسب ، الذي يطابقه ظاهر الكلام ، واعتبر فيه الاعتبارات المناسبة لذلك المقام[2] » وكذلك كان المتكلم بقولهم هو المتحكم في تقدير حال المخاطب ، المقدر لها المرتب على وقعها عليه هو ، الأثر في صوغ الكلام ونسجه ، وإن ظلوا هم يقولون إن القصد بالخبر إفادة المخبر ، وإن أضرب الخبر تكون على قدر حال المخبر ، فإنا بالنظر في حقيقة الأمر نطمئن خير الاطمئنان إلى أن حال المتكلم هي المؤثرة في صنع كلامه وأن تجاوبه مع المخاطب وانفعاله به ، وتأثره بحاله ، هو الذي يجعله يصوغ كلامه بوضع دون

---

(١) المغربي والدسوقي : شروح التلخيص ١ : ١٩٩ .

(٢) الدسوقي : شروح التلخيص ١ : ٢٠٩ مقتصرا فيه على موضع الفائدة .

وضع ، واعتبار دون اعتبار . و إن يكن هذا ما يطمئن إليه المنهج الفنى فى الدرس ، فقد سمعت من قول النقَّاد قريبا ما يدل على اطمئنانهم إليه ، ولم يَخْل قول البلاغيين المتفلسفين مما يؤيده ، وكان ينتهى إليه من قرب لو سلم المنهج ، وردت الأشياء إلى أصولها ، ولُوحظت على فطرتها وفى وضعها النفسى العملىّ ، لا النظرى التكلفى .. ولا إخال بك حاجة إلى الإفاضة فى شرح هذا المعنى ، و بيان أن حال المتكلم هى التى تؤثر فى كلامه ، وأن الفن لن يخرج عن أنه ترجمة وتعبير عن إحساس صاحبه ، ووقع الأشياء على وجدانه ، فالأمر فى هذا أجلى وأوضح من أن يحتاج بَعْدُ إلى فضل من القول ، ومزيد من الشرح .

لكن ما لهؤلاء القوم والأمر على بينة ، وقد جرت بجملته وأصله أقلامهم ، وقرره أدباؤهم ، لا يجعلونه الأصل الأصيل ، بل يجعلون غيره أصلا !! سؤال قد يكون جوابه أن البلاغيين ــ ولا سيما المتكلمين منهم ــ قد التمسوا هذا الدرس لغرض دينى ، ومارسوه فى ميدان دينى ، إذ قصدوا به خدمة القرآن الكريم ، فلعلهم والحال هكذا ، قد نفَرُوا ــ فى تنبه أو غير تنبه ــ من أن يتحدثوا فى كلام الله وأوجه نظمه ، فيذكروا المتكلم وحاله ، و يقولوا كان من حاله كذا ، فجاء قوله هكذا ... ظن عندى قريب لتفسير ما كان من صنيعهم ؛ إذ نَسُوا غير هذا الكتاب من الآثار الأدبية ، ومَضَوْا يَشْعرون بأن هذا الدرس فى مَبْعثه وغايته ليس إلاَّ خدمة للقرآن ، وفهما لإعجازه ، وتصحيحا لاعتقاد أهله ... وما كانت تلك بحائلة دون النظر فى حال المتكلمين من أصحاب الأدب ، وفهم ما يجرى عليه تصرفهم ، ثم القول فى الكتاب بمثل ما يقال فى سِواه ، ما دام مُنْزِلُه قد أجراه على سَنَن العرب فى كلامها ، فاتخذ له لغتها ، وأجراه على متناوَل عقلها ، و بأسلوب أدبها ، وعاجَزَ به أهلها ، وهو طِراز من كلامهم ، قد تألف من حروف هجائهم ، وصيغ على غرار جُمَلهم ، وأساليب فنِّهم ، ولم يجئ فى ذلك بشىء من غير ما يعرفون و يألفون ، فدار فيه الحديث ، على ما يمكن أن يدور عليه بين متحدثين منهم ، دون أن يُخل ذلك بألوهية قائله ، و بَشرية سامعيه المتحدَّثِ به ؟ . . فإن يكن ذلك ما صرفهم عن رعاية حال المتكلم ، وتقدير الكلام بها ، فما هو بصارف ولا عائق ؛ و إن يكن غير ذاك ، فقد حَق القول بأن المتكلم هو مصدر القول ، وصانع الكلام ، ونفسه هى المحتكمة فى هذا ، والموجهة له .

و بدا لك من كل ما سلف أن اتخاذ المنهج الأدبىّ فى ذوق و بصيرة ، يَنْتهى بك إلى غير ما يقرره أصحاب المنهج العملى الفلسفى ، حين تنقد مقرراتهم فى تذوق ، وخبرة ، وأناة ؛ وذلك أبهى التحلية فى منهج البحث .

ومن التحلية أيضاً : أن يقدم بين يدى هذا الدرس مقدمة نفسية ، فقد بان لك فى قريب ما قلنا و بعيده ، أن الأمر فى هذا القول الفنى الذى يدْعونه الأدب ، وفى هذا الفن القولى الذى يبين ما به صار الأدب أدبا ، ليس أمر المنطق العقلى الاستنباطى الفلسفى ، بل هو ألوان أخرى من المنطق العاطفى النفسى ، المتصل بحياة الإنسان الوجدانية ونشاطه الذوق ، و إدراكه للحسن ، وانفعاله به ، وترجمته عن هذا كله ، وتعبيره عنه ؛ فحق على من يعيش فى هذه العوالم ، ويستشرف لتلك الآفاق قائلا متفننا ، أو يلاقى الذين عاشوا فيها ، وأنِسوا بها ، ناقدا متذوقا ، حق على الأديب والناقد أن يعرف من أمر النفس الإنسانية ، فى هذه الناحية وذياك الجانب ، ما يبصّره بأسرارها ، و يكشف له عن خفاياها ، ما دام الفن ليس إلا تعبيرا عن خلجاتها ، والعقل المنطقى ليس إلا أقرب جوانبها ؛ أو أبعدها إن شئت عن إدراك هذا الجمال الكونى المنعم به ، والإخلاد لمشاهد متعته ، ومجالى فتنته .

ولقد طال حديث المتأدبين من أصحاب البلاغة عن هـذه النفس ، وحظها من القول الفنى ، ووقعه عليها ، ودركها له ، ولم يخل كلام الفلاسفة منهم من إشارة لذلك ، وذكر لحركات نفسية فى غير موطن ، دون أن يسعفهم المستوى العلمى والوجدانى لعهدهم ، على أن يجعلوا معرفة هذه النفس وسيلة قوية لإدراك المعانى الفنية ، وعمق الأحكام الأدبية ، وهو ما حق لنا اليوم أن نحلى به الدرس البلاغىّ ، انتفاعا بما بلغته الثقافة الإنسانية من بصر بحركات النفس ونزعاتها ، حين ترك أبناء هذه النهضة العلمية خِطة الأقدمين ، فى البحث عن حقيقة النفس وجوهرها ، وعنوا بمعرفة الظواهر الحيوية ، والآثار الواقعية ، وتقدموا فى ذلك بتقدم العلوم ، وصحة المناهج ، وعُمْق الدراسة ، ووصلوا من المعرفة إلى ما يجدى على جوانب الحياة كلها ؛ فإذا ما اعتمدت الفنون الرفيعة جميعا على الأصل النفسىّ ، فقد وجب أن نوثّق الصلة بين الفن القولى والخبرة النفسية دَعْما للأساس الفنى فى العمل الأدبى ،

وصرفا للمتأدب إلى ما يُجدى عليه من هـذه الخبرة بنفسه ونفوس الناس ، بدل ما كان يشغله به الأولون من أبحاث أصولية أو منطقية أو فلسفية مختلفة ؛ فنقتبس لدراسة فن القول مقدمة نفسية تبصّر فى جملتها بالحياة الوجدانية ، والعواطف الإنسانية التى تسيطر على الحياة البشرية وتوجهها ، وليست المعانى الأدبية ، والمحاولات الفنية فى صورها المختلفة ، إلا نفثات منها ، وومضات لها ، فبهذه المعارف النفسية تعمق معانى الأديب وتسمو ، وتدق أحكام الناقد وتصدق ؛ بل تصان الحياة الأدبية من تطاول المتطاولين ، وعبث الجاهلين ، فلا يكون فنُّنا القولى لعبا بالألفاظ ، ولا تعلقا بمشا كلات سطحية ، وتفاهات صبيانية ، ولا يكون نقدنا كلاما مُعادا ، وعبارات مردَّدة جوفاء خاوية ؛ ويكون الأدب كما ينبغى أن يكون فى حياة الفرد والجمع نشاطا وجدانيا ، مُسْعِدا على الحياة الكريمة .

* * *

بهذه التحلية يقوم المنهج الأدبى فى الدرس على خبرة و بصيرة ، يسعفها ذوق موهوب ، وفِطرة مواتية ، فيقضيان على ما خلف المنهج النظرى فى ميدان هذا الدرس ، من رُكام لا خير فيه ، ولا جدوى منه ، بل فيه مَتلفة ومضرة . ولن تعتمد الدراسة الفنية على التقرير والتلقين ووضع القواعد ، وتحديد المقاييس ، بل ستعتمد كل الاعتماد على التذوق والذوق ، فإذا ظاهرته خبرة بالنفس وفطنة لحركاتها ، كان من صاحبهما الحَكَمَ الذى لا ترد حكومته ، ولا يترك قوله ، ولو لم يُقم حكمه على قاعدة مقررة ، وأصل مدون ، ولم يؤيده بنص من كتاب مؤلف ، ولم يسنده إلى أستاذ معلم .

و إذا خلا المنهج مما أفسده ، وحُلِّىَ بما قوّمه ، ثم أسعف النشاط الأدبى على الدرس المتذوق ، رسخت أسس فن القول ، وسمقت صروحه على الدهر ، وعادت تلك المادة فى حياتنا مبعث قوة ، كما هى مصدر متعة ، ولم تعد الحياة الأدبية حياة المتبطلين ، ولا مشغلة المتعطلين ، يزجون الوقت ، و يملئون الفراغ ، كما كانت الحال عليه فى غير مكان وزمان .

و نتقدم بعد ذلك إلى تحقيق نتائج المقارنة فى :

الغاية وحيويتهـا

وقد كشفت المقارنة السابقة عن النتائج الآتية :

في القديم	في الحديث
كانت الغاية من درس البلاغة العربية حيوية لعهد النهضة الأدبية فى الجزيرة ، قبيل الإسلام ، وصدرا من حياته .	لفن القول غايتان : عملية ، وفنية ؛ فالغاية العملية هى : تحقيق مصالح حيوية للأفراد والجماعات؛ والغاية الفنية هى: الإمتاع بالتعبير عن الإحساس بالجمال ؛ أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفنى، المترجم عن الشعور بالحسن (انظر ص ١٥٤ — ١٥٦) .
ثم مازجها الغرض الدينى ؛ فكانت معرفة إعجاز القرآن من غاياتها .	
ثم خلصت الدراسة للمعنى الدينى، فصارت معرفة الإعجاز كل غايتها (ص١٤٦—١٤٩).	

ويبدو من هذه المقابلة ، أن أفق الدرس القديم فى أرحب عهوده ، كان أضيق من الأفق الحديث ، لاختلاف النظرتين إلى الحياة ، على ما أشرنا إليه ؛ ونحسب أننا اليوم فى حاجة شديدة لبسط هذا الأفق ، إلى المدى الذى بلغه أصحاب هذا العصر فى نظرهم للحياة ، وخبرتهم بها ، ومعرفتهم بشئون الكون ، واستجلائهم لأسرار هذا العالم ، ليكون الفن القولى مرضيا لأولئك الذين تنسق حياتهم هذه القوى المختلفة ، من علم طامح، وعمل جرىء. و بسط هذا الأفق وله إفساحه يحتاج إلى مثل مامضى من *تخلية* ، و*تحلية* ؛ ثم لعلنا نجد كل واحدة منهما معنوية نفسية تارة ، ومادية عملية طورا .

فأما التخلية المعنوية : فبأن نحرر أنفسنا من الرجعية الفنية ، التى تدين بأن كل خير فى الدنيا قد تقضّى ، ولم يبق فيها إلا الشر والردىء ؛ وأن العصور الذهبية قد فاتت فى كل شىء ، والوجدانيات والفنّيات كذلك ؛ فالمعانى الأدبية القيمة قد ذهب بها فحول القدماء ، والأساليب القويمة قد انفردت بها أقلامهم وألسنتهم، والصور البيانية المشرقة، قد استنفدها الذاهبون الأولون ، والحسن الفنى، قد نالوا منه الدقيق المستشف ، فما بقى لمن بعدهم شىء ، والتذوق الأدبى، قد ظفروا منه بالممتع المسعد ، وحدثوا عنه حديث الواجد المدرك ، فلم يدعوا

مجالا لقائل ولا ناقد ؛ وما ترك الأول للآخر شيئا ؛ وهى آفة نجدها فى كل شىء من ظواهر حياتنا المختلفة ، وفى الميدان الفنى أيضا ، حتى لنسمع اليوم من يحرمنا الحق فى الحكم الأدبى، والبيان لشىء من ذلك بعد عبد القاهر ، فيقول فى جمود : « وليس بعد كلام الشيخ كلام » . لكن الحياة تقول فى إصرار: إنها قد تحركت وتطورت وتغيرت قرابة ألف عام، منذ جاءها هذا الشيخ ! ! وإن هذه الإنسانية التى قد أبصرت بأشعة العلم قلب الإنسان ينبض بالدم دائرا ، خليقة بأن تبصر بوجدانية اليوم ، قلب هذا الإنسان يخفق هائما وحائرا وشاعرا ، فتعرف من ذلك وتقول فيه ما لم يعرف مَن قبل ، أو تهيأ لهم ساذجا قاصرا ...

وليس يجب حين نحطم هـذه الرجعية الفنية ، ونريد لنتخلص منها أن نقول : إن الإنسان قد ارتقى وجدانه قدر ما ارتقى عقله ، وإن تقدمه الفنى يساير خُطا تقدمه الذهنى أو العملى ؛ كلا ، لا نلتزم هذا ، إلا أنا لا ننكر أن لسعة عقله وعمق معارفه أثرا بل آثارا فى وجدانه وحسه ، وذوقه وفنه ، وأنه قد ظفر بأسباب دقة لا يمكن إنكارها ، ولا يستطاع إهمالها ، فلنحرر أنفسنا من هذه الأمْسِيَّة الأدبية ، ولنخلصها من هاتيك الرجعية الفنية ، لتتجدد وتتذوق ، وتحكم وتتبين ، غير مقلدة ولا جامدة .

وأما التخلية العملية: فبأن نحرر دراستنا من آثار الدراسة القديمة الضيقة الأفق فعلا،

فلا نلتزم المقررات الأدبية ، والأحكام النقدية ، فنستحن ما استحسنوا ، ولا نستهجن إلا ما استهجنوا ، لفضل السبق والتقدم ؛ فالقِدَم فى هذا المجال قد يعود بالنقص لا بالفضل ؛ وهكذا سنرفض أحكاما شائعة ، وأمثلة دائرة ، ونستبعد صورا رائجة ، فليس أعذب الشعر أكذبه ، وليس خير المدح ما كان بالفضائل الأربع ، وليس خير المعانى ما وصل إليه الذهن بالكد ، وليس التصنع الزخرفى عملا فنيا ؛ ولسنا نقبل تشبيه البعر بالفلفل، ولا البنفسج بالنار فى الكبريت ، ولا المرأة بالدعص والقضيب ؛ مهما يرد هذا فيما عدوه من عيون الشعر، ومعلّق القصائد . ولا سبيل هنا إلى سرد كل ما نريد رفضه ، بل نقول فى إجمال جامع : إن لحياتهم بوضعها الاجتماعى ، واضطرابها السياسى ، ومستواها العلمى ، وحالها الخلقى ، وللذوق المتنفس فى كل أولئك وما إليه ، المترجم عنه ، المحدود به ، ما تخالفه حياتنا اليوم

فى الاستقرار الاجتماعى ؛ والنظام السياسى ، والتقدم العلمى ، والوضع الخلقى ؛ ولكل أولئك فعله بالذوق ، وأثره فى الفن ؛ فله كل الحق فى توجيه درسنا ، و إلزامه بمسايرته .

ومن التخلية العملية أيضا : ألا نلتزم فى دراستنا الطابع الدينى ، الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة إعجاز القرآن ؛ فنحن كما قلنا لا نلتزم رأيا بعينه فى هذا الإعجاز ، ونرى الحياة الدينية نفسها قد اكتفت من ذلك بما قيل، فلاحاجة بها إلى جديد فيه ، و إن جدّت بها تلك الحاجة، التمستها بنفسها، على المنهج الذى تختاره ، وأعفتنا من هذا التناول ؛ و بذلك لا نقف أمام الاعتبارات الاعتقادية ، التى تحد الدرس ، وتكف من نشاطه ، فتجعله يقع فى مثل ماسبق من إهمال لحال المتكلم ، وهو منبع الفن ومصدره ، و به قبل كل شىء يتأثر ، على ما أشرنا إليه قريبا (انظر ص ٢٠١) وسندرس صنوفا من القول ، منها ماليس فى القرآن ، أو هو فيه على وجه دينى غير الوجه الذى نراه اليوم به ؛ ولا نطيل ببيان آثار عدم التزامنا الطابع الدينى ، ولالتماسنا الغاية الدينية من درس فن القول ، بل يكفى أن نقول : إننا نلتمس بالفن القولى أعمالا فى الحياة ، مع العمل الدينى أو غيره ، ومتعا من الفنون ، لانرى الدين يعلّها ، و إن كنا لا نراه يحرّمها .

ولا تحسبن عدم اتخاذ هذا الطابع الدينى فى الدرس ، وعدم الوقوف عند الغاية الدينية فيه ، يتضمن شيئا من عدم تقدير الفن القرآنى ؛ كلا ، بل نحن حين نرفض التزام الرجوع فى مثلنا وأمثلتنا إلى الأدب القديم ، نحرص حرصا عظيما على الرجوع فى مثل هذا إلى القرآن وفنه العالى ، لأننا عرفنا فى التناول الأدبى القرآنى كل جدير بالإجلال ، مستمد من فطرية صافية إنسانية ، تتيح له الخلود ، وتهيىء له الصلاحية لألوان من الأنفس البشرية المختلفة ، فى أقطار كثيرة ، وكل ما هنالك ، أننا فى سبيل تحرير النفس والذوق ، ورد الحرية إلى الوجدان، نؤثر أن نصل إلى مثل هذا التقدير للقرآن ، عن طريق درس خالص من التقليد ، متحرر من التحديد والتقييد ؛ ولعلك واجد فى ثنايا هذا الكتاب ، دفع ما يجول بخاطرك من شبهة أو وهم ، لو رجعت إلى المواضع التى عرضنا فيها للحديث عنه، مثل مافى (ص ٨٣ — ٨٤) (٩٦ — ١٠١) . تلك هى التخلية النفسية المعنوية ، والعملية المادية .

وأما التحلية المعنوية : فبأن نشعر بعظمة الغاية التي نلتمس من أجلها الدرس الأدبي وحيويتها ؛ وأنها تحقيق لضرب من نشاط الفرد والجمع ، يحقق نتائج عملية ونفسية، تسعد بها الحياة ، سعادتها بغيرها من ألوان النشاط العلمي والعملي ؛ لأن لكل جانب من جوانب حياة الواحد والأمة قوى ، تعمل لتحقيق حاجته ، وتوفير كماله الحيوي ؛ والجانب الوجداني من جوانب الحياة، التي يحقق التفنن حاجتها ، ويدنيها من كمالها ؛ والقول الفني أكثر صنوف الفنون شيوعا في الناس ولزوما لهم ، وإسعادا لجمهرتهم ، وهم أكثر حاجة إليه ، وأنسا به ؛ كما يكشف ذلك الواقع ، وتؤيده نواميس التجمع .

ومن التحلية المعنوية أيضا : أن نشعر بأن في الثقافة العلمية والفنية لهذا العصر ، ماينبغي أن يلتمس ، تسديدا للنظر الفني ، وإرهافا للذوق الأدبي؛ وأن درس هؤلاء المحدثين للحياة الإنسانية من نواحيها المختلفة ، أو درسهم لجوانب الكون ، ومحاولاتهم في تفسير ذلك ونفهمه ، قد أوفت على أشياء ، أمست من ثقافة الأديب، التي لا مفرّ له اليوم من الإلمام بها ؛ ولو لم يكن هذا مما تطوع به مراجعنا في العربية ، ولا تحتويه مكتبتنا العربية ، فإن علينا أن ندنيه من طلاب الدراسة الأدبية ، لنصلهم بالأجواء الفنية ، في صحفها ، ومتاحفها ، ومعارضها ، وما إلى ذلك مما ينبعث عن ثقة نفسية ، بأن وراء ما ألفنا من مواد ثقافة الأديب أشياء أخرى ، تعده لتحقيق الغاية الكبرى ، التي وجب أن يمتد إليها بصره ، وينفسح لها أفقه ، فإذا كانت لنا هذه الثقة كانت بعدها .

التحلية العملية : بأن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجري عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها ؛ كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها ؛ والاتصال بالمذاهب الفنية المحدثة في سائر الفنون ، ومعرفة وجهات أصحابها ، وفعل الحياة بها ؛ فهذا وما إليه ، مما يكمل الشخصية الأدبية العصرية ، ويجعلها جديرة بأن ترضى ذوق العصر في أدبها ، وتترجم عنه في نقدها ؛ ولاتبدو هزيلة تافهة، سطحية قريبة الغور ، غليظة الحس ساذجة، فيظل الناس لذلك يعدون الأدب تلهية وتسلية ، وشغل فراغ ، لا مجال حياة نفسية ، تُسْعِد على النضال ، وتحيي

الروح ، وتلون الحياة ، وتفسر مشكلاتها ، وتحقق الغاية العملية والفنية التى عرفها المحدثون لفن القول .

ولئن كنت فى هذه التحلية المعنوية والعملية، قد شارفت آفاقا ليست من مألوف الدرس الأدبى عندنا حتى اليوم ، فلا بدع فى أن يكون ذلك، استشرافا لغاية سامية ، كالغاية الجليلة التى نريد لفن القول أن يحققها ، وأصحابه هم أشد الناس شعورا بواجبهم ، فى إعداد من يفى بذلك على وجهه الأكمل .

... وشىء ليس فى الكتب

الآن فرغنا من عرض نتائج المقارنات ، وبيان كيفية تحقيقها ، فألممنا بأصول التغيير العام والخاص لبحث البلاغة ، تغييرا صير البلاغة « فن القول » . لكنا إذ نمسك القلم عند هذه المرحلة نشعر بأن فوق ذلك الذى قلناه كله شيئا ، هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، وإليه المنتهى ، وعنه المصدر ، فى ذلك التغيير كله ؛ وهو شىء لا سبيل إلى تلقينه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعه ، لأنه شىء ليس فى الكتب ، كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله ، ذلكم هو **«الذوق»** .

هو الذوق لو أجملنا كل محاولة فى تصيير البلاغة « فن القول » لاعتمدت عليه ، ولم تتم إلا به ، وكان العدة الفردة فى تحقيقها ، فما نحتاج فى شىء من ذلك كله ، إلى أكثر من **ذوق مثقف** : فطرة تمنحها السماء ، وتمدها ثقافة كاملة ؛ وذلكم هو ملاك الأمر ومساكه . فإن يهبه الله لمن أراد هذا الأمر ، فقد تهيأت الأسباب ، وإن تكن الأخرى ، فقد عز الأمل ، وبعد الرجاء .



من أجل ذلك قدرت دائما أن هذه المحاولة لن تقوم بكتاب يؤلف ، وسفر يصنف ، فى سرعة وعجلة ، ليضع فى أيدى الدارسين قواعد ، ويلقنهم ضوابط . . كلا ، إنما تقوم هذه المحاولة ، بقلوب تخفق ، وأفئدة تهفو ، وأنفس تسمو ، ووجدانات تُصنع على عين الجمال

وتؤمن بوحى الحسن ، نروضها رياضة أهل الفنون ، وندير لهما تدبيرا لطيفا خبيرا ، دقيقا بصيرا ، لتنطلق فتسوس النشء تلك السياسة المتفننة ، وتروضهم تلك الرياضة المتسامية ، وتذودهم عن مراتع القواعد ، ومسالك الضوابط ، وترد فى صدق حس ، ورقة نفس ، ولطف همس ، جفوة أولئك الذين اتخذوا البلاغة متنا يحفظ ، وشرحا يُقرر ، وحاشية تُفتِّش ، وتقريرا تفنقل ، وتصليهم حربا عدتها سطوة الحسن ، وأشعة الملاحة ، وسهام الجمال ، فتكشفهم لأصحاب الوجدان فى هذه الأمة ، أمواتاً غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . .

لقد زاولت ما أشرت إليه ، من رياضة وتدبير ، قدر ما جادت به نعمة الله ، وتلطفت لذلك بما أعانت به قدرته . ومارست ذلك فى مقدمات فن القول ، فنية وغيرها ، وفى أبحاثه عن المفردات ، والجمل والصور ، وعاودت القول فى بعض ذلك غير مرة ، فأيقنت أن المعاودة تنضج الفكرة ، وتنير القلب ، وتشرح الصدر ، وتؤتى من ذلك جديدا طيبا ، فآثرت أن أطيل هذه الممارسة الطليقة ، التماسا لمواتاة الخواطر المسعفة ، واللمحات المستشرقة واستكمالا للنظر ، وإيضاحا للرأى ، وكرهت التعجل فى ذلك ، بكتاب مستقر ، ووضع مقيد ، يغرى بالاطمئنان ، ويعين على الاستراحة ، ويصرف عن سبيل الكمال . . وتلك واحدة من أسباب تأخيرى لكتاب فن القول فى نسقه المرتجى ، مع تعدد ميادين الممارسة فى الجامعة ومعهد الدراسات ، وما إليها ؛ لأنى فى كل حال أتحدث إلى متعلمين ومعلمين ، وأولئك لو صنعت نفوسهم ، فقد صنعت أجيالا ؛ لاقراء ، وحسبك بهذا رجاء وأملا فى إصلاح وتأثير .

وأخرى هى ما صدرت به هذه الكلمة ؛ من أن الأساس ، كما أسلفت ، شىء ليس فى الكتب ؛ فلو دونته قبل أن تتمثله أرواح ، وتهواه قلوب ، وتحنو عليه نفوس لخرج قاعدة مقررة ، ومادة محددة ، ولكان فى حياة هذه البلاغة قيداً جديداً ، وتحديدا عتيدا . وغلا يعوقها عن أن تكون ذلك الفن الذى يَلْهَمُهُ المعلم ، ويوحيه لروحانية المتعلم . . والذين عانوا هذا والتفتوا إليه أعقل من أن يعدوا تأخير مثل هذا الكتاب إساءة إلى صدق الرغبة فى التجديد ، أو العزم على محاولته ، وإنهم لأقدر على أن يدركوا أن الدعوة إلى هذا ؛ والتبصير به ، واللفت إليه ، والإغراء بعالمه ، والإشارة لمجاليه ، والوصف لملامحه ، والعرض

لمحاسنه ، أجدى على هذا الدرس الفنى ، من فصل يدون ، أو قاعدة تقرر ، أو كتاب ينشر لئلا يلهى مثل هذا الناس على الزمن ، فيعكفون عليه يلقنونه ويرددونه ، ويحفظونه ويلزمونه ، فيردون البلاغة بهذا إلى ما عبناه من أمرها ، وتكون قضايا تقرر ، وحقائق تحفظ وتفسر الخ … ويوم يشاء الله أن يخرج هذا الكتاب أوشىء منه فسأرسله عصيا على الحفظ . **فارا من التركيز المقعد ؛ بارئا من التقليد الجامد . كارها من يحاوله ، راجيا المخالفة ، آملا الزيادة ، ملتمسا المرونة ، ليظل درس فن القول وجدانيا روحيا ذوقيا ؛ أساسه شيء ليس فى الكتب ، وميدانه ملكوت السموات والأرض ، وحظه من العلم ما يبصر بالنفس ، ويدرك الحس ، ويستشف الروح .**

والآن وقد بسطنا فى التخليات ما سندع ، وبينا فى التحليات ما سنأخذ ، وأدركنا ما عليه المعتمد فى ذلك كله ، نتقدم فى اطمئنان للحديث عن :

مباحث فن القول

نعرضها أقساما كبرى ، وأجزاء تكون صورة كلية ، تتمثل بها هذا الدرس فى وضعه الفنى الحيوى ، وتُقبل به على الخطة المفصلة له ، وهذه الأقسام هى :

١ — **المبادى** : وهى فى اصطلاح القدماء اسم لما يقدمونه بين يدى العلم من تعريف له ، وبيان لموضوعه ، وغايته ومكانه فى دائرة المعارف الإنسانية ، وما هو من ذلك بسبب ، ومثل هذا ما نبينه فى هذه المبادى عن فن القول ، كما سترى بعد فى التفصيل .

٢ — **المقدمات** : وهى مقتبسات من دراسات أخرى ، تؤيد هذا الدرس ، وتنير سبيله ، ومنها **المقدمة الفنية** ، **والمقدمة النفسية** على ما ستراه مفصلا .

٣ — **الأبحاث** : وهى لب الدرس وصميمه ، وسنديرها على اعتبارات فنية من طبيعة العمل الأدبى ، غير متقيدين بالتقسيم القديم المعروف ، ولا مبتدئين من بدئه ؛ ولا منتهين

عند نهايته ، على ما سترى بعد ، **فنبحث الألفاظ والمعانى** ، لأنها عنصر العمل الأدبى ، وسنبحث عن الكلمة ، فالجملة ، فالفقرة ، فالصور البيانية ، فالقطعة الأدبية ، فالأساليب ، ففنون النثر والشعر . . الخ ، و إليك تفصيل ذلك كله فى :

خطة فن القول

أولا : المبادى

التعريف بفن القول — غايته — صلته بغيره من الدراسات — صلته بالدراسة الأدبية : بالأدب — بالنقد الأدبى — بتاريخ الأدب . .

ثانيا : المقدمات

ا — **المقدمة الفنية** : — الفن — حقيقته — الفن بين المعارف الإنسانية : الفن والفلسفة ؛ الفن والعلم — الفن والجمال — قبسات من علم الجمال عن بيانه ، وفيم يكون ؛ وبم يقدر ، والآراء فى ذلك قديما وحديثا .

وفى هذه المقدمة مجال فسيح لاقتراح دراسات أخرى من مختلف الفنون تمد الثقافة الأدبية بما يجعلها ملائمة لهذا العصر ، وتلك خطوط كبرى تدع تفصيلها الدقيق للتطبيق ، ثم لتفكير من يفكر .

ب — **المقدمة النفسية** :

القوى الإنسانية المختلفة وصلة بعضها ببعض ، والآراء فيها قديما وحديثا — نواحى اتصال هذه القوى المختلفة بالعمل الفنى ، وتأثيرها فيه .

الحياة الوجدانية : مقوماتها — أغراضها — رياضتها — صلتها بجوانب الحياة الأخرى — العواطف والمشاعر الإنسانية ، وما تمد به العمل الفنى ، ولا سيما الأدبى .. الخ ما يتصل بذلك ، مما أفضل ألا أتولاه أنا بالتفصيل ، وأوثر أن أتركه لمتفرغ لدرس النفس يدرس علم النفس الأدبى لطلاب الآداب ، ويكتب هـــذه المقدمة النفسية ؛ ولى من الثقة بمعونة أصحاب الدراسة النفسية ما يطمئننى على تحقيق هذا الرجاء فى مدى غير بعيد .

ثالثا : الأبحاث

ا — **في الكلمة من حيث هي عنصر لغوي** : حسن اللفظة من حيث جَرْسها الصوتي — حسن الكلمة من حيث أداؤها لمعناها ـ أمثلة للنوعين و بيان الفرق بينهما ـ الضابط لحسن الجرس الصوتي هوحس الأذن للأصوات ـ لكل لغة ذوق صوتي خاص ؛ تنتظم أصوله قواعد «الصرف» — ائتلاف الكلمة في الجملة ، كائتلاف الحروف في الكلمة.

الصوت والمعنى : تناسبهما ـ الجزالة والرقة ، ومواضع كل ، وأنهما أثر لتناسب المعنى مع الصوت ـ ضبط ذلك بالحس الفني ـ .

ز يادة حسن أداء الكلام لمعناه ، بتأثير الرنين الصوتي : الجناس ، والسجع، الترصيع ، والتصريع ، رد العجز على الصدر، لزوم مالايلزم ... الخ ـ درجة الحسن في هذه المحسنات ومنشؤه ، واتصاله بالمعنى دائماً ، فإذا فقد ذلك الاتصال فسد .

الكلمة من حيث هي جزء الجملة :

حسن دلالة الكلمة على معناها في الجملة : تتأثر هذه الدلالة بثلاثة أشياء ـ الوضع ـ كما يسميه الأقدمون ـ . ثم الاستعمال وما يتركه من أثر في مفهومها ـ ثم نظم الجملة وأثره في هذه الدلالة .

(ا) **الوضع اللغوي** : إعطاؤه الكلمة مادتها وصيغتها ـ تعيينه معناها ، وما تصلح له من موضع في الجملة ـ ليست كل كلمة تصلح لكل موضع في الجملة ـ نظم الجملة في العربية ؛ وأمهات النظرات الأدبية فيه .

الوضع يهيئ للكلمة فوق ما سبق ، خصائص أدبية تؤثر في دلالتها : بيان ذلك في استعمال النكرة واستعمال المعرفة ـ خصائص التنكير في جزء الجملة : ركناً كان الجزء أو مكملا ـ خصائص التعريف في جزء الجملة .

تفاوت أنواع التعريف المختلفة في التعيين والدلالة ـ الاعتبارات الأدبية التي يُؤثِر بها الأديب معرفا على معرف : الضمير ـ أصل وضعه اللغوي وأثره البلاغي ـ وضع

المضمر موضع المظهر والعكس ، وأثر ذلك فى الـكلام ـ تلوين الخطاب بالمخالفة بين أنواع الضمائر : « الالتفات » وأثره فى الـكلام .

العلم ـ اسم الإشارة ـ الاسم الموصول ـ المعرف بأل ـ المعرف بالإضافة ـ الأصل الوضعى لـكل واحد منها ـ بيان الأثر الأدبى الخاص به فى الاستعمال ، والمواطن التى يحسن فيها .

تعريف طرفى الجملة وأثره فى المعنى : « القصر بالتعريف » .

الفعل والاسم ومعناهما فى الوضع اللغوى ـ الأثر الأدبى لهذا فى معنى الجملة الاسمية والجملة الفعلية ـ وضع إحدى صيغ الفعل مكان الأخرى ، كالمضى مكان المضارعة ، وأثر ذلك فى المعنى .

أضْرُب من مخالفة الوضع اللغوى كالتوسع ، والتغليب ، والتعبير عن المثنى بالواحد . . وما إلى هذا ، وأثره فى المعنى .

(ب) الاستعمال : الظواهر الاجتماعية المفسرة لأحواله ، نصيب الكلمات منه .

تغير الاستعمال قلة وكثرة ، وتأثير ذلك فى دلالة الكلمة ووضعها .

قلة حظ الكلمة من الاستعمال تضعف دلالتها على معناها ، (تصيرها غريبة) : أمثلة لذلك ـ اختلاف الغرابة باختلاف الأعصر ، وأمثلة ذلك ـ ضبط معنى الغرابة باعتبار أدبى ـ مراعاة حاجات الحياة الأدبية وظروفها الاجتماعية عند الحـكم بالغرابة .

كثرة الاستعمال الأدبى لبعض أوضاع الكلمة تجعلها أفضل من أوضاعها الأخرى : أمثلة لحسن استعمال الصيغ الفعلية من مادة ، دون الصيغ الاسمية والعكس ـ فضل بعض صيغ الأفعال على بعض ـ حسن استعمال المفرد دون الجمع والعكس ـ أمثلة لذلك ، و بيان سببه .

الاستعمال يوسع ، بمعونة القرائن ، دلالة بعض الكلمات ، أمثلة لذلك فيما يلى : أدوات الاستفهام ، وما قد تؤديه من المعانى وراء طلب الفهم ـ تذوق الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثرها فى المعنى .

أدوات النداء وما قد تؤديه من المعانى وراء طلب الإقبال ، تذوق الأمثلة المؤيدة لذلك وتقدير أثره فى المعنى .

أدوات النهى وما قد تؤديه من المعانى وراء طلب الترك ، تذوق الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره فى المعنى .

الاستعمال يوسع، بمعونة القرائن، دلالة الصيغ ؛ أمثلة ذلك فى صيغة الأمر وما قد تحتمله من المعانى وراء طلب الفعل. صيغ الإخبار ، وصيغ الإنشاء ، ودلالة إحداهما على الأخرى ، وأثر تبادلهما فى الاستعمال ، وأمثلة ذلك .

اختصاص بيئة من البيئات باستعمال كلمة ، يعطيها عند هـذه البيئة دلالة غير دلالتها اللغوية الأولى ؛ أثر العرف والاصطلاح فى ذلك ، وأمثلة لما يزيدانه فى دلالة الكلمة ، الاستعانة بذلك على توسيع اللغات للوفاء بحاجة العلوم والفنون والأعمال ، وحاجات الحيـاة المختلفة للجماعة .

الإكثار من استعمال الكلمة يمكنها من أداء معنى أوسع، هو من معناها الأول بسبب ؛ وهـذا هو التجوز اللغوى ــ النظر فى سعة اللغة بالمجاز ، والفرق بين المجاز اللغوى ، والمجاز الأدبى ــ الصلات بين المعانى، هى التى تساعد على هذا الأثر للاستعمال (وهى العلاقة فى قولهم). أثر الاستعمال المجازى فى الدلالة ، وقيمته الأدبية .

أثر المركز الاجتماعى للبيئة المستعمِلة للكلمة عليها : رفعة وضـعة ، وكرامة وابتذالا ــ أمثلة ذلك ــ اختلافه باختلاف الأعصر فى الكلمة الواحـــدة ــ الانتفاع بهذا فى الفن القولى ــ اللغة اليومية ولغة الأدب : الفرق بينهما ــ أثر الاستعمال فى قوة الكلمة وفتورها ، وعمقها وسطحيتها ــ الحال النفسية للفرد والجماعة ، متكلمين ومخاطبين ، وأثرها فى مداول الكلمات ــ حسن الانتفاع بذلك فى الفنون الأدبية .

النظم أو تأليف الجمل :

بعض مواضع الكلمة فى الجملة واجب نحويا ، و بعضها جائز يمكن تغييره ، أمثلة ذلك ــ الأحوال الواجبة لابحث للفن فيها إلا من حيث تكشف خصائص اللغة العامة ــ

أحوال الكلمة الجائزة فى الجملة ، هى موضع البحث البلاغى يفاضل بينها ـ ليس كل ما جاز نحويا كان بليغا ، أمثلة ذلك ـ يفسر إيثار الأديب حالا من أحوال الكلمة فى الجملة على حال أخرى فيما يلى :

التقديم والتأخير الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة إذا ما قدمت فى الجملة ؛ وما تتأثر به دلالتها حين تؤخر ـ التخصيص بالتقديم ، والقصر بالتقديم ، والفرق بينهما .

الحذف والذكر الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة حين تذكر وقد أمكن حذفها أو العكس ـ رجوع الحذف والذكر حينا إلى نفسية المتكلم ، وحينا إلى نفسية السامع . وآنا للموضوع الفنى المتناول — أمثلة لذلك .

يكون جزء الجملة جملة ، ولذلك أثره فى المعنى ـ تتقابل معانى أجزاء الجملة أو الجمل ، فيكون لذلك أثر فى حسن الكلام (وهو الطباق) .

ثانيا - فى الجملة :

ربط جزأى الجملة بالإسناد ـ إسناد الشىء لغير من صدر منه [المجاز العقلى] ـ ما يراعى فى ذلك من الاعتبارات الأدبية ، وأثره فى المعنى ـ بعد هذا الإسناد عن الجو الدينى الذى أحيط به عند القدماء .

يدخل المؤكد على الجملة كلها ، ولهذا أثر يفترق عن إدخاله على جزء منها. الاعتبارات المقتضية لتوكيد الجملة .

يكون توكيد المعنى بغير المؤكد الحرفى كالاقتسام فى الكلام والقول بالموجب ، والتعليق . . . الخ .

القصر بالأدوات [إنما ، ما و إلا] وأثره فى توكيد الجملة ـ الاعتبارات الأدبية التى تلحظ عند استعمال كل أداة وشواهد ذلك .

إدخال أدوات الشرط على الجملة وأثره ـ ما يلحظ من الاعتبارات الأدبية فى استعمال كل أداة من أدوات الشرط .

إيجاز الجملة و إطنابها ، وما يضبط ذلك أدبيا ــ أسباب ذلك ــ أنواع الإيجاز فى الجملة ، وأنواع الإطناب فيها .

ثالثا — فى الفقرة :

الترقيم اللفظى لجمل الفقرة [الفصل والوصل] ، الضوابط الفنية لذلك .

إيجاز الفقرة و إطنابها : مقتضياته ــ وضابطه .

الفقرة فى العمل الأدبى جزء من صورة متناسقة فنية الخَلق .

رابعا — فى صور التعبير :

(ا) اختلاف صور التعبير يحدث تأثيرا وقوة ، بيان ذلك والدلالة على التأثير والقوة فى الأمثلة المسوقة ــ قوة الإبانة تكون بالإيضاح المعلِن ، أو بالتظليل المؤثر ـــ إيضاح ذلك بالأمثلة ، و بيان ناحية القوة فى أمثلة الصنفين ــ اختيار كل صنف لمقامه المناسب يختلف باختلاف الموضوع ، وحال المتكلم ، وحال السامع ، من حيث الاعتبارات الفنية .

تكون صورة التعبير من جملة واحدة ، وقد تكون بفقرة من عدة جمل ، أمثلة ذلك :

(ب) صور الإيضاح المعلن :

التشبيه : العمل الفنى فيه ــ الأثر الأدبى له [أغراضه] ــ أنواعه ــ ما يتحقق من الأثر فى كل نوع ــ الشواهد الأدبية الكافية لذلك كله .

الاستعارة : ربطها بالتجوز ، وأثر الاستعمال [على ما مضى فى درس الاستعمال]

ــ العمل الفنى فى أنواع الاستعارة المختلفة ــ بيان تفاوته فيها .

الأثر الفنى للاستعارات المختلفة من تصريحية ومكنية ــ الشواهد الأدبية الكافية لبيان ذلك

الكناية الموضحة ــ العمل الفنى فيها ــ أثرها الأدبى ــ » » » » »

التجريد ــ » فيه ــ أثره » ــ » » » » »

القلب ــ » » ــ » » ــ » » » » »

أسلوب الحكيم ــ » » ــ » » ــ » » » » »

المبالغة ــ » فيها ــ أثرها » ــ » » » » »

تأكيد المدح بما يشبه الذم } – العمل الفنى فيه – أثره الأدبى – الشواهد الأدبية الكافية لبيان ذلك

التدبيج – » » » – » » – » » » » »

التهييج والإلهاب – » » » – » » – » » » » »

التهكم (بجملة) – » » » – » » – » » » » »

الفكاهة (فى جملة) – » » فيها – أثرها » – » » » » »

التجاهل – » » فيه – أثره » – » » » » »

(ح) صور التعبير المظللة

(الرمز والإيماء) بجملة – العمل الفنى فيه – الأثر الأدبى له – الشواهد الأدبية الكافية لبيان ذلك

الإلغاز – » » » – » » » – » » » » »

التورية – » » فيها – » » لها – » » » » »

الاستخدام – » » فيه – » » له – » » » » »

الإتساع – » » » – » » » – » » » » »

خامسا – فى القطعة الأدبية

(ا) عناصر العمل الأدبى : الآراء فى ذلك – إيثار القول الفنى منها .

علاقة مابين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى، مع الإشارة إلى ما تقدم كالتناسب ، وما وراء ذلك مما يلحظ من هذه العلاقة .

(ب) الصناعة المعنوية (مباحث المعانى الأدبية) .

خصائص المعانى الأدبية المميزة لها عن غيرها من المعانى – مصادر إيجاد المعانى الأدبية. طرائق هذا الإيجاد تفصيلا – الأدب والثقافة العامة والخاصة – الرياضة الأدبية وطرقها قديما وحديثا فى تفصيل – ترتيب المعانى الأدبية – العوامل النفسية والأدبية فى ذلك واختلافها فى المتفننين ، وأثرها فى فنهم .

عرض المعانى الأدبية وإخراجها ، واختلاف الأدباء فى ذلك وأثره .

(ح) الفنون الأدبية المختلفة .

أقسام العمل الأدبي قديما وحديثا ، واختيار الفني من التقسيم ـ خصائص الشعر في عباراته ، ومعانيه ، وموضوعاته ـ خصائص كل فن من فنونه ، على هذا التفصيل .

خصائص النثر في عباراته ، ومعانيه ، وموضوعاته ـ خصائص كل فن من فنون النثر ، على هذا التفصيل .

سادسا — في الأساليب:

الأساليب الفنية في الأدب وسواه من الفنون ، دلالتها على شخصية المتفنن ـ الاعتبارات النفسية والأدبية ، التي يقوم بها تميز الأسلوب ـ الأساليب الأدبية ، من حيث هي طراز في الإخراج والعرض تميز عمل الأديب ، مثل الأسلوب الرمزي ، والفكاهي ، والتهكمي ، في عمل أدبي كامل ـ مُقَوِّمات مثل هذا الصنيع ، ومميزاته ، مع الإشارة إلى الروائع الفنية من كل طراز .

* * *

تلكم هي خِطة فن القول ، وتنسيق بحوثه ، لانقول إنها في صورتها الأخيرة ، بل نقول إنها تخطيط لمحاولة ، نأمل أن تظل أبد الدهر ـ لو أمكن ذلك ـ رهن التغيير والتعديل ، وهدف التجديد والتحسين ، يضيف إليها ، ويحذف منها ، وينسِّقها من تهيأت له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له فيه بصيرة خبيرة ؛ ليظل هذا الدرس للفن القولي ، صدًى لحياة أهله ، وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة الوجدانية الراقية .

* * *

وإلى هنا ، أوفيتُ بك على أصول ما دعوته محاولة ، لتصحيح منهج درسنا للبلاغة ؛ وأبديت لك منها الأسس البعيدة ، والأصول الأولى ، عن طريق مقارنة تكشف المسلك ، وتعبِّد الطريق ، فلا تُرسَل الدعاوَى إرسالا ، ولا يُلقى القول إلقاء ، بل هي السابقة والتجربة ، والانتفاع بتجارب الدنيا ، والمسايرة لرقيها ؛ ثم وصفت بين يديك مقابلة للنتائج ، بعضها بإزاء بعض ، يمثل بها لعينيك موضع التغيير ، ومجال الإصلاح شاخصا جليا ، فيدفعك ذلك إلى المضى في سبيل تحقيقه . وقد أريتك من هذا التغيير والإصلاح مُثلا تلفتك إلى ما يُعتمد عليه فيه ، حتى انتهيت بك إلى تخطيط للدراسة المأمولة ، في جديدها ، فوضعت

بذلك بين يدى كل دارس لفن القول، مايسعفه على طَلِبته من ذلك ، إذا ما كان من أهله ، الميسَّرين له ، المعانين ، بفضل الله ، عليه ؛ وسواء بعد ذلك أحاول هـذه الدراسة مجملة موجزة مقربة ، أم حاولها مفصَّلة موسَّعة محقَّقة ، ما دام منهجه سليما ، وهدفه واضحا ، وخِطته بيِّنة ، وقواه مُواتية .

وكنت هممت بأن أفرد كتابا مستقلا من كتب هـذا المؤلَّف ، بباب من الأبواب الـكبار فى هذا الدرس ، كباب الفصل والوصل ، وقد أشار القدماء بأهميته ؛ ودعاه التجديد باب ترقيم الجمل فى الفقرة ، والفقر فى القطعة ، فأتولاه ببيان مفصل ، عن التخلية فيه ، والاستغناء عما لا يجدى ، وثم التحلية له والإكال بما يحقق الغاية ؛ لـكن رأى أخيرا الاكتفاء بما سبق من بيان وتمثيل وهَدْى ؛ يصح أن يترك الدارسون بعده ليجربوا قواهم فى ذلك التغيير ، تمرينا لهم عليه ؛ و يستعملوا حريتهم فيه ، ليعتادوها و يؤثروها، فيتجهوا إلى التفكير المستقل ، والتذوق الشخصى ، لما فى أيديهم من صنيع القدماء فى البلاغة ، أدبيا أو كلاميا ، فتشيع الحياة فى الدرس ، بفضل تلك الحرية ، وتتعاون الأذواق المبصرة ، على تأصيل فكرة التجديد ، خالصة من قيود التحديد ، نافرة من حواجز التعقيد ، فتستعد الأنفس بذلك خير استعداد، لتلقِّى مايجيئها فى يقظة ودقة ، وحرية وطلاقة ، تبثّ فى الدراسة الأدبية حيوية وقوة ، ونماء وتقدما ، يرضيان نهضة أدبية جادة .

* * *

وبعد: فمن الوفاء بالحق أن أزجى شكرى خالصا ، لأولئك الذين حملوا عنى ما أكره من أعباء إخراج الـكتب ، على طريقتنا الحاضرة ، وأثقالها المادية ، وصورتها التجارية ؛ والأمناء جميعا أصحاب فضل فى ذلك ، والأمينة الجليلة، السيدة بنت الشاطىء، صاحبة فضل أخص ، يجزيه عليها بعد رضا الله أريحيتها الفنية .

كما أشكر من تحمل عنى الأعباء العملية، فى هذا الإخراج والمراجعة والتصحيح ، وهو الزميل الـكريم ، الأستاذ مصطفى السقا، الذى جعلتنى عنايته الوفيرة بهذه الجوانب، أستريح من كل عناية بها ، وتدبير لهـا ، وأعرف إليه الفضل كله فيما تم من ذلك التحرير والتصحيح ، والتعجيل والإنجاز ، جزاه الله خير الجزاء ، وأعانه على الخدمة المتصلة للتحقيق والنشر ، ونفع بها مصرنا العزيزة ، وشرقنا المحبوب .   أمين .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

